بوراوي الطرابلسي

تاريخ تونس المَنْسيُّ

السكان والأرض









تاريخ تونس المَنْسِيُّ

السكان والأرض

الناشر : الأطلسية للنشر

86 شارع بورقيبة – أريانة
الهاتف- فاكس :71709018
البريد الالكتروني atlas1.editions@yahoo.fr

سحب من هذا الكتاب في طبعته الاولى
1000 نسخة
جوان 2015

بوراوي الطرابلسي

تاريخ تونس المَنْسِيّ
السكان والأرض


الاطلسية للنشر

الإهـداء

Dédicace

Ce livre est dédié à ma femme Nathalie
Et, à mes deux filles : Naïma et Anjelli

مقدمة

مرّ على تأسيس المدرسة التاريخية التونسية قرابة الأربعة عقود من الزمن، ألف فيها مؤسسو الجامعة التونسية عديد الكتب المهتمة بتاريخ البلاد، من ما قبل التاريخ إلى التاريخ الآني. و تواصل عملهم بعد ذلك من خلال إشرافهم على عديد البحوث و الرسائل و الأطروحات الجامعية، و التي تجاوز فيها أصحابها الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية، بعد أن حينوا المعطيات إثر الاكتشافات الأركيولوجية، و بعد أن اعتمدوا وسائل عمل جديدة، واطلعوا على مختلف المقاربات، فاستطاعوا بذلك استيعاب إشكالية التداخل بين علم التاريخ من جهة و العلوم الإنسانية و الاجتماعية الأخرى من جهة ثانية.

للمكتبة التاريخية التونسية رصيد ثري تم فيه تجميع كل الكتابات الأكاديمية عن مختلف حقب البلاد التاريخية. و تزامن ذلك مع تنوع مسالك و مناهج البحث و التخصص، التاريخ الاقتصادي، و التاريخ الاجتماعي، والانثروبولوجيا، و التاريخ الحضاري، و المونوغرافيا... لكن يبدو أن تاريخ الأرياف بقي مسكوتا عنه، مع أن كل الكتابات التاريخية اهتمت بالمسألة الفلاحية التونسية، إلا أنها لم تتعدّ مجرد فصول في باب الحديث عن الأوضاع الاقتصادية. بل إنّ الخوض فيها أصبح معقدا جدا بسبب انغلاق هذه

الدراسات وراء الحدود الزمنية حتى أنه أصبح من السهل التسليم بوجود «قطيعة» عندما يكون الحديث عن تاريخ الفلاحة في البلاد التونسية، بل ورفض فكرة «التواصل».

فهل نستطيع كتابة تاريخ الأرياف التونسية؟ قد يكون ذلك ممكنا إذا ما اكتفينا في البداية بتصميم موجز لهذا التاريخ المنسيّ، و أن لا يكون هذا الموجز مجرد عملية «تأليفية»، بأن ننهج أسلوبا يقوم على جمع المادة المتراكمة عن الأرياف و فلاحتها و الموزعة في عديد الدراسات، و الاقتصار على ربطها باتباع التسلسل التاريخ الذي عرفته البلاد: أي الفلاحة في مختلف العصور التاريخية: ما قبل التاريخ، العهود القديمة، العربية الكلاسكية والحديثة والمعاصرة. فقد كانت الغاية من وراء هذا العمل البحث عن الثّابت والمتحوّل في تاريخ الأرياف التونسية.

قد تبدو هذه المهمة صعبة، لدقة الدراسات التي وضعها الباحثون عن تاريخ الفلاحة في تونس عبر مختلف العصور و عمق تلك الدراسات. لكنها مهمة قد يصبح من اليسير إيجاد مخرج لها إذا ما ابتعدنا قليلا عن ما حتمته «موضوعية» قراءة النصوص، وحاولنا الشعور أكثر «بالبعد الفلاحي والريفي» لتاريخ البلاد. لأن النصوص وحدها قد لا تكفي إذا ما لم نتنبه إلى ما هو ريفي في أعماقنا، قد يشعر به كل تونسي، خاصة ذلك الذي كان الرّيف موطنه الأصلي. لكن الشعور وحده قد لا يكفي كذلك لإبراز معنى تاريخ الأرياف، لذلك ينبغي المراوحة بين ما هو موروث مكتوب وما هو منقول شفوي و في دقائق الحياة اليومية.

فلو أخذنا على سبيل المثال لا الحصر شمال البلاد التونسية ، فمن البديهي القول إنّ كل رقعة منه لا تخلو من أطلال قديمة، آمازيغية، قرطاجية، رومانية، بيزنطية، عربية، تركية، أندلسية و فرنسية، و إنّ كل الشعوب الوافدة عبر مختلف العصور عنيت بالفلاحة، و الدليل على ذلك ما تركته من منشآت

لها علاقة، مباشرة أو غير مباشرة، بالفلاحة. لكن يبقى ذلك مجرد موروث محسوس لا ينشغل به المرء طويلا، لولا ما يحدث للطبيعة من تغيرات فصلية. فألوان النبات تتغير، من صفرة إلى خضرة إلى ألوان متعددة إلى صفرة من جديد، فيبدأ عندها الوعي بتعاقب الفصول. ويزداد إحساسك بالزمن الفلاحي عندما تشاهد البلاّرج و الخطّاف، تجيء و ترحل، تبني أعشاشها وتترك أفراخها. لكنها ليست الرحلة الوحيدة، فهنالك رحلة الآدميين. تكتشف إثرها و لأول مرة أناسا جددا، ودواب لم تعرفها، الجمل أو سفينة الصحراء. عندها تعرف ميقات الزّرع و الحصاد و نِتَاج الماشية، عندها تعرف المواسم الفلاحية، عندها تقيس الزمن من خلال تلك الروزنامة الزراعية- البدوية. عندها يجيء «الجنوب» و «الوسط» إلى «الشمال» في الصيف، و يرحل «الشمال» إلى «الوسط» و «الجنوب» في آخر الخريف. عندها يصبح للكلمة تونس معنى، فتشعر باتساع مجال البلاد و تنوعه. و تفهم ما الذي يجمعك بذلك القادم من الجنوب و الوسط.

في ذلك الحين تستطيع رسم ملامح هوية البلاد، لأن مسألة الهوية ما زالت تثير جدالا عنيفا بين المثقفين، بسبب توقيت طرحها و ما تحوم حوله من تساؤلات عن أسباب تَنَكُّر بعض أصحاب القلم لأصولهم، وهو أمر اعتادت عليه الأمة العربية منذ أزمان خَلَت، لأنه تعبير قبل كل شيء عن انتهازية مقيتة التحفت بلحاف مَقُولة ابن خلدون الشهيرة «في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب». فكلما اتسعت الهُوَّة بين الشرق و الغرب كثف هؤلاء من طرح الأسئلة المغلوطة عن العرق و الحضارة و الثقافة. لكنَّ المتنكرين لأصولهم الثقافية و الحضارية قد يجدون صعوبة في إقناع أنفسهم قبل أن يقنعوا المُتَلَقِّي و يدعونه إلى التنصل من مسؤولياته القومية، لذلك لا نستغرب سعيهم لتبرير تركهم السفينة و هي لم تغرق بعد.

و من المؤسف أن نرى البعض يضع أركانا من سراب لبناء هوية مزعومة

معتمدين على قانون العرض والطلب الذي يسود سوق الأفكار في زمن العَوْلَمَة للحصول على مكاسب معنوية ومادية.

قد يكون من المفيد بالنسبة إلى كل مؤرخ محترف قضى حياته في الالتزام «بميثاق» الموضوعية التاريخية أن يتحرر، ولو لحظة، ليخوض في قضايا أمّته ووطنه، لأن هذا «الميثاق» أصبح يُثير السخرية بسبب ما نعيشه في هذا الزمن البائس، خاصة أن الكل يَعْلَم- بمن فيهم المؤرخ - بأنه لا وجود لموضوعية تاريخية في المطلق، و إنما وسائل عمل المؤرخ هي وحدها التي ينبغي أن تكون «موضوعية» وهي السبيل الوحيدة كي لا تفقد هذه البلاد ذاكرتها الثقافية فتذوب بسرعة في هذا النظام العالمي الجديد.

سأحاول من خلال هذه البحث تقديم دراسة موجزة لتاريخ أرياف البلاد التونسية و استجواب ذلك الرّيف المَنْسيّ الذي لم يُسأل سكانه يوما عن هويتهم. لكن البداية ستكون بطرح السؤال أولا على الأرض التي لئن وَفرت العَمل والسَكن و الغِذاء و المَلْبَس للتونسيين فإنها جلبت لهم الاستعمار و العبودية و كذلك الحُرِيَّة.

الفصل الأول
زمن الأرض

البحر و الأرض

تتميز المشاهد الطبيعية في البلاد التونسية بتنوعها، و قد لا تحتاج إلى أكثر من يوم واحد، خاصة في فصل الصيف، لقطع البلاد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، و الانتقال من غابات خمير إلى نخيل واحات الصحراء مرورا بحلفاء السباسب. ولئن بدت هذه المشاهد الطبيعية ثابتة، فإنها في حقيقة الأمر وليدة تحولات جيولوجية و مناخية هامة لعبت دورا كبيرا في نحت تركيبتها و تشكلها.

البلاد التونسية هي بلد السهول، لم تلعب فيها الجبال دورا كبيرا في نحت شخصيتها، لقلة ارتفاعها. لكن هذه السهول الممتدة من بنزرت إلى جفَارة على الساحل، و من جَنْدُوبة إلى قَمُّودَة في الداخل، وجدت منافسا قويا لها هي الصحراء الإفريقية الكبرى[1].

يحتل هذا الثالوث التضاريسي موضعا انتقاليا بين شمال معتدل و جنوب صحراوي مداري، هذا ما يجعلها تحت تأثير الكتل الهوائية القطبية و الأخرى

---

1 – العيدي (إبراهيم)، جغرافية تونس الحديثة، تونس، 1952، ص 14 و هذا ما سبقه في استخلاصه زميله الفرنسي (Marcel Dubois) حين ذكر "

Point de remparts continus, de montagnes qui séparent les gens du Tell ou du Sahel, de ceux des plateaux ou du désert ! De l'une à l'autre de ces régions, l'on passe par une série de nuances, rarement par un soudain et violent contraste Le paysan des bords de la Medjerdah et assurément moins surpris, si on le transporte à Djerba ou à Gabès, que le Berbère de Grande Kabylie envoyé à Laghouat L'opposition entre le sédentaire et le nomade est moins vive aussi en Tunisie que dans le pays voisin" أنظر Marcel Dubois, la France en Tunisie, in Revue générale des sciences pures et appliquées, Paris, 1897, p 16

المدارية، تعمل كلها على تداول حكم البلاد مناخيا. فعندما تتقهقر الكتل المدارية في الشتاء يُفسَح المجال للرياح الشمالية الغربية الرطبة المصحوبة بأمطار. لكن سرعان ما تترك مكانها في الصيف للهواء الصحراوي الحار والجاف حين تقرر الصعود نحو البحر الأبيض المتوسط. عند ذلك تُسجل رياح الشّهيلي أول ظهور لها. لكن الظهرية لا تلعب دور الحياد في تعاقب تأثير رياح الشمال و الصحراء في مناخ البلاد، فهي تعمل على منع الرطوبة المكثفة من التوغل صوب الجنوب في حين لا تمانع من عبور الشّهيلي إلى الشمال، هذا التحالف بين الظهرية و الصحراء قد يكون على حساب فلاحة البلاد التي تغلب عليها الأودية الموسمية باستثناء واد مجردة النابع من الجزائر.

قد تكون العوامل الطبيعية قسمت البلاد التونسية إلى ثلاثة أقاليم: إقليم الحُبُوب في الشمال و قلبه النابض «افرِيـقَـة»، و الزياتين في الوسط، و الواحات في الجنوب. لكن تنقل السكان، منذ آلاف السنين، من الشمال إلى الجنوب، قد يكون وراء ذلك التناغم بين هذه الأقاليم الثلاثة، جاعلا منها بلدا واحدا.

البحر: داخله مفقود و خارجه مولود

لعب البحر دورا كبيرا في نحت المشاهد الساحلية و لكن أيضا في بناء المشاهد الداخلية. فلهذه البلاد «تاريخ» جيولوجي متقلب، قد يعود إلى عشرات ملايين السنيين، إلى عصر ما اصطلح عليه في علوم الأرض، بعصر «جزيرة القصرين». حين كانت أغلب مناطق الوسط و الجنوب مغمورة بمياه البحر و لم يكن بارزا منها غير أرض صغيرة هي جهة القصرين حاليا[1]. تاريخ كاد يُطْمَس بسبب حركة الأرض التي فكت عقدة الانبساط، فتضرست و طفت بعد أن كانت مغمورة، لولا تلك الأحفورات التي عثر عليها العلماء في مناجم الفسفاط، و في عديد صخور البلاد، و التي كانت شاهدا على

1 - الوسلاتي (عامر)، المشاهد الطبيعية في تونس، تونس، 1994، ص 194

طغيان البحر على اليابسة[1]. لكن البحر، و رغم تشكّل التضاريس و بروزها، لم يعرف الهدوء بل شهد حركات تقدم و انحسار، أقدمها ارتفاع مستواه منذ مائة ألف سنة خلت، بعد أن فاق مستواه السابق بحوالي عشرة أمتار[2]. فنتج عن الأمواج العاتية وجود المسطحات في أماكن عديدة من سواحل الواجهة الشمالية و الشواطئ الحجرية و سباخ جزر جربة و قرقنة[3]. فكانت بحيرات الشمال أكثر انفتاحا و امتدادا على البحر، حتى إن بحيرة بنزرت كانت تضم قسما كبيرا من منزل عبد الرحمان و منزل الجميل و العزيب و الجواودة و أم هانئ و منزل بورقيبة[4]، بل و غمرت مياه البحر سهل رأس الجبل و سهول خليج تونس[5]. على أن البحر سجل انحسارا بعد ذلك ، أي قبل عشرين ألف سنة تقريبا، إذ تراجع بما لا يقل عن مائة متر، فأصبحت مدينة قابس على سبيل المثال في الداخل، ففارقت البحر قرابة 180 كلم[6]. ثم عرف مستوى البحر من جديد ارتفاعا متواصلا في مستواه في الفترة الممتدة بين 15000 و 6000 سنة ق.م.

و إذا الأرض أخرجت أثقالها

عرفت الأرض، بعد طور البحر طورا جديدا هو طور الأرض حين تحركت قشرتها، و اصطلح على هذه الحركة بالحركة التكتونية، خلصت على إثرها البسيطة من مياه البحر فَطَفَت، فظهرت تضاريس البلاد الالتوائية التي اتخذت شكلها و تنظيمها الحالي. وقد نتج عن الحركات المتواصلة في التواء ما كان قد ترسب قبل ذلك، بروز الجبال التي غمرت المياه في النصف الأول من الزمن الثالث، و لعل أهم شاهد على ذلك جبل الناظور و جبل منزل غول

1 - راجع، Depois (J.), *La Tunisie Ses régions*, Paris, 1967 ,p 32
2 - الوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص 196
3 - نفس المرجع
4 - نفس المرجع
5 - نفس المرجع، ص 198
6 - نفس المرجع

و جبل الكشابطة[1]، لكن حركة قشرة الأرض صحبتها انكسارات أدت إلى ظهور الأحواض الانخسافية.

بين السما، و الأرض

غير أن هذه الأشكال، و قد تكون اتخذت رسمها منذ الزمن الرابع، لم تقدر على المحافظة على شكلها بسبب التعرية، بعد حدوث تغيرات كبيرة على المناخ خلال الزمن الرابع[2]. فأشكال النحت و الرواسب هي نتيجة لتتابع الأزمنة المَطِيرة (الماطرة) و أخرى بَيْمَطِيرة (الجافة). فقد عاشت البلاد الفترة المطيرة قبل 20000 سنة خلت كان للسيول الدور الكبير في تحول السفوح و تشكل الوديان. و هذه الفترة عرفت فيها البلاد «عصر» الغابات و التي كانت ممتدة في السباسب. و من غير المستبعد أن تكون البلاد سجلت انخفاضا كبيرا في درجات الحرارة، قد يكون مكن الجَمَد من نحت بعض السفوح، ونذكر على سبيل المثال رواسب سفوح جبل الغرف عند مدخل مدينة حمام الأنف. كما نحت الجَمَد التجاويف و الفجوات، مثل تجاويف جبل برقو[3].

---

1 - الوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص 200

2 - راجع، Depois (J.), *op cit*, p 32

3 - الوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص201

ما قبل و بعد
عصر جزيرة القصرين

السواحل

تمتد سواحل البلاد على 1300 كلم تقريبا، من الشمال إلى الجنوب، حتى أنّ كل نقطة في البلاد تبدو و كأنها مشرفة على البحر، فتكشف شرق المتوسط للمغرب، و تمثل رؤوسها في الشمال أعمدة الفصل بين حوضي المتوسط الشرقي و الغربي1. وقد دأب المختصون على توزيعها إلى سواحل الواجهة الشمالية و الواجهة الشرقية بسبب امتدادها الكبير وكذلك نظرا إلى المعطيات التوبوغرافية و الجيولوجية و الهيدرولوجية.

الرؤوس و الخلجان

هي أهم ما يميز مشاهد سواحل الواجهة الشمالية، تتكون من رؤوس صخرية ضخمة شديدة البروز و متقدمة في البحر، يقع أغلبها على السواحل الواقعة بين رأس الأبيض و الحدود الجزائرية، لعل أهمها رأس كاف عباد و رأس سرات و رأس بودماغ (رأس نيقرو) و رأس كاف الري و رأس فيض

1 - نفس المرجع، ص 78

الدبوبة. هذه رؤوس تفصلها خلجان ضيقة بين كاف عباد و رأس بودماغ، و التي يسميها أهالي الجهة المرُسْ، لعبت فيها التعرية التفاضلية التي تقوم بها الأمواج دورا كبيرا في تتابعها[1].

الشواطئ

تغلب على سواحل البلاد التونسية الشواطئ الرملية التي غالبا ما تشكلت بفعل الأودية، هذا ما نلحظه بوضوح في الشواطئ الواقعة بين بنزرت و طبرقة، مثل شواطئ كل من رأس إنجلة و رأس سرات و الزوارع و بركوكش، و كذلك حول مصبات وادي الشفار، بين صفاقس و المحرس، و وادي المالح و وادي قابس. تتميز بتشابهها عرضا و طولا و امتدادا، مثل تلك الشواطئ الممتدة، و دون انقطاع، بين رأس الطرف و سيدي الرّايس، و بين مدينتي قليبية و المنستير، و بجزيرتي جربة و العكارة، و بين المهدية و راس الديماس.

و لهذه الشواطئ شواهد جيومورفولوجية لعلاقتها المباشرة بالبحر، لعل أبرز الأمثلة ألسن شواطئ الأراضي المنخفضة، حين تتقدم على حساب البحر في شكل سهام، نذكر الألسن الواقعة بين غار الملح و قلعة الأندلس على مستوى المصب المهجور لوادي مجردة، سهم فم الواد، و راس قبودية بالشابة، و على واجهة جزيرة جربة الشرقية.

و قد تغامر الشواطئ و تتحدى البحر فتتقدم في شكل ظهور رملية متوازية و متتابعة، قبالة شواطئ الواجهة الشمالية الشرقية لجزيرة جربة، و شواطئ الشفار، و شاطئ وادي المالح في خليج قابس، و تلك الممتدة بين رواد و غار الملح. و قد يتحول هذا التحدي إلى اكتساح كما حدث ذلك في منطقة الديماس حيث تبرز الشواطئ في شكل جزيرة صغيرة، لكنها شديدة البروز،

---

1 - نفس المرجع، ص 80-84

يسميه أهالي منطقة طبلبة-الديماس «الدزيرة»[1] .

عندما تتوغل الرمال في البر

تنتج الحقول الرملية عن مواجهة السواحل للرياح و انعدام غياب الغطاء النباتي الذي يساعد في نقل الرياح للمواد الرملية إلى البَرّ. و تتوزع أهم الحقول الرملية بسواحل الواجهة الشمالية للبلاد التونسية، بين نفزة و وِشْتَاتة و سيدي مشرق و كاف عباد، و بين وادي دار الجنة و مدينة بنزرت. تتقدم المواد الرملية داخل الأودية بفعل تعامدها مع السواحل و قبولها لمرور الرياح في ممراتها، ونذكر هنا وادي الداموس و وادي قمقوم و وادي الزوارع. كما أن سرعة الرياح قد تمكن الرمال من التوغل أكثر في البر، و قد يكون أفضل مثال على بلوغ الرمال قمة جبل الناظور و تقدمت أكثر من عشرة كيلومترات بعيدا عن ساحل سيدي البشير، و عبرت جبل الذيب الذي يبلغ ارتفاعه 232 مترا[2].

البحيرات الساحلية

هي مسطحات مائية دائمة تتصل بمياه البحر عبر منافذ، و هي إما منافذ دائمة أو فصلية. و أهم هذه البحيرات الساحلية في الشمال: بحيرة إشكل، و بنزرت، و غار الملح، و تونس، و بحيرة البيبان في الجنوب[3].

السباخ و الشطوط و المستنقعات

يمكن التمييز بين الشطوط و المستنقعات من جهة، و السباخ من جهة ثانية بوجود النبات من عدمه. إذ تنعدم النباتات في السباخ، و تبرز في الشطوط و المستنقعات، و تكون في غالب الأحيان ملحية، تتوزع على الأطراف لتحيط بها. و هي أراض منخفضة و منبسطة السطح، يعود وجودها إلى عوامل

1 - نفس المرجع، ص 86-94

2 - نفس المرجع، ص 96-104

3 - نفس المرجع، ص 107

طبوغرافية و مناخية و هيدرولوجية، فكلما انخفضت الأراضي الساحلية صَعُب على الأنهار صرف مياهها و استعصى عليها مواجهة أمواج البحر، الذي قد تتسرب مياهه إذا كانت تربتها نفاذة. لذلك تكثر السباخ و بصفة خاصة على سواحل خليج تونس، و خليج الحمامات، و خليج قابس، و على الشريط الساحلي الممتد بين جزيرة جربة و الحدور الليبية التونسية[1].

التقاء البحر باليابس

تظهر عند التقاء البحر باليابس حافات خالية من النبات مكونة أكثر المشاهد الساحلية امتدادا و ذلك على طول 400 كلم لتنافس بذلك الشواطئ الرملية، مع أنها قليلة الارتفاع. و تنقسم هذه الأجرف إلى صخرية مرتفعة نسبيا عن باقي الأجرف الأخرى و تترك خاصة في الواجهة الشمالية لعل أهمها جرف رأس الدرك، و رأس الدار، و رأس الفرطاس، رأس الطرف، رأس الزبيب، رأس سرات و أخرى طينية تنتشر على الواجهة الشمالية، و واجهة خليج قابس الشرقية، و حول بوغرارة. أما النوع الثاني من الأجرف فيكون من مواد طمية، قليلة الارتفاع حيث لا يتجاوز ارتفاعها الأربعة أمتار، تكثر خاصة في سواحل المناطق الشمالية، في مرسى الذويبة، و برينيط، و سونين، و بني عطاء، و هي أجرف منخفضة[2].

باطن الجبال و ظاهرها

تنتمي السلاسل الجبلية التونسية إلى الأطلسين التلي و الصحراوي اللذين يلتقيان في البلاد التونسية بعد نفور افتراق في الجزائر. و من أهم جبال البلاد، تلك المنتمية إلى الظهرية التونسية، و جبال خمير و مقعد، و المشرفة على حوض مجردة. يتجه معظمها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، و يكون امتدادها جليا رغم تقطعها بفعل الأودية المتفاوتة الاتساع و العمق.

---

1 - نفس المرجع، ص 112-121

2 - نفس المرجع، ص 124-140

لكنها قليلة الارتفاع مختلفة الحجم و متباينة السفوح[1]. على أن ما يميز جبال البلاد التونسية أن التي تبرز أكثر من غيرها ليست هي تلك الدائمة الارتفاع، بل إنّ للسهول الدور الكبير في إظهار الجبال و جعلها مرتفعة للعيان، فجبل مغيلة مثلا يظهر حضوره على حساب جبل الشعانبي، أعلى قمة في البلاد 1544 متر[2]. و تختلف الجبال من حيث لونها الظاهر: فتكون في الجنوب ذات ألوان فاتحة تميل إلى الحمرة و مردّ ذلك ندرة النباتات على سفوح فتبرز ألوان صخورها، هذا ما قد نشاهده في جبال قفصة، و المرتفعات المطلة على شط الجريد. و قد تكون متعددة الألوان كما هو الحال في السفوح الشرقية للظهرية. لكن ما إن يتوفر الغطاء النباتي، كما هو الحال في جبال خمير و مقعد، حتى يسود اللون الداكن[3]. و تختلف الجبال حسب شكل سفوحها و قممها، فمنها جبال ذات قمم عريضة و سفوح شديدة الانحدار مثل جبل صمامة (1314 متر)، و جبال تكون سفوحها شديدة الانحدار غير أن قممها ضيقة أو حادة أو متموجة أو مسننة مثل جبل المنشار بباجة[4].

يعود وجود هذا المظهر و هذه الأشكال المتنوعة للجبال في البلاد التونسية إلى سببين رئيسين، أوّلها بنيتها الالتوائية، وثنيها عمل التعرية التي قد تغيّب تلك الصورة الباهتة لتلك الكتل الصخرية[5]. و من بين هذه الأشكال يمكن أن نذكر ذلك الشكل الطوبوغرافي البارز بفعل عمل المياه الجارية، أو بفعل الانكسارات الناتجة عن حركة قشرة الأرض، و اصطلح المختصون على تسمية هذا الشكل بالأعراف. و يرتبط عمل التعرية الانتقائية بطبيعة الصخور التي تتكون منها الأعراف، فكلما كانت صلبة برزت بنى أحادية من فصيلة الحواجز. و كلما كانت هشة برزت الأودية، و هو ما نلاحظه

---

1 - راجع , Depois (J), *op cit* p 12
2 - نفس المرجع
3 - للوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص 26
4 - نفس المرجع، ص 12
5 - راجع , Depois (J), *op.cit* p 13

في خمير و مقعد، حيث تتابع القمم المتكونة من الصخور الصلبة و الأودية ذات التكوينات الهشة. و تزداد هذه الأشكال وضوحا في الجنوب و تحديدا في سلسلة جبال قفصة و تلك الممتدة بين المكناسي و الشريشيرة. كما تنتظم الأعراف في شكل حلقات تحيط بمنخفضات من بينها تلك التي يطلق عليها الجغرافيون اسم البُهَر، و التي يسميها الأهالي الحُفر، و هي ناتجة في الغالب على تعرية المحدبات، و قد نذكر البهرة أو الحفرة التي تتوسط محدب ساطور الحمامات بجهة النفيضة أو بهرة جبل الكشابطة. أما الأعراف الناجمة عن الانكسارات فيمكن أن نذكر الأعراف التي تطل مباشرة على سهول بوسالم و جندوبة مثل جبل الربيعة و منطقة هذيل مثل جبل الطابونة و جبل الحفيرة و جبل دمنة جبارة و جبل الأجرد. كما تمتاز الجبال بأوديتها العميقة المرتبطة بصلابة الصخور و التي تؤدي إلى وجود الحافات القائمة فتتحول الأودية إلى خوانق شديدة الوعورة. و قد يفسر تنوع الصخور تعرج الأودية، فتكون إلى حد ما مستقيمة المسار عندما تكون المجاري صغيرة و تجري فوق سطوح قليلة الامتداد و الانحدار[1].

1 - الوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص56

بين الجبال و السهول

أقدام الجبال

تتميز الجبال التونسية بالتباين الشديد بين سفوح الجبال و أقدامها. فقد تشكلت أقدام الجبال على إثر عمل تعرية المياه الجارية، رغم الدور الذي قد يلعبه الغطاء النباتي. فوجود السطوح كان بعد عملية نحت، أطلق عليها المختصون اسم الحوادير، وبعضها بعد عملية تكديس متواصلة، أطلق عليها اسم المراوح الفيضية. و من بين الحوادير يمكن أن نذكر تلك السطوح المتدرجة بأقدام جبال قفصة، و مغيلة، و على ضفتي وادي الكبير بين سيدي سعد و سيدي زيد. و قد تتسبب التعرية في تقطيع بعض الحوادير و عندها تبرز للوجود الروابي و التلال المتصلة بالسفوح، و تكون مُمَدَّدة يسميها الأهالي «الرَّاقُوبَة» أو العَرْقُوب أو «الكرُومَة»، و إن كانت ممتدة يطلقون عليها اسم الكُدْيَة أو المِيدَة، مثل موائد ظهير مدينتي منزل تميم و قربة. أما التعرية الريحية، وفي ظل غياب الغطاء النباتي في الوسط و الجنوب، فإنها تعمل على تذرية الجزء الدقيق من الرواسب لتركز المواد الخشنة، فيطلق الأهالي على هذه السطوح الحصوية اسم الحمادة. كما تتميز أقدم الجبال بكثرة المراويح الفيضية، و يمكن أن نذكر قدم السفح الغربي لجبل بني وليد بشبه جزيرة الوطن القبلي و الماتلين–رأس الزبيب بجهة بنزرت[1].

---

1 – نفس المرجع، ص 66–76

الهضاب

هي الأرض المنبسطة الضعيفة الانحدار و هي تغطي جزءا هاما من البلاد، تظهر توافقها أحيانا وسط الجبال مع القمم المسطحة أو بعض المقعرات الشاخصة، مثل جبل كسرة و جبل القراع. لكنها تبرز خاصة في التضاريس المنعزلة، التي تشرف على السهول، كتلك الموجودة في جنوب البلاد، خاصة في الظهر التونسي، الذي يعرف بجبل مطماطة أو «الجبل». كما نجد الهضاب في أقدام الجبال، و المقصود هنا تلك الاسطح النحتية و التي اصطلح عليها بالحوادير، مثل ما هو الحال في القدم الشرقي لجبل الفكيرين، و جبل مغيلة، و عند القدم الغربي لجبل طرزة، و جبل الطويلة بمنطقة حاجب العيون، و القدم الشرقي لجبل عبد الرحمان، و بين جبل الشعانبي و جبل السلوم.

كما توجد الهضاب في الأراضي التي تحيط بها الجبال و التي تتوافق و الأحواض الانخسافية، كتلك الموجودة بين جبال كسرة و وسلات و طرزة، و التي يشقها وادي مرق الليل و الجباس و روافدهما.

وتوجد الهضاب في المناطق المنخفضة مثل الهضاب المتاخمة لخليج قابس، و في ظهير ساحل المهدية و الشابة و جبنيانة و الجفارة. و يؤدي تقطع الهضاب بفعل المياه الجارية إلى بروز التلال و الروابي مثل كُدْية بوطويل بين وادي السراق و وادي المرسيت بجهة قابس، أو العَرْقُوب مثل عرقوب الزعتر بجهة مجاز الباب، أو الراقوبة مثل راقوبة الزقايقي و السبعة رقود و الموتى عند القدم الشرقي لجبل مغيلة، و ذراع الحمار بين جبلي مغيلة و تيوشة، و ظهرة قلالة بجربة[1].

التلال و الروابي

تنتشر التلال و الربى على مساحات كبيرة، خاصة في السباسب السفلى و الساحل و صفاقس، و كذلك في الأراضي التي تتقدم الجبال أو التي تمتد

1 - نفس المرجع، ص 144-157

عند أقدامها. و يعود وجودها إلى ثلاثة عوامل رئيسية: منها ما نحتته التعرية، و ومنها ما كان بفعل التكديس، ومنها ما يعود إلى عوامل بنيوية. و تتوسط الربى السهول فتكون منعزلة، مثلما هو الشأن في الضاحية الجنوبية لمدينة تونس بالكبارية و جبل الجلود و مقرين.

السهول

تهيمن السهول على كامل البلاد، و هي أراض منبسطة ذات سيلان سطحي أو قليل التعمق، و هي التي احتضنت الإنسان و جعلته أكثر حضورا و أكثر تفاعلا إلى درجة أنه ساهم مع التعرية على تغيير شكلها نسبيا. يتوافق القسم الأهم من السهول التونسية و الأجزاء الأكثر انخفاضا من التضاريس ذات الأصل الالتوائي لتحتل قيعان مقعرات و تفصل بين الجبال. و يكون بعضها نتيجة لحركات هبوطية لقشرة الأرض لتحتل أحواضا انخسافية، تحدها في غالب الأحيان حافات شديدة الانحدار تتوافق و انكسارات كبيرة، مثل سهل القصرين و بوسالم و بوعرادة-الفحص و قرمبالية و سمنجة. كما أن العديد من السهول حديثة النشأة، يعود وجودها إلى عملية تكديس هامة عند مصبات الأودية، قد نذكر على سبيل المثال سهل الزهراء و حمام الأنف بفضل رواسب وادي مليان، و سهل وادي الشفار، و سهول قرعة إشكل بفضل رواسب وادي سجنان و جومين و المالح، و سهول وادي مجردة. و وجدت السهول بعد التزامن ما بين تراجع مستوى البحر و تكديس الرواسب التي تركتها الأودية الخارجية الصرف، مثل سهول طبرقة و بنزرت و راس الجبل و تونس و قليبية و نابل و الحمامات و سوسة و المهدية و صفاقس و المحرس و قابس و جرجيس، و جربة بكل من أجيم و حومة السوق. كما كانت عملية التكديس وراء اختلاف مظهر الأتربة، فهناك تلك التي تميل إلى السواد أو البني في إقليم التل التونسي، و بالخصوص على حوض مجردة، و تكثر الألوان السمراء الفاتحة بين الأخضر و الأصفر بسهول الشمال الشرقي و الوسط، و

الألوان الوردية و التي تميل إلى الأحمر الفاتح في السواحل الجنوبية الشرقية. على أن السباخ تحتل مكانة متميزة في السهول حيث تكثر في المناطق المحاذية للسواحل، مثل سبخة الكلبية التي تستقبل مياه وادي زرود و مرق الليل الصعبة التصريف، و مكنين و سيدي الهاني و الشريطة و الجم و الغرة و بوجمل و النوال و عرق المخزن و أم الخيالات، و في الشمال سبخة السيجومي، وقد تبعد عن البحر مثل سبخة الكرزية بجهة مجاز الباب، و سيدي منصور القطار و قرعة دوزة، لكن أهم سباخ البلاد التونسية هي التي يطلق عليها اسم الشطوط، وهي الممتدة مباشرة جنوب جبال قفصة، مثل شط الفجيج و شط الجريد و شط الغرسة[1].

الكثبان الرملية

ينتج عن عملية التكديس أشكالا ريحية تعرف بالكثبان الرملية تطغى على مساحات كبيرة، خاصة غرب الظاهر، حيث يسجل العرق الشرقي حضوره في البلاد. و تتنوع أشكال الكثبان الرملية: فمنها الكثبان الصغيرة، التي تتفرع إلى كثبان مستطيلة الشكل عرفها الجغرافيون بالنبكة و تتكون خلف الحواجز، و منها كثبان هلالية الشكل تتبع محدبة الجهة التي تهب منها الرياح و اصطلح على تسميتها بالبرخان.

و كثيرا ما تلتحم الكثبان فتكون سلاسل ممتدة تفصلها منخفضات في شكل أودية، يسميها الأهالي الفج، تكون رمالها أقل جفافا تمكن من نمو نباتات في قيعانها، لكن قد تحتلها السباخ. و ينتج عن تلاحم الكثبان ميلاد الأعراف ذات القمم الحادة أحيانا شبهها أهل الصحراء بالسيوف.

و عندما تلتقي قمم الأعراف مختلفة الاتجاهات فإنها تتخذ شكلا مخروطيا تعرف بالغرود.

1 – نفس المرجع، ص 168–174

الأودية

تكون الأودية في السهول سطحية حيث لا تتجاوز الحافات التي تحدها المتر أو المترين خاصة في مستوى مصبها، مثل وادي شفار و وادي مليان و وادي مجردة، و كذلك الشأن في قلب الأحواض الانخسافية في كل من وادي الفكة و سيدي بوزيد و المالح بالقيروان. و تكون قيعان الأودية عريضة و منبسطة في شبه جزيرة الوطن القبلي وادي لبنة و شيبة و تافخسيت خاصة في مجاريها الوسطى. أما في المناطق التلية فتقطع مواد لينة خاصة في المناطق الواقعة بين تستور و الكاف. و تمتاز أودية سهول الوسط و الجنوب بمجاري عريضة و كثيرة التغير لا سيما إبان الفيضانات، و قد نذكر على سبيل المثال وادي زرود حيث يبلغ عرضه في منطقة حاجب العيون عدة مئات من الأمتار، و مرق الليل عند بلوغهما السباسب السفلى، و وادي الفكة عند عبوره سهل سيدي بوزيد. و تتميز أنهار السهول برسومها المتموجة بسبب ضعف الانحدار، مثل سرير وادي مجردة بجهة تستور-مجاز الباب، و وادي مليان بين جبل الوسط و الضاحية الجنوبية لمدينة تونس.

الأرض تتهيأ للإنسان

مزاجية المناخ

تقع البلاد التونسية شمال خط العرض الثلاثين و تحتل بذلك موضعا انتقاليا بين المنطقة المعتدلة بالشمال و المنطقة الصحراوية المدارية بالجنوب. هذا ما يجعلها رهينة ذلك الصراع الدائم بين الكتل الهوائية، القطبية و المدارية. فعندما تتغلب الجبهة الأطلسية في الشتاء على المرتفعات الجوية المدارية، تلجأ طوعا أو إكراها نحو الجنوب، عندها تكثر الرياح الشمالية الغربية الرطبة المصحوبة بالأمطار، و التي تكون غير منتظمة في الربيع للتباين بين الحرارة و الرطوبة. لكن سرعان ما تصعد المرتفعات الجوية المدارية في الصيف في اتجاه المتوسط عندها يبدأ فصل الهواء الصحراوي الحار و الجاف، لتسجل رياح الشهيلي أول ظهور لها. هذا ما يفسر تتابع الفصول، ففي الصيف يصعد الهواء الصحرواي نحو الشمال ليكون بعد ذلك الاصطدام بين هواء حار و آخر بارد قادم من أوربا، هذا الصراع بين المتوسط و الأطلسي يحدث اضطرابات رعدية شديدة مؤذنة نهاية الصيف و بداية الخريف لتغسل كل نوادر الصيف. و تحتل الجبهة الأطلسية البلاد لتدخلها مرحلة فصل الشتاء فتكون الأمطار. لكن أعباء هذا الصراع لا تتحمله البلاد بالتساوي، فالبحر مثلا لا يلطف إلا السواحل لأنه يتجاهل الداخل و يتركه لبرد قارس و حرّ لافح، أما التضاريس فهي تحرم في الشمال الداخل من الرطوبة المكثفة و في المقابل تترك

رياح الشهيلي القادمة من الجنوب العبور إلى الشمال[1].

هذه المعادلة المناخية تعطينا الأقاليم المناخية التالية: إقليم تلّي رطب، تتجاوز فيه كميات الأمطار 400 مم/ سنة، تصل فيها معدلات الحرارة الدنيا بجندوبة إلى 3.8 درجات في شهر جانفي و القصوى إلى 37.4 درجة في شهر جويلية، و 5.2 و 31.5 درجات في بنزرت. إقليم سباسبي شبه جاف، تتراوح كميات الأمطار فيه بين 200 و 400 مم/ سنة، و تصل معدلات الحرارة الدنيا بالقيروان إلى 5 درجات في شهر جانفي و القصوى إلى 37.5 درجة في شهر جويلية، و بين 6.9 و 31.4 درجة في سوسة. إقليم صحراوي جاف، لا تتعدى فيه كميات الأمطار 200 مم/ سنة، تصل فيها معدلات الحرارة الدنيا بتوزر إلى 5 درجات في شهر جانفي و القصوى إلى 40 درجة في شهر جويلية، و 5.9 و 32.7 درجة في قابس[2].

رغم ارتباط تقهقر الغطاء النباتي من الشمال إلى الجنوب بنوعية الصخور و الترب و الطبوغرافيا و المواجهة، يبقى للمناخ دور كبير في ذلك التقهقر التدريجي، الذي يلاحظه بوضوح المتجول في البلاد. و قد نخص بالذكر توزع الأمطار و درجات الحرارة. فالجفاف و التعرية يؤثران على تربة البلاد التونسية بسبب النحت الحيمناخي و الريحي مما يجعلها تفتقر للدبال. لذلك تتوزع الترب على النحو التالي: الترسية و الروندزين، و البنية الكلسية، و البنية الغابية، و الجبسية المالحة و الملحية و المنحوتة[3]. فتتميز الجبال الواقعة شمال وادي مجردة بشدة كثافة نباتها و ارتفاعها، حيث تتخلل أشجار السنديان و الفرنان و الزان، التي يفوق ارتفاعها أحيانا عشرين مترا، نباتات أقل ارتفاعا مثل الخلنج و الرند و الآس و القطلب، ليتكاثف الصنوبر البحري قرب السواحل تاركا المجال للغيل و الأشب في جبال مقعد[4]. ثم يبدأ الغطاء النباتي في التدهور، من غابات الصنوبر و الصنوبر الحلبي خارج منطقة التل، إلى

---

1 - نفس المرجع، ص 19

2 - انظر Kassab (A)/Sethom (H), *Géographie de la Tunisie*, 1980, p p 51-63

3 - راجع Depois (J), *op cit* , p 25

4 - الوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص60

الكشريد و العرعر و الجبوز و الخروب و السرو و البلوط، فالإكليل و الملية و القندول و الجداري، لنصل في الآخر إلى النباتات المتخذة شكل آجم، تكون منعزلة و محدودة الامتداد و كثيرا ما يطلق عليها سكان تلك الجهات اسم «الزملة» و كذلك الشوشة[1]. هذا التدرج في الغطاء النباتي و الذي كان سببه الرئيسي المناخ لَعَلَّهُ هو الذي جعل الإنسان يميز بين أقاليم البلاد، هي بلدان ثلاث الشمال و الوسط و الجنوب.

سرّة البلاد

توجد سرّة البلاد حيث جبال السباسب العليا، جبل سمامة-طيوشة و جبل بريرو و جبل الشعانبي في الغرب، و سهول قمودة و حوض المكناسي من الشرق. و فيها يطغى المناخ الشبه جاف القاري و السباسبي. فلا تنزل الأمطار بكثرة إلا في الفصول البينية الخريف و الربيع، بمعدل يفوق ثلثي التساقطات السنوية لكن مع إمكانية نزول البَرَد في الصيف. و تهيمن الحلفاء[2] غرب السباسب العليا، مقابل تواجد الشيح و السدر الذي نجده كذلك في السباسب السفلى. أما السباسب السفلى فتهيمن عليها سهول القيروان تلك التي تحدها الجبال من الغرب، جبل السرج و وسلات و منارة و جبل الشراحيل، و مجموعة من السباخ من الشرق، سبخة سيدي الهاني و الكلبية و الشريطة. و يكون المناخ جافا مع تذبذبات مطرية شديدة قد تبلغ 150 مم في السنة، و قد تتعدى 1000 مم في العام الواحد، ويتميز هذا الإقليم بارتفاع الحرارة الصيف. وتشقه مجموعة من الأودية مثل وادي نبهانة، و وادي مرق الليل، و وادي الزرود[3]. و يتخذ الساحل شكل رُبىً متوسطة الارتفاع تتحول نحو الشمال و الغرب و الجنوب إلى سهول وطيئة و منبسطة، و تكون الأمطار فيها ضعيفة 370 مم في النفيضة عندها تكثر السبخات الداخلية و الساحلية.

---

1 - نفس المرجع، ص 157

2 - راجع، Depois (J), *op.cit* , p 102

3 - نفس المرجع، ص 77-86 و 91-103 و 109-123 و 139-152

و نكون عندئذ في « بلد الزياتين».

الجنوب

هو بلد الواحات، تهيمن عليه التضاريس المنبسطة غربا، و تشتد الحرارة و تقل الأمطار، حيث لا يتعدى المعدل غالبا 100 مم في السنة، لكن قد يحدث في مناسبات قليلة أن تنزل بغزارة، في فصل الخريف و الربيع، أمطار سيلية تحدث فيضانات كتلك التي تشهدها منطقة قفصة. هذا ما يجعل المناخ ملائما للنخيل إذا توفر لها الماء، فنحن إذن في «بلد النخيل».أما في الشرق فيتميز جبل جفارة بأهمية الأمطار، التي تتراوح بين 200 و 250 مم، في حين تكثر السبخات و القرعات و البحيرات في سهل جفارة1.

الشمال

يقع شمال سلسلة الظهرية، تتكون من أخصب سهول البلاد خاصة تلك الواقعة بين جبال مقعد و خمير من الشمال الغربي[2] و جبال التل الأعلى و سهول الكريب السرس و سليانة من الجنوب الغربي[3]. هي سهول مجردة الوسطى بكل من غار الدماء التي تصل فيها كميات الأمطار إلى 565 مم، و جندوبة 449 مم، و بوسالم 476 مم، و باجة التي تتجاوز فيها كميات الأمطار 600 مم، و سهول مجردة السفلى، بكل من تستور و مجاز الباب التي تصل فيها كميات الأمطار إلى 400 مم، التي تتخذ شكل مخروط عندما تلتحم بالسهول الساحلية. و تشرف سهول مجردة الوسطى من الوسط على سهول إقليم تونس، و من الشمال الشرقي على سهول طبربة و ماطر و بنزرت و تتجاوز فيها كميات الأمطار بين 400-500 مم، مما يوفر المياه و يسمح بتعاطي الزراعات البعلية في أي موضع كان. و تشرف من الجنوب الشرقي

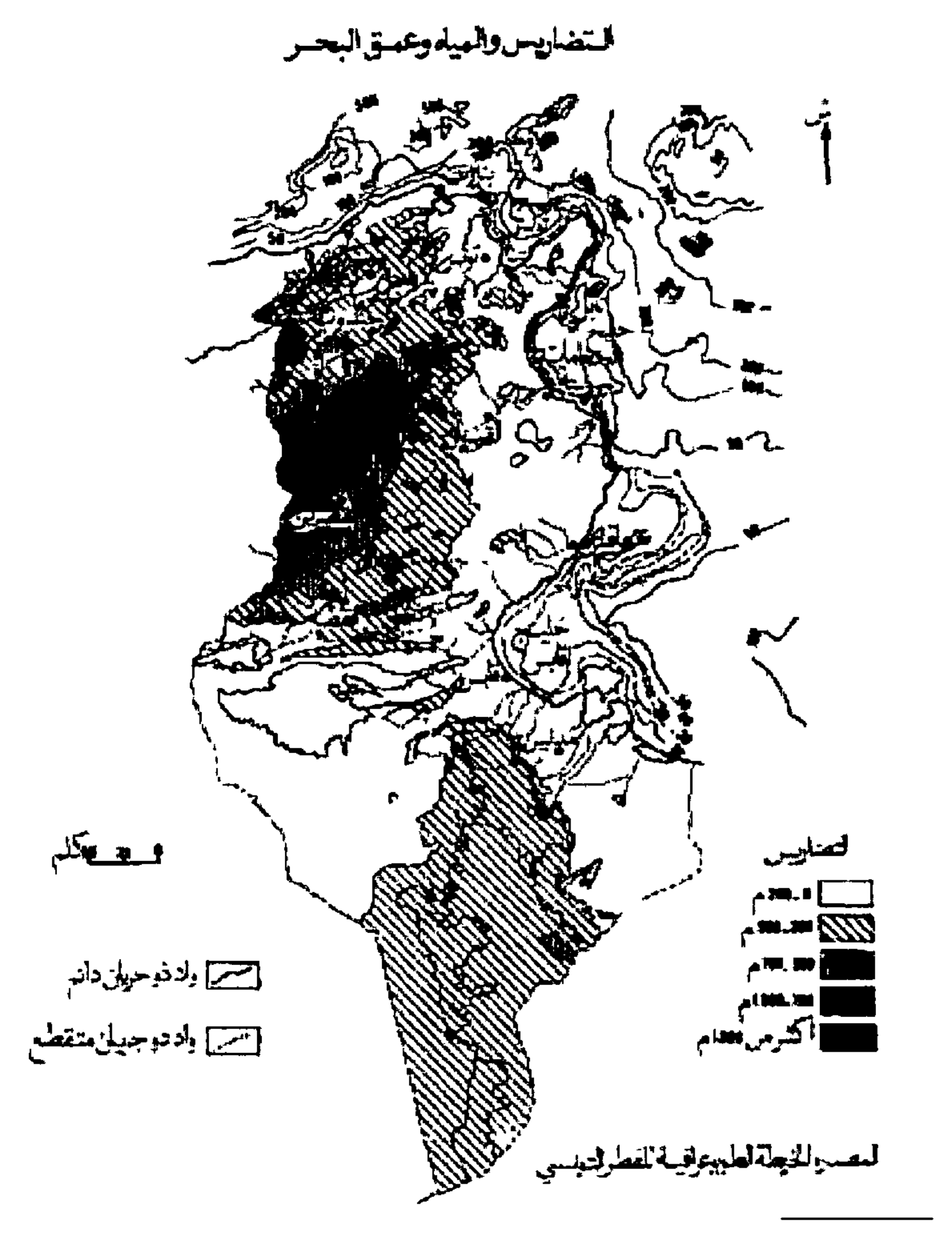
---

1 - نفس المرجع، ص 21-35 و 47-52

2 - تنزل في قممها الثلوج في كل سنة و تتعدى فيها كميات الأمطار 1500 مم في عين دراهم و 1030 مم في طبرقة

3 - والتي تكثر فيها الأودية

على سهول بوعرادة و الفحص و زغوان و قرمبالية التي تتراوح فيها كميات الأمطار بين 400-500 مم[1]. فنحن إذن في «بلد الحبوب» و قلبها النابض «افريـقـة» و نهرها الكبير مجردة.



1 - ستهم (حافظ)، نفس المرجع، ص 169-182 و 187-211 و فيما يتعلق بالوطن القبلي انظر
Sethom (H), *L'agriculture de la presqu'île du Cap bon, Géographie de la Tunisie Le pays et les hommes*, Tunis, 1977, p p 34-230

بداية تاريخ الإنسان
شواهد الأزمنة البائدة

أساطير الأولين

ما إن بدأ تاريخ الإنسان حتى انتهى زمن تكوّن الأرض بعد أن حُسِمَت مسألة تشكلها. فلما ظهر الإنسان تراجع البحر عن ذلك المستوى الذي عرفه منذ مائة ألف سنة، و عجزت قشرة الأرض عن التحرك، ولم ترتفع الجبال من جديد، أو أن تتكدس الرواسب، و لم تنزل تلك الأمطار التي حدثت لآخر مرة منذ خمسة عشرة ألف سنة[1]. غير أن مشاهد زمن الأرض قد يكون بقي منها الشيء القليل، و هذا ما قد نستخلصه من بعض الأساطير المدونة في عهود مختلفة.

لعل أبرز هذه الشواهد ما ذكرته النصوص القديمة من أنه خلال الحروب البونية واجهت عساكر القنصل الروماني ماركوس آتيليوس رَغولوس على ضفاف مجردة ثعبانا عملاقا، وصل طوله 120 قدما (35 مترا). و استعمل عسكر الرّومان ما لديه من أسلحة، و قد مات الكثير منهم ، قبل أن يُقْتَلَ الثعبان الأسطوري. و حُمِلَ ثوبه إلى روما، و بقي معروضا للناس طيلة قرن. لو قبلنا ببعض ما ورد في هذه الرواية، لافترضنا أن يكون المكان المناسب لها، هي البحيرة القديمة بجهة الدَخْلة و التي عرفت في الأزمنة الجيولوجية

1 - ابوسلاقي (عامر)، نفس المرجع، ص198

السابقة انحسار المياه و تكدس الرواسب. و من غير المستبعد كذلك أن يكون هذا الثعبان من فصيلة الزواحف المتبقية بهذه البحيرة[1].

أما الأسطورة الثانية فقد وردت في المصادر العربية الكلاسيكية، في باب الحديث عن ظروف تمصير القيروان، و التي جاء فيها أن القائد عقبة بن نافع حين أراد بناء القيروان، دعا الوحوش والسّباع التي استجابت إليه صاغرة لإخلاء الموضع. و من بين أشهر هذه الروايات ما ذكره البلاذري في كتابه فتوح البلدان:» فافتتح إفريقية واختط قيروانها. وكان موضع القيروان غيضة ذات طرفاء وشجر لا يرام من السباع والحيات والعقارب القتالة. وكان ابن نافع رجلاً صالحاً مستجاب الدعوة. فدعا ربه فأذهب ذلك كله، حتى إن كانت السباع لتحمل أولادها هاربة بها.» هذا ما قد يذكر أن هذه الجهة التي لم يعد غطاؤها النباتي غير الشيح و السدر كانت قبل عهود خلت غابات كثيفة تأويها الوحوش و السباع.

خبراء البلاد الأوائل

لقد ساعدت المياه و الرياح الإنسان على اكتشاف طبيعة أرضه و بداية استغلالها، فبفضل التعرية و ما أوجدته من مشاهد طبيعية اكتشف الإنسان أهمية الأماكن المرتفعة حتى إنه اتخذها كمناطق استدلال، و اختار لها إسما له عديد الدلالات من ذلك تسمية «الكاف»، و هي التي لا يمكن أن يسكنها غير الطيور الجارحة، فكان كاف العقاب و الرخمة في جبل طرزة و كاف النسور بمقعد[2]. كما استغل الإنسان قيمة الأودية الجبلية فاستعملها كمسالك طبيعية للترحال من بلد إلى آخر. و استغل أقدام الجبال للاحتماء بها فكانت

1 – نظر
Pellegrin (A), La Medjerda aperçu historique, in *Bulletin économique et social de la Tunisie*, n° 102, juillet 1955, p p 34-47, p 34

2 – الوسلاتي (عامر)، نفس المرجع، ص56

له مواطن لجوء[1]. و استغل الحقول الرملية المتحجرة الموروثة عن ارتفاع مستوى البحر، التي تبدو في شكل روابي كثيرة التجاويف، كتلك الموجودة بين مدينة الهوارية و سيدي داود، لاستخدام حجارتها في البناء. و وفرت الحفر و المغارات ملجأ أو مقابر كما هو الحال بسيدي داود[2].

عهود الحجر

اقتصر الإنسان في بداية هذه العهود على صيد الحيوانات البحرية الموجودة على ضفاف شط الجريد و التي كانت بحيرة شاسعة بسبب نزول الأمطار الغزيرة بالجنوب، ترتادها عديد الحيوانات، و ما وجود تلك الحجارة شبه المكورة إلا دليل قوي على ذلك، وهي حجارة قد يكون استنبط الإنسان صنعها من خلال تكسيرها بحجارة أخرى أصلب[3]. ليطور الإنسان فيما بعد أدوات صيده، فصنع فؤوسا مسطحة من الحجارة، عثر على البعض منها في المتلوي و الرديف و قفصة و العلا، وقد عثر على بقايا حيوانات الكركدن و فرس الماء و الفيل و الجاموس مختلطة بأدوات الصيد في جهة الكاف. كما نجح الإنسان في البلاد التونسية في صنع السكاكين و رؤوس الرماح من حجر الصوان و التي عثر عليها في مناطق قفصة و القيروان و بنزرت[4].

عرفت البلاد بعد ذلك ثلاث حضارات، هي الحضارة العاترية (35000-25000) حيث عثر على شواهد لها في منطقتي طبرقة و بنزرت. و الحضارة الوهرانية (18000 و 8000) التي غمرت المياه جزءها الشرقي بسبب ارتفاع مستوى البحر، و لم يعثر على شواهد منها إلا في الواجهة الشمالية للبحر في كل من نفزة و طبرقة و بنزرت. و الحضارة القَبْصية (7000-5000) و مركزها

---

1 - نفس المرجع، ص 58

2 - نفس المرجع، ص 103

3 - أطر

,t 1, p 132 Vaufrey (R), *Préhıstoıre de l'Afrıque*, Parıs ,191955

4 - راجع , *op cıt* , Depoıs (J), p 32-33

الجنوب الغربي للبلاد حين اتخذ السكان فيها الأكواخ من القش و خبروا أهمية المواضع و المواقع، و عيون الماء و المناطق المرتفعة و الممرات. و مع حلول الألفية الرابعة دبروا الفلاحة و الملاحة فزرعوا و حصدوا و ربّوا الماشية[1].

و صنع سكان البلاد القوارب للتنقل فاتصلوا بالحضارات الأخرى برّا و بحرا، و لئن تعاملوا مع الوافدين من الجزر الإغريقية و بلاد كنعان فإنهم انقطعوا عن شعوب إفريقيا بعد أن قالت الأرض كلمتها الأخيرة بأن اشتد الجفاف فظهرت الصحراء[2] و انقطعت السبل إلى ما وراء الكثبان الرملية.

رحلتا الصيف و الشتاء

لقد ذكرنا أن مزاج المناخ المتقلب حتى التشدد في بعض الأحيان قد يكون دفع إلى التمييز بين ثلاثة أقاليم كادت أن تتحول إلى بلدان متنافسة لولا بروز حركة تنقل، هي الأقدم في تاريخ البلاد، و هي التي وحدت البلاد و مكنتها من بداية تشكيل هويتها، و نقصد هنا ظاهرة الانتجاع، أو رحلة الصيف إلى «افرِيـقَـه»، هما رحلتا الصيف و الشتاء اللتان وحدتا الجنوب و الوسط و الشمال، هما الرحلتان اللتان جعلتا للزمن معنى لدى سكان البلاد إذ يكون ترحال القبائل إلى الشمال للانتجاع و العمل في موسم الحصاد، فكان المنتجعون يطلقون على منطقة التل العالي اسم «افرِيـقَـه»[3]، و يكون مسلك العمال

1 - نفس المرجع، ص 34

2 - نفس المرجع، ص 34

3 - قد يكون من المفيد أن أنقل ما ذكره دَبوَا عن الانتجاع في منطقة التل العالي

« Les pasteurs qui, en mauvaise année, accompagnent leurs troupeaux vers le Nord ou viennent y chercher du travail quittent les paysages monotones et desséchés des Steppes pour pénétrer, par les dépressions transversales de la Dorsale, dans des régions de relief plus varié et d'aspect plus divers avec leur végétation et leurs cultures méditerranéennes c'est le Tell, le pays des terres fertiles qui portent le même nom Le Tell est, pour les pasteurs du Sahara et des Steppes, le pays bienheureux où a toujours quelque chose à récolter, où les pâturages ne manquent jamais totalement et où l'on a peut-être des chances de trouver du travail soit dans les campagnes, soit à Tunis » Depois (J), op cit, p 139

الموسميين أو «الهطايا»[1] و المنتجعون «ناجع قمرة»[2]، كما يلهج بها التونسيون إلى اليوم، مكثر-جامة[3]-عين فرنة[4]-سيدي بوعرقوب[5]-عين تنقة[6]، و من عين تنقة يدخل المنتجعون التل العالي عبر تبرسق، في حين يدخل العمال الموسميون فرِيـقَـه، إما عبر المرور بالـقـصَر فالدورات، أو بالمرور بالسلُوقية فمَمّرسة، بوّابة «افرِيـقَـه»، ومنها يتخذون المسلك القديم: تُوكَابر-شواش-الدُورَات، و من الدُورَات يكون دخول بلاد باجة عن طريق قصر مَزْوَار، و دخول ماطر عن طريق بجار-ڤنّبة. و يعتبر مسلك ممرسة-توكابر-شواش-الدورات من أقدم المسالك حيث تكثر العيون و هي نقاط ضرورية بالنسبة للمنتجعين و دوابهم، هذه الرحلة تسمى الصِّيفِية، و تكون في أواخر الربيع عند جمع الفول في أفريل-ماي قبل انطلاق موسم الحصاد، فتكون البداية بسهول مجردة السفلى بنواحي ممرسة، ثم سهول مجردة الوسطى حول باجة[7] ثم سهول شمال مجردة حول ماطر[8].

قد يكون ترحالهم في البداية دون عناء إلى أن ظهرت السلطة المركزية و ظهرت الحدود، فأصبح الانتجاع ملعونا و الترحال نقمة، عملت كل السلط المتعاقبة على إيقافه بكل السبل.

---

1 – يقول أحمد س حليل الوَهْطُ و الوهاط و الوهط هو المكانُ المَطْمَئِنّ المُسْتَوِي، و وَهَطَ يَهِطُ، أي صعف، و الهِياط كدلك الدُّنُوُّ أما اس مطور فعرف الوَهْطُ على أنه شِبْهُ الوَهْيِ والضَّعْف، فوهَط و يَهِطُ و وَهْطاً بمعنى ضَعُف، و الأَوْهاطُ بمعنى الخُصومة والصِّياح، والوَهْطُ بمعنى الجماعة كدلك فهل كلمة "الهطايا" كان المقصود بها نسبة العمال الموسميين الوافدين إلى البادية و الصحاري، أو هو وصف لأجسامهم الضعيفة و النحيلة أو وصفا لرحلتهم الصيفية في شكل مجموعات

2 – أي الانتجاع بالليل عند صفاء القمر، و يسمون كدلك و إلى يومنا هدا "القايل"

3 - (*Zama*)

4 - (*Furnos Maius*)

5 - (*Thimisua*)

6 - (*Thignica*)

7 – تهيمن على بلاد باجة التلال متوسطة الارتفاع و السهول المحصصة و الترب الطمية الناعمة من نوع الطين و العرين أي ترب صالحة لزراعة الحبوب و خاصة القمح، و الخضروات الفول و الحمص، هدا ما أشار إليه البكري الذي ذكر إن أرض باجة " سوداء متشققة يجود فيها جميع الزروع و بها حمص و فول البكري (أبو عبيد الله)، المسالك و الممالك، بغداد، د ت، ص 56

8 – تمثل سهول ماطر أحواضا حسفية تحيط بها المحدبات المشرفة، و تكون الترب من صنف التل العبي الصالح لزراعة الحبوب أما مناخ وطن ماطر فيتصف بالاعتدال و ندرة الشهيلي في الصيف هدا ما قد يفسر لمادا يتأخر موسم الحصاد مقارنة بمحار الباب و باجة

رزنامة زراعية-بدوية

خروج الليالي البِيض	13 جانفي
دخول الليالي السُّود	14 جانفي
انتهاء الليالي السُّود	2 فيفري
العْزَارَة	3 فيفري
انتهاء العْزَارَة	13 فيفري
قِـرَّة العَنِز	14 فيفري
نزول جَمَّرة الهواء	21 فيفري
نزول جَمَّرة الماء	27 فيفري
نزول جَمَّرة التّرَاب	6 مارس
الحْسُوم	10 مارس
انتهاء الحْسُوم	17 مارس
أَوِسُّو	25 جويلية
انتهاء أَوِسُّو	2 سبتمبر
دخول الليالي البِيض	25 ديسمبر

الفصل الثاني

دردشة فوق الأرض

زمان الاستيطان

الهجرة السامية الأولى

قد ننبهر برواية عَلِّيسَة و تشدنا إليها روعة حبكتها الأسطورية وجمالية مسحتها الأدبية لكن لا ينبغي أن نقبل بأسطورة التأسيس هذه خاصة إذا ما تحول قيام أكبر إمبراطورية في الحوض الغربي للمتوسط إلى حدث عرضي لعبت فيه الصدفة دورا كبيرا[1]. لقد كان الكنعانيون، كما كانوا يسمون أنفسهم إلى عهد القديس «أَوْغُسْطِينُوس»[2] أو الفينيقيون كما يسميهم اليونانيون في وضعية صعبة منذ نهاية الألف الثانية قبل المسيح بعد أن أكدت الأخبار القادمة من الشرق وجود رغبة آشورية في عبور نهر الفرات و ابتلاع مدن سواحل لبنان و فلسطين. و تزامن ذلك مع محاولات الإغريق، غرماء الكنعانيين التقليديون، السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط ذلك» المجال الحيوي» لبلاد كنعان، فكان لا بد من البحث عن حلول مصيرية كتحويل الحوض الغربي للمتوسط إلى قاعدة خلفية تكون بعيدة عن خطر الآشوريين و « الملجأ» الآمن لهم في حال احتلال الغزاة «الوطن-الأم». فكان الاختيار على قَرْطَاج بعد أن خَبِرَ بحارة صور و صيدا و تجّارهُم ، و قد كانوا يجوبون المتوسط من لبنان إلى أسبانيا، أهمية موضع و موقع هذه «القرية الجديدة» أو

1 - عد إلى , Decret (F), *Carthage ou l'empire de la mer*, Paris, 1977 , p 47-50. و انظر كذلك Lancel (S), *Carthage*, Paris, 1992 ,p 35

2 - راجع Decret (F), *op cit* ,p 11

المدينة الحديثة التي قد يعود تأسيسها إلى نهاية القرن التاسع قبل المسيح[1]. لكن قَرْطَاج سرعان ما تحولت إلى عاصمة لأقوى إمبراطورية في الحوض الغربي للمتوسط إذ لم يخضع الكنعانيون السواحل فحسب بل توسعوا منذ القرن الرابع قبل المسيح في دواخل «إفريقيا» لحاجتهم الشديدة لأراضيها الخصبة و الصالحة للفلاحة مثل سهول مجردة و وادي مليان و «السهول الكبرى» و سهول الوطن القبلي و الساحل، لذلك سيطرت قَرْطَاج على السواحل و على الداخل، فكانت لها دائرة ترابية تسمى بالإغريقية «كُرَى»، هذا التوجه المبكر نحو سهول البلاد التونسية الخصبة قد يكون من بين الأسباب التي أخرت سقوط قَرْطَاج خاصة إذا ما علمنا أن حبوب مجردة و زياتين الساحل عوضت قَرْطَاج ما خسرته بعد حروبها ضد روما، سهول صقلية اثر معاهدة 241 قبل المسيح و سردينيا خلال «حرب المرتزقة» و الأندلس اثر معاهدة 201 قبل المسيح[2].

قرطاج بين النوميديين و الرومان

لقد كانت الرغبة في السيطرة على أراضي إفريقيا السبب الرئيسي لذلك التحالف بين مَسِنِسَان ، و روما في حربهما ضد قَرْطَاج لأن الملك النُومِيدِي الجديد كان يسعى إلى توسيع مملكته ، فكان له ذلك بعد هزيمة قَرْطَاج في الحرب الثانية بين روما و قرطاج (البونية) و إثر معاهدة 201 قبل المسيح[3]، لكن مَسِنِسَان كانت له أهداف أوسع تتجاوز مجرد استعادة أراضي أجداده، لذلك قد يكون من المفيد أن نعود قليلا إلى السنوات التي سبقت اندلاع الحرب البُونِيَة الثالثة و الأخيرة. فقد جاء في بعض المصادر أن مَسِنِسَان كان يخطط للاستيلاء على أراضي قَرْطَاج الخصبة و أنّ روما كانت على علم بنوايا

1 - نفس المرجع، ص 53

2 - أنظر

p 106-107 Decret (F)/Fantar (M), *L'Afrique du Nord dans l'antiquité*, Paris, 1981

3 - نفس المرجع، ص 106 و التي بعدها

حليفها بل كانت تشجعه بطريقة غير مباشرة لأنها لم تذكّر هذا الملك الطَّموح بضرورة احترام بنود معاهدة 201 قبل المسيح، لأن سياسة اللامبالاة كانت تُخْفِي إستراتيجية واضحة المعالم تقضي بأن يقع تجويع سكان الإمبراطورية القرطاجية بِترك مَسِنِسَان يستولي على حبوب البلاد[1] لكن دون أن يؤول الأمر إلى سقوط «الفلاحة القَرْطَاجية» في يده. تفطنت قَرْطَاج لأبعاد هذا المخطط و أيقنت أن روما لم تلعب دور «الوسيط النزيه» في صراعها ضد مَسِنِسَان لأن كل المؤشرات تؤكد أن الرومان كانوا يتحينون الفرصة الملائمة للانقضاض عليها، و تجلى ذلك بوضوح عندما لخص قاطون[2] الذي زار قَرْطَاج في سنة 153 قبل المسيح حقده الدفين و كره الرومان الشديد لقَرْطَاج في قولته الشهيرة:» فلتُسحق قَرْطَاج «[3]، و لم يلعب مَسِنِسَان دور «حصان طُرْوَى (اتْرُوَى)[4]» فحسب بل ابتلع سهول مجردة السفلى و وادي مليان بعد أن استولى على بلاد مكثر و «السهول الكبرى» و هو يعلم كما تعلم روما أن قَرْطَج لن تقبل بذلك. و اندلعت الحرب بين الخصمين، واتخذت منها روما ذريعة لإنزال جيوشها في الأراضي القَرْطَاجية و كان ذلك سنة 149 قبل المسيح و شرعت في تطبيق خطة تدمير قَرْطَاج و محو أثرها من المجال المتوسطي، فكان اقتحام أسوار المدينة سنة 146 قبل المسيح فسقط الميناء في بداية التدمير ثم تلته الساحة العمومية فالأحياء السكانية المجاورة و في الأخير حصن بِيرْصَا بعد صمود دام ستة أيام، و بسقوط الحصن هَوت قَرْطَاج و أمر الرومان بحرقها و ذر الملح على أرضها و حُجِّر السكن فيها أو حتى إعادة إعمارها، و أُعلنت قَرْطَاج أرضا مُحَرَّمَة[5].

---

1 - أنظر

p 47-50 Heurgon (J),” l’agronomie carthaginois Magon et ses traducteurs en latin et en Grec”, *CRAI*, 1976, p p 441-456

2 - (Cato)

3 - *Delenda est Carthago*

4 - *Troie*

5 - المحجوبي (عمّار)، ولاية إفريقيا إلى نهاية العهد السويري (146 ق م-235 م)، تونس، 2001، ص57

تأسست على أنقاض قَرْطَاج مقاطعة « إفريقيا» أو لنكون دقيقين على أنقاض ما تركه مَسِنِسَان ، بعد أن اقتطع الملك النُومِيدِي و طيلة 40 سنة تقريبا، بين 193و152 قبل المسيح، سواحلها الجنوبية الشرقية من لبدة[1] إلى هِنْشِير طِينة[2] جنوب صفَاقُس، و بلاد مكثر و التل العالي و بَاجَة و جَنْدُوبة و بُوسَالم، و قدرت مساحة المقاطعة الرومانية بين 20000 و 25000 كلم[2] و هي تقريبا مساحة الشمال الشرقي للبلاد التونسية حاليا، لتمتد من مصب الوادي الكبير، على بعد 4 كلم عن طبرقة[3] في اتجاه الجنوب الشرقي صوب جبل فكِيرِين إلى هِنْشِير طينة، حوالي 12 كلم جنوب غربي صَفَاقُس، و حَلَّت أُوتِيقا[4] محل قَرْطَاج فاحتضنت مقر الحاكم الروماني الجديد و جالية إيطالية قدرت بحوالي 300، جلهم من التجار، كانت مهمّتهم الرئيسية تدبير الشؤون الاقتصادية للتركة الكنعانية خاصة و أنّ ما تبقّى من « الجثة»، على حد تعبير مُمْسَان، أصبحت «مِلْكًا لِعُمُوم الشعب الروماني». أمر «اسْقِيْبِيُون أَيْميلْيَانُوس» بحفر خندق يحيط بالمقاطعة الرومانية عُرِف «بالخندق الملكي»[5] الذي كان له دور خطير قد يكون استعصى على مَسِنِسَان فك رموزه في حين أنّ روما كانت تعي جيدا خطورة نجاحات هذا الملك في بعث فلاحة متطورة في مملكته بفضل «تزاوج» العلوم القَرْطَاجية مع الخبرات اللُّوبية القديمة، كما خبرت عجز السكّان الكنعانيين على ردع حليفها التقليدي و توقيف زحفه نحو ما تبقى من «دائرة قَرْطَاج الترابية»، لذلك كان حفر هذا «الخندق الملكي» بمثابة الرسالة إلى مَسِنِسَان و ورثة حكمه من بعد تحذيرهم من عواقب عدم احترام حدود «إفريقيا»، ممتلكات روما الجديدة و مطمورها في المستقبل. على أن مَسِنِسَان لم يكن هاجس روما الوحيد، ذلك أنّ عديد العراقيل كانت تعيق

1 - (*Lepcıs Magna*)
2 - (*Thaenae*)
3 - (*Thabraca*)
4 - (*Utıca*)
5 - (*Regıa Fossa*)

مشروع «المطمور» لعل أهمها الأرستقراطية الإيطالية، فالظاهر أنّ مشكل استغلال هذا المطمور في عهد « الجمهورية»كان يكمن في عدم قدرة روما على رفع قرار التحجير و التحريم عن مَسِنِسَان، لكن السبب الباطن يكمن في قرار رفض التجار و الفلاحين الكبار في إيطاليا و أسبانيا لمشروع روما خشية مزاحمة الفلاحة القَرْطَاجية. كل هذه الأسباب و العوامل قد تكون دفعت روما إلى التريث قبل تنفيذ خطة الاستعمار الزراعي إلى أن تجد «الجمهورية» حلولا لكل هذه المشاكل.

الرومان يحتلون إفريقيا

لقد حافظت ارستقراطيات المدن السبعة التي خانت قرطاج على أراضيها و في مقدمتها ارستقراطيو أُوتِيقا في الشمال و حضرموت في الساحل، أما ما تبقى من الأراضي فقد أصبحت «أرضا فلاحية عمومية» للشعب الروماني[1] تتكون من الأراضي التي حافظ أصحابها على استغلالهم لها مقابل دفع ضريبة عقارية سنوية على الأرض تسمى باللاتينية «ستِيبَنْدِيُوم»[2] ، و أراض عادت إلى النُوميديين، و أخرى كانت ملك حكام قَرْطَاج و أثريائها. استحوذ الرومان في بداية الأمر على هذا الصنف الأخير من الأراضي لِتُفَرِّط فيه فيما بعد إما بالبيع إلى النبلاء و الأثرياء، أو عن طريق التسويغ للسكان المحليين، كما قامت روما، و قد يكون ذلك بعيد سقوط قَرْطَاج ، بتقسيم أراضي «إفريقيا» إلى مربعات تبلغ مساحة المربع الواحد خمسين هكتار تقريبا و من غير المستبعد أن تكون عملية قيس و مسح الأراضي المحتلة لغايات جبائية أكثر منها لأسباب استيطانية لأن بداية التفكير في بعث مستوطنات بالمقاطعة الرومانية كان مع محاولات الأخوين «غراقوس»[3] بين 134 و 121 قبل المسيح، محاولة «تبريُوس» الأولى التي باءت بالفشل، و بعد مرور عقد من

1 - (*Ager publicus*)
2 - (*Stipendium*)
3 - (*Caius* و *Tiberius Gracchus*)

الزمن تقريبا، و تحديدا في سنة 123 قبل المسيح و بمقتضى «قانون رُوبريا»[1] ، تم بعث أول مستوطنة في قَرْطَاج بلغ عدد سكانها ستة ألاف مستوطن حيث تحصل كل مستوطن على قطعة أرض ما بين أربعين و خمسين هكتارا. لكنّ «المحافظين» في روما وهم الذين يعرف بالأُوبْتمَتَاس[2] أجهضوا أول محاولة استيطانية رومانية حيث تم تفكيك المستوطنة سنة 121 قبل المسيح، و برّر المعارضون ذلك أنّ الآلهة لم تستجب لرفع التحريم بعد، و من المرجح أن يكون المستوطنون حافظوا على ملكيتهم للأرض، لكن ما هو ثابت أنّ البعض الأخر فضّل بيعها للأثرياء مما أدى إلى ميلاد «الملكيات الرومانية الكبرى»، و بروز كبار الملاكين، كما تمت مكافأة المحاربين الذين انتصروا مع قائدهم «قَايُوس مَارْيُوس» على يُوغرطان سنة 105 قبل المسيح بأن منحتهم روما أراضي في منطقة بُوسَالم و جَنْدُوبَة و تيبار[3] قُدِّرت مساحة القطعة الواحدة بخمس و عشرين هكتارا.

إفريقيا فخ روما

لكن كيف نفسر هذه الحصيلة الهزيلة «للاستعمار الزراعي الروماني» طيلة قرن كامل؟ هل سببه رغبة مجلس الشيوخ الروماني و خاصة «الأُوبتمَتَاس» في الحصول على الموارد الجبائية على حساب مشروع الاستيطان؟ أم العراقيل التي أوجدتها الأرستقراطية التجارية و الزراعية الإيطالية»لتهميش» الفلاحة القَرْطَاجية؟ يبدو أن سكان «القُرى» حافظوا على ولائهم لقَرْطَاج، ألم يقل القديس «أَوْغُسْطِينُوس أن الفلاحين في قَرْطَاج حينما يُسألون عن أصلهم كانوا يقولون إنهم كنعانيون كما يبدو أن المستوطنين الجدد وجدوا صعوبات كبيرة في الاستقرار في وسط معاد لهم. غير أنّ سياسة الاستيطان و الاستعمار الزراعي سوف تعرف مرحلة جديدة بعد حصول انقلاب على مستوى هرم

1 - (*Lex Rubria*)
2 - (*Optimtes*)
3 - (*Thibaris*)

السلطة بِرُومَا بعد أن تحول نظام الحكم مع يوليوس قيصر و «أُكْتَاوْيُوس» من نظام «جمهوري» إلى «إمبراطوري» و كان ذلك في سنة 27 قبل المسيح، و يمكن القول إنّ استكمال تشييد مطمور روما كان زمن حكم يُوبَا الأول الذي أساء اختيار حليفه في الحرب الأهلية التي دارت بين أنصار «بُومْبيوس» و «يوليوس قيصر» التي انتهت بانتصار قيصر على «بُومْبيوس» و أتباعه بعد معركة رأس ديماس[1] الحاسمة سنة 46 قبل المسيح، فاستولى حاكم روما الجديد على مملكة يُوبا الأول[2] الذي فضل الانتحار، وأُحدثت مقاطعة أُطلق عليها اسم «إفريقيا الجديدة» كانت سيكا، فيما يبدو عاصمتها. لقد كان هدف يوليوس قيصر من وراء هذا التوسع العسكري إعادة إحياء مشروع «الاستعمار الزراعي» خاصة بعد أن تم الاستيلاء على أراضي ورثة مَسِنِسَان في شرق نُوميديا، و رغم اغتياله المفاجئ في 15 مارس 44 قبل المسيح، فإنّ المشروع تواصل مع خلفه أُكْتَاوْيُوس.

لقد حول «أُكْتَاوْيُوس» نظام الحكم من النظام الجمهوري إلى الإمبراطوري بأن أسند له السيناتُوس لقب أَوغُسْطُوس[3] و لُقِّب بالقيصر و كذلك الإمبراطور و بعث نظام «الأولية في الحكم»[4]. كانت أولى النتائج أنّ تم توحيد مقاطعة «إفريقيا القديمة»[5] و «إفريقيا الجديدة»[6] تحت اسم مقاطعة «إفريقيا البرُوقُنصلية»[7]. حكم هذه المقاطعة والٍ برتبة «برُوقُنصل»[8]، يُعَيِّنُه السناتُوس و مقره قَرْطَاج عوضا عن أُوتيقَا، حليفة روما في الحرب القرطاجية الرومانية الثالثة.

1 - (*Thapsus*)
2 - (*Juba 1er*)
3 - (*Augustus*)
4 - (*Principatus*)
5 - (*Africa Vetus*)
6 - (*Africa Nova*)
7 - (*Africa proconsularis*)
8 - (*Proconsul*)

لقد أعاد «أَوْغُسْطِينُوس» بذلك جمع أشلاء تلك «الجثة الهامدة» عندما استولى على كل سهول بلاد الحبوب، فعمل حتى قبل حصوله على لقب الإمبراطور على إحياء مستوطنة قَرْطَاج التي أصبحت مهيأة لقبول ثلاثة آلاف مستوطن بالتوازي مع تطبيق مشروع يوليوس قيصر في بعث مستوطنات ساحلية في قربه و قليبيا و نابل و بنزرت و مستوطنات في الداخل في الكاف و وذْنَه[1] و طبُرْبَه و رَادس، لكن روما و إن تخلصت من الملوك النُوميديين فإن استكمال تشييد مطمورها كانت تهدده قبائل الرُّحَل القادمة من الجنوب.

مقاومة البدو الرّحل

طرحت مسألة التحكم في حركة البدو الُّرحَل عديد المشاكل أمام السُلَط المركزية المتعاقبة حتى قبل الاحتلال الروماني، فالبدو و شبه الرحل يرون أنّ رحلة الصيف من السبَاسِب إلى «افرِيـقَـة» أمر حيوي و أنّ منعهم من ذلك يعني الرغبة في القضاء عليهم، فقد بادر مَسِنِسان من قبل إلى وضع قلاع لمنع مرورهم عبر منافذ الظهرية نحو التل العالي. أما الرومان فقد شددوا المراقبة عليهم بل و اعتبروهم من « المشاغبين» خاصة قبائل الجَيتُول، لكنهم سعوا في نفس الوقت إلى توطينهم و تحويلهم إلى مجموعات زراعية مستقرة، إلى أن قَرَّرَ «أَوْغُسْطُوس» الشروع في تنفيذ خطة التحكم في الجنوب فكان تأسيس ثكنة حِيدرَة في منطقة السبَاسب العُلْيَا قرب الحدود الجزائرية لتكون مقرا « للجيش الثالث الأَوْغُسْطي» من خلالها يسهل على الحكام الجدد السيطرة على الصحراء التونسية و إخضاعها، و كان لهم ذلك في عهد «تَرَايَانُوس»[2] 117-89 قبل المسيح عندما تم ربط ثلاث مدن رئيسية هي حِيدرَة و قَفْصَة و قَابُس بطريق إستراتيجية، و بَعْث نظام مراقبة متكون من قلاع و خنادق و أبراج مراقبة أطلق عليه اسم لِمَاس[3] ، يمر بين شطوط الجريد و أقصى شمال

---

1 - (Uthina)

2 - (Trajanus)

3 - (Limes)

العرق الشرقي الكبير.

لكن الأرياف التونسية سوف تعرف تحولا كبيرا مع قبائل الوَنْدَال القادمة من الدنمرك مرورا ببلاد الغال والمغرب والجزائر بعد أن استقرت في أول الأمر في «وَنْدَالُوسيا»(الجنوب الأسباني)[1] ، لكن زعيمهم «جينسيريك» قَرَّر في سنة 429 بعد المسيح عبور أعمدة هرقل بنحو ثمانين ألف وندالي لأنه كان يرغب في دخول «إفريقيا الرومانية» و الاستقرار بها، فاستولى أولا على بلاد موريطانيا السطيفية[2] و بلاد نوميديا[3] سنة 435 بعد المسيح لتسقط قَرْطَاج سنة 439 و المقاطعات الثلاث «البرُوقُنصُلية»[4] و «البيزاقينية»[5] و «الطرابُلسية»[6]. لقد سقط مطمور روما بعد مرور خمسة قرون على تشييده، و استولى «جينسيريك» و حاشيته على أخصب الأراضي التي كانت ملكا للعرش الإمبراطوري و لكبار الملاكين، لكن في المقابل تحرر أهالي أرياف السبَاسب و الجنوب حين مكنهم من حق استغلال أراضيهم مقابل دفع ضرائب غير جائرة. و ابتهج الرُّحَل لاندحار الرّومان وراء البحر أولئك الذين حرموهم من الانتجاع و جعلوا الصحراء القاسية محتشدا لهم. و بعد وفاة جينسيريك تفتت الحكم المركزي من جديد فظهرت ممالك بكل من قَفْصَة و جبال السبَاسُب و فُتِحت بلاد الزياتين أمام قبائل الفراشِيش و لَوَاتة لِيَعودوا من جديد إلى موطن انتجاعهم القديم، و أمام عجز ورثة «جينسيريك» على التصدي لتقدم البدو نحو الوسط التونسي بعد أن سقط «ليماس» روما و طريق حِيدرة-قَفْصَة-قَابُس و تحرر الزُرَّاع من وطأة الجباية و الاستغلال، قرر كبار التجار و الفلاحين الأفارقة اللجوء إلى «يُوسْتِينْيانُوس»

1 - (*Vandalusia*)

2 - (*Mauretania Sitifensis*)

3 - (*Numidia*)

4 - (*Proconsularis*)

5 - (*Byzacena*)

6 - (*Tripolitana*)

لاسترجاع إفريقية تحت شعار إحياء «مجد روما»، فلبي الإمبراطور البيزنطي النداء و أرسل قائد جيشه «بليزار»[1] سنة 533 الذي نزل بالساحل التونسي و دخل إلى قَرْطَاج فأصبحت إفريقية مطمور القسطنطينية، لكن فشل البيزنطيون، أو الرُّوم كما يسميهم العرب، في الحفاظ على وحدة البلاد الترابية فعمت الفوضى السياسية من جديد و تزامن ذلك مع احتداد الصراعات المذهبية داخل الكنيسة المسيحية فكانت النتيجة أن بايع الأفارقة البطريق «قِرِيقُرْيُوس»[2] ، أو جرْجير كما تسميه العرب ، إمبراطورا على إفريقية إلى أن أطاح به الفاتحون العرب[3] في سنة 647 قرب سبِيطلة[4].

1 - (*Belisaire*)
2 - (*Gregorius*)
3 - ابن عبد الحكم (أبو القاسم)، فتوح مصر و أخبارها، ليدن-بريل، 1920، ص 183
4 - (*Sufetula*)

زمان الفتح

السكان يفتحون الأرض للعرب

قبل أن نخوض في مسألة فتح العرب لأفريقية نود أن نقدم الملاحظات التالية: الملاحظة الأولى تتعلق باستخدام مصطلح « فتح»، فالعديد من المؤرخين يرفضون استعمال هذه العبارة و يبررون ذلك بضرورة التحلي «بالموضوعية التاريخية»، و يرون أن الفتوحات هي شكل من أشكال الاستعمار و الاحتلال لا غير، و هو موقف قد يكون وجيها، لكن و من باب «الموضوعية» كذلك قد يكون من المفيد القبول بالفكرة القائلة أن توسع العرب في إطار ما أطلق عليه لفظ الفتوح لا يشبه التوسع القَرْطَاجي أو الروماني أو البيزنطي، زد على ذلك فإن الفتح هي كلمة مصدرية قبل كل شيء تستعمل كما يستعمل البعض مصطلح «السلم الروماني»[1] أو مصطلح «الكُولوُنيالي»، لذلك و بما أن استعمال مصطلح « السلم الروماني» ممكن فَلِمَ لا نقبل بمصطلح الفتوحات، كما لا ينبغي أن نغفل على الحقيقية التالية و هي أنّ العرب أنفسهم كانوا يُقِرُّون أن العديد من الفاتحين انخرطوا في الفتح لأطماع مادية. أما الملاحظة الثانية فتتعلق بمسألة «صعوبة» فتح المغرب حيث دأب العديد من الباحثين على تقديم بعض التفاسير مثل مقاومة البربر الشديدة للفتح أو انعكاسات الحرب الأهلية الأولى و التي أضعفت السلطة المركزية في الحجاز قد يكون من الأجدر تفسير ذلك بِبُعد

1 - (*Pax Romana*)

بيت الخلافة عن ساحة المعارك، لذلك لا ينبغي أن نقارن بين فتوح «الشرق» و فتوح «الغرب»، فعندما فتح العرب المجال السَّاسَاني و مقاطعات بيزنطة الشرقية كانت الخلافة قريبة من ساحة العمليات، سواء بالمدينة في الحجاز أو الكوفة في العراق أو دمشق في الشام، في حين أنّ أقرب قاعدة خلفية للمقاتلة عند فتح المغرب كانت مصر، ثم لو قبلنا بمقارنة حركة الفتوح بالتوسع الروماني فإنّ الرومان لم ينجحوا في احتلال المغرب إلا بعد مضيّ أكثر من قرن ، في حين أن الفتح العربي استغرق تقريبا نصف قرن. و أما الملاحظة الثالثة فتتعلق بحركية الفتوح العربية فالثابت أنها لم تكن حركية «اعتباطية» حكمتها رغبة جامحة في الهجرة بعد أن لفظت صحراء «الجزيرة العربية» سكانها الساميين في آخر هجرة سامية، بل كانت حركة منظمة خضعت لإستراتيجية واضحة المعالم.

لقد بدأ التفكير في فتح إفريقية منذ خلافة عثمان بن عفان و وِلاية معاوية بن أبي سفيان على دمشق، و منذ اندلاع الحرب الأهلية الأولى سعى معاوية إلى تأمين الأموال لأهل دمشق قاعدة حكمه بعد أن أصبح الجناح الشرقي للخلافة تحت سيطرة علي بن أبي طالب. لكن ينبغي أن نعود قليلا إلى زمن خلافة عثمان بن عفان فبعد أن وطّد عمرو بن العاص الحكم لدولة المدينة بالحجاز و تم إحداث قاعدة الفسطاط و السيطرة على برقة، قام عبد الله بن أبي سرح بأول حملة استطلاعية في سنة 27 هـ/ 647 م انطلاقا من طرابلس، فزحف على قصور قسطيلية و هزم «إمبراطور» إفريقية جرجير، فكانت أول معركة بين الرُّوم و العرب في إفريقية، رفض خلالها الرُّوم التخلي عن حماية « المطمور» مقابل تركهم بلاد المُزَاق و الصحراء و الاحتماء بالبحر و بالظهرية. في المقابل يبدو أنه تَمَّ شبه تفاهم بين أمير الجيش عبد الله بن أبي سرح و القبائل و الزُرَّاع ينصّ على أن يجمع العرب الغنائم شريطة أن يعودوا إلى مصر.

و بعد مرور سبعة سنوات قاد معاوية بن حُدَيج حملة ثانية انطلاقا من الفسطاط هدفها الاقتراب أكثر من شرق بلاد المُزَاق مجال الزياتين لتأسيس أول قاعدة في إفريقية في سنة 45 هـ/ 665 انطلقت منها المقاتلة لفتح كامل المغرب فكان الاختيار على بلاد قَمُونية بالقيروان و منها انطلقت الحملات خاصة غزوة عبد الله بن الزبير الذي اقترب من بحر الروم بعد أن دخل سوسة، و غزوة عبد الملك بن مروان الذي دخل جَلُولاء. لكن تدعيم الدور الاستراتيجي لمعسكر القيروان كان مع تعيين عقبة بن نافع الذي سَيطر في سنة 50هـ/ 670 على بلاد المُزَاق و أرسل الجيش لفتح كامل المغرب. و لما توطد الحكم لبني أمية إثر انتهاء الحرب الأهلية الثانية في الحجاز، فكر الحُكَّام الجدد في إعادة السيطرة على المغرب عبر الاستيلاء أولا على كامل إفريقية، فَكُلِّف حسان بن النعمان الغساني بذلك و نزل بإفريقية في سنة 76 هـ/ 695، و نجح في إعادة السيطرة أولا على بلاد المُزَاق لتجتاز بعد ذلك جيوشه الدفاعات الجنوبية و المتمثلة في الحواجز الطبيعية للظهرية، و أصبح طريق قَرْطَاج بذلك مفتوحا، و بسقوط قَرْطَاج في 79 للهجرة/ 698 فُتحت «البرُوقُنصلية» و سقط «المطمور» في أيدي العرب. لقد كان العرب يخشون من سيطرة الروم على الواجهة البحرية لإفريقية هذا ما قد يُفَسِّر مباغتة قبائل جبال الأوراس لهم من الغرب بزعامة الكاهنة ملكة قبائل زناتة البدوية التي سحقت جيوش حسان بن النُّعمان و طردته من بلاد المُزَاق و بلاد الجريد و قَابُس و دحرته إلى بَرْقة، و لم يسترد العرب سيطرتهم نهائيا على إفريقية إلا في سنة 85 هـ/ 705 فأصبحت القيروان من جديد إلى القاعدة الرئيسية لفتح كامل المغرب. حافظ العرب في البداية على وحدة أراضي إفريقية عندما أحدثوا توازنا بين بلدان إفريقية الثلاث، «افرِيـقَـة» و بلاد المُزَاق و بلاد الجريد فقد أدى استقرار العرب في القيروان إلى فَتح بلاد المُزَاق من جديد أمام قبائل الجنوب و إبِلِها،

و نتج عن طَرْد الرُّوم من قَرْطَاج و التصدي لخطر قبائل زناتة البدوية الحفاظ على «السهول الكبرى» و سهول بلاد مكثر و سِلْيَانة و مجردة و وادي مليان، لكن المُعطى الجديد تمثل في عدم استغلال المطمور القديم لحساب سلطة مركزية خارج إفريقية، إذ الخلافة الأموية في دمشق لم تكن في حاجة كبيرة لحبوب إفريقية، خاصة و أن سهول إيران و العراق و الشام و مصر كانت تزودها بالحبوب و المنتجات الفلاحية الأخرى لكن في المقابل ارتبط مصير المطمور نسبيا بِمِصْر التي كان لها دور كبير في فتح إفريقية.

و فيما يتعلق بخصوصية نظام الأرض في إفريقية في صدر الإسلام، قد يكون من المفيد العودة إلى نظام الأرض في المشرق و تتبع تطوره في القرنين الأول و الثاني للهجرة ليسهل علينا فهمه. لقد ارتبطت قضية تملك الأرض في الإسلام بالفتوحات و كانت البداية مع الرسول و رغم أنها لم تتجاوز حدود الجزيرة العربية فإنها كانت كافية لوضع نظام جديد للأرض، فَقُسمت إلى أرض دخل أهلها الإسلام[1]، و أخرى فتحت عنوة حيث جرى عليها حكم الغنيمة، و الأراضي التي بقى أهلها على دينهم يُمْنَحون حق استغلالها و أجري عليها حكم الفيء[2]. لكن نظام الرسول لم يعد يتماشى و الديناميكية الجديدة للفتوحات فاجتهد عمر بأن سَن قوانين مثلت منعرجا خطيرا في نظام الأراضي المفتوحة حيث رفض تقسيم الأراضي المفتوحة بين الفاتحين رغم معارضة شق كبير منهم، و استثنيت من الغنائم و بقيت في أيدي أصحابها شريطة دفع ضريبة الخراج و الجزية التي تعود إلى بيت مال المسلمين[3]. و عمل

1 - أنظر سس أبي داود، تحقيق محمد محي لدين عدا لحميد، القاهرة، 1950-1951، ح 4، ص 262 ، و اس سلام (أبو عبيد)، كتاب الأموال، تحقيق حليل محمد هراس، القاهرة، 1975، ص 282، و أبو يوسف (يعقوب)، كتاب الحراح، بيروت، 1979، ص 65

2 - أبو يوسف، بمس المصدر، ص 23

3 - اس سلام، بمس المصدر، ص 63-67، و البلادري (أبو الحسن)، فتوح البلدان، القاهرة، 1959، ص 32 و 49 و 54 و 92، و اس هشام (أبو محمد)، السيرة السوية، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ الشلبي، القاهرة، ح3، ص 191، و القرشي (يحي س آدم)، كتاب الحراح، تحقيق أبو الأشبال أحمد محمد شاكر، بيروت، 1979، ص 36، و الطبري (محمد س حرير)، تاريخ الرسل و الملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، القاهرة، 1963، ح 3، ص 139 و 165

المسلمون «بالقوانين العُمَرِية» عند فتح العراق و إيران و الشام و مصر، و أصبحت الأراضي المفتوحة عنوة أو صلحا ملكا عاما للأمة الإسلامية، في حين استصفى أراضي كسرى و حاشيته وجعلها خالصة لبيت المال و عرفت بالصوافي. التزم عثمان بن عفان و علي بن أبي طالب «بالقوانين العمرية»[1]، لكن الأحوال تبدلت مع بني أمية عندما اتسع مجال الدولة الإسلامية، فلم يعد من الممكن مواصلة تطبيق سُنَّة الرسول و قوانين عُمَر دون إدخال تحويرات و تعديلات خاصة مسألة العمل بقانون تحريم تقسيم الأرض المفتوحة، و لئن حافظ الأمويون على الملكية العامة، فإن الملكية الكبرى الخاصة اتسعت بعد أن سمحت الخلافة باقتطاع أجزاء من أراضي الصوافي و أرض الخراج عن طريق الهبات و الشراء[2]. قد يكون تَطَوُّر نظام الأرض و نتائجه هو الذي دفعنا إلى تقديم الافتراض التالي، و هو أن العرب و عندما استكملوا فتح إفريقية كان أمامهم نظام يشجع على الملكيات الخاصة الكبرى فطبقوا ذلك على أراض كانت تابعة «للتاج البيزنطي» و أخرى تابعة للكنيسة و الطبقة الحاكمة الموالية للسلطة السياسية، و أراضي قدماء المحاربين و بعض الرُّوم، و أراضي الأفارِق[3]. و أصبح التَصَرُّف فيها على نحو تعود الأراضي فيه التابعة للرُّوم المهزومين و الأفارقة إلى الخلافة الإسلامية بدمشق لكن يتصرف فيها الوالي لأموي و يخدمها الزُّراع مقابل دفع ضريبة الخراج و الجزية، أما أراضي القبائل فقد اعتبرت عشرية، أي تدفع ضريبة العشر لأن أهلها أسلموا عليها، و أما الأراضي التي فتحت صلحا فقد حافظ أهلها عليها و على مسيحيتهم لكن مقابل دفع الخراج و الجزية. و من غير المستبعد أن يكون الفاتحون قد استحوذوا على جزء كبير من أرض الغنيمة باعتبار أن الخلافة الأموية كانت تُشجع على الملكية الخاصة و على استقرار العرب، الذين تحولوا إلى عرب

1 – اطبري، بفس المصدر، ح 4، ص 245، و القرشي، بفس المصدر، ص 22 و التي بعدها

2 – ليعقوبي (أحمد)، تاريخ، بيروت، 1960، ح2 ، 233 و التي بعدها

3 – بن حمادي (عمر)، " بعض المعرحات الهامة في أوصاع الملكيات الرراعية إفريقية"، دراسات تاريخية، السبة 13، العددان 42 و 44، أيلول-كانون الأول، 1992، ص 83-104، ص 84

إفريقية تجلت نزعتهم الانفصالية بوضوح بعد سقوط الخلافة الأموية سنة 132 هـ/ 750، غير أن نزعة كبار الملاكين إلى « الاستقلال» اقترنت طيلة العصر الوسيط بعدم القدرة على ضمان وحدة إفريقية الترابية، لذلك كانوا يلجأون دائما إلى «الآخر» و يفضلون «الحماية» أو «الوصاية»، لعل البداية كانت مع عبد الرحمان بن حبيب الذي خاطب الخليفة المنصور بالقول: « أفريقية اليوم إسلامية كلها، و قد انقطع السبي منها»[1]، هذا الرد كان يُعَبِّر إلى حد كبير عن مواقف كبار الملاكين الذين أصبحوا يمثلون «أرستقراطية إفريقية» و التي انبثق من صلبها إبراهيم بن الأغلب، مؤسس الدولة الأغلبية.

المخزن الأغلبي

لقد تبنى إبراهيم بن الأغلب سياسة المراحل عندما طالب في البداية أن تتمتع إفريقية بوضعية خاصة و أن يُورث الحكم داخل بني الأغلب دون أن تتدخل بغداد في ذلك لكن في المقابل عليه الالتزام بالولاء و الطاعة لبني العباس بالعراق. لقد كانت صياغة ذكية للمطالبة «بالاستقلال» الداخلي و في نفس الوقت التمتع «بالحماية» في حال تعرض الإمارة لخطر خارجي[2]، لأن العباسيين وحدهم كانوا قادرين على «حماية» إفريقية من خطر الرُّوم و أمويي الأندلس و دويلات الخوارج و الشيعة. هذه المعادلة السياسية الجديدة كان لها الدور الكبير في التحكم في الأرياف في القرن الثالث للهجرة رغم تعدد الثورات، التي نجح الأغالبة في القضاء عليها دون الحاجة لتدخل حكام بغداد، و من بين هذه الثورات يمكن أن نذكر ثورة 209 هـ/ 824 التي تزعمها منصور الطُنْبُذي، و هو من كبار الملاكين العقاريين بمنطقة تونس ، استطاع زيادة الله (201هـ232هـ/ 817-838) القضاء عليها، ثورة 280 هـ في عهد إبراهيم الثاني الذي عمد إلى كسر شوكة الأرستقراطية

1 - الحجابي (الحبيب)، دراسات في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمغرب، بيروت، 1986، ص 25

2 - الطالبي (محمد)، الدولة الأغلبية (184-296/ 800-909) التاريخ السياسي، نقله إلى العربية المنجي الصيادي، بيروت، 1985، ص 118-131

العقارية بحرمانها من عبيدها و خيلها، و قد شملت هذه الثورة مناطق تونس و بلاد باجَة و الوطن القبلي و الكاف و انخرط فيها أهالي بلاد المَزُاق، و نجح إبراهيم الثاني في القضاء عليها و السيطرة من جديد على سهول الحبوب و موانئ تصديرها. قد تكون الخلافة العباسية وراء اندلاع هذه الثورات لكن الأكيد أن بطش الأغالبة بالأرستقراطية العقارية، بسبب تهديدها لسلطتها على أرياف إفريقية، دفع عرب إفريقية إلى قبول الدعوة الفاطمية في وقت لم تعد فيه الخلافة العباسية قادرة على إرسال الجيوش فكان استيلاء قبيلة كتامة على قَفْصَة و الأُرْبُس و القيروان التي فر منها آخر أمير أغلبي هو زيادة الله الثالث، و دخل أبو عبد الله الشيعي رَقَّادة سنة 296 هـ/ 909 م و تمت البيعة في نفس السنة لعبيد الله المهدي ، فأصبحت إفريقية فاطمية[1].

الشيعة يحلبون إفريقية

لقد اعتقد الأهالي في أول الأمر أن نهاية الحكم الأغلبي يعني سقوط المَغَارِم، لكنهم سرعان ما تفطنوا إلى أن النظام المالي الفاطمي كان أكثر تعسفا من سلفه بعد أن عَدّل حكام القيروان الجدد الأرض عبر مسح وقيس جديد للأراضي، كانت الغاية منه سَن مغرم جديد سُمي التقسيط كما فرضت على أرياف إفريقية ضريبة نقدية جديدة يدفعها كل فرد[2]. لقد أضرت هذه الإجراءات بفلاحة إفريقية لأنها كانت تندرج في إطار مشروع سياسي أشمل يقضي بالتحضير لخطة القضاء على بني العباس لكن نجاحها يتطلب توفر الأموال فَسُخِّرَت أرياف إفريقية لذلك و هذا ما قد يفسر نظرة حكام المهدية لإفريقية التي لم تكن سوى محطة عُبُور نحو المشرق فلم يشعروا يوما بالانتماء إلى هذه الأرض، و تجلى ذلك بوضوح من خلال تأسيسهم المهدية التي كانت تشبه السفينة العملاقة تنتظر الإذن بالإبحار إلى قاهرة المعز وكان

1 - الجنحاني، نفس المرجع، ص 59
2 - بن حمادي (عمر)، نفس المرجع، ص 95

ذلك سنة 362 هـ/ . لكنهم تركوا عمالا لهم من أخلص حلفائهم في حربهم ضد صاحب الحمار زعيم الخوارج. تمسك بنو زيري الصَنْهَاجِيون في البداية بتبعيتهم لحكام مصر عبر مواصلة قوانين المالية الفاطمية مع أنها لم تكن تخدم مصالح إفريقية بقدر ما كانت تخدم مصالح الشيعة في مصر، لكنهم انقلبوا عليهم فيما بعد فدخلت الأرياف عهود «الحماية» و «الاستقلال» تتخلله فترات استطاعت فيها الأرياف التحرُّر من تَسَلُّط المخزن و حلفائه.

الأعراب «يحررون» إفريقية

يرى العديد من الباحثين أنّ زحف بني هلال مثّل أهم منعرج في تاريخ إفريقية الوسيط، لكن و قبل الخوض في خلفيات هذا الزحف و نتائجه، نرى لزاما علينا إبداء بعض الملاحظات حول ما ذكره بعض المستشرقين من أنّ الزحف الهلالي على إفريقية مثّل «الكارثة الكبرى» و استند في هذا الرأي على ما أورده كل من ابن عِذَاري و ابن الأثير و ابن خلدون[1]. فمن المفيد التذكير قبل كل شيء بأن دخول البدو إلى المزارع و الذي قد يكون أثر سلبا في الزّرع و الغرس في إفريقية كان قبل قدوم بني هلال، كما أن الحروب و الثورات السابقة لهذه الهجرة و التي أثرت سلبا في فلاحة إفريقية و نخص بالذكر حروب قَرْطَاج و روما، و قَرْطَاج و مَسِنِسَان، و الوَنْدال و الرُّوم، و العرب و زَنَاتة حين أحرقت الكاهنة الزّرع و الغرس حسب ما جاء في بعض المصادر،أضف إلى ذلك تتالي الثورات منذ عهد الولاة. كما أنه من غير المقبول أن نغفل عن مسألة الضرائب الجائرة المسلّطة على سكان الأرياف و دورها في

---

1 – يقول أصحاب النظرية التقليدية أن هجرة بني هلال و بني سليم إلى إفريقية كانت الغاية منه تأديب بني زيري بعد قرارهم الانفصال عن الخلافة الفاطمية، و من رواد هذه النظرة يمكن أن نذكر
Idrıs و Marcaıs(G), *Les Arabes en Bérberıe du XIe au XIVe sıècle*, Parıs, 1913
(H R), *La Berbérıe orıentale sous les Zırıdes aux Xe-XIIIe sıècles*, Parıs, 1962
Idrıs(H R)," l'ınvasıon hılalıenne et ses conséquences", *Cahıers de* و خاصة مقاله
cıvılısatıon médiévale, 11, 1968, p 353-71 لكن هذه النظرية تعرضت إلى انتقاد شديد و أول من ترعم
هذه الحملة تونسي أنظر دغموس (راضي)، " العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال، مجلة أوراق، عدد 4، 1981، ص 147-163، ص 148

إرغام الزُّرَاع على الهجرة و ترك أراضيهم بورا. لكل هذه الاعتبارات قد يكون من الموضوعي عدم تحميل قبائل بني هلال و بني سليم مسؤولية «الكارثة» بل قد لا نبالغ إذا ما وصلنا إلى النتيجة التالية وهي أنّ قرار الزُّراع فتح إفريقية للقادمين الجدد كان الهدف منه الإفلات من الضرائب المسلطة على أراضيهم و على رقابهم التي فرضها المخزن عبر مختلف العصور في قَرْطَاج، و القيروان، و المهدية. و خير دليل على ذلك حادثة إحراق ديوان الخراج في القيروان إبان دخول الفاطميين إلى رَقَّادة بسبب تلك السياسة الجبائية القاهرة للأهالي.

تنتمي قبائل بني هلال و بني سليم إلى الفرع المُضَري القيسي، وكان موطنها قبل الإسلام «الجزيرة العربية»، بنجد و الحجاز، وكانت تتنقل بين البصرة و مكة و يثرب بحثا عن المراعي لإبلها و مواشيها و كان ذلك بحد السيف أحيانا لذلك كان رجالها من أبرز أبطال «أيام العرب»، في حين كان بنو سليم يقيمون بيثرب و قرب خيبر واختصوا بتربية الخيل. ثم انتقلوا في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في سنة 109 للهجرة إلى مصر فاشتغلوا كجمالين بين الفسطاط و البحر الأحمر، و انتشروا في العهد العباسي في الشام و العراق و مصر فاختصوا بغاراتهم المتتالية على قوافل الحجاج المتجهة إلى مكة. و مع انتصاب الفاطميين في القاهرة قرر الخليفة العزيز بالله تهجير بني هلال و بني سليم قسرا إلى الصعيد المصري و كان ذلك سنة 368 هـ/ 978 ، لكنّ الفاطميين لم يستطيعوا فرض إخضاع هذه القبائل في فترة تأزمت فيها الأوضاع في مصر و انقطعت موارد إفريقية بسبب قرار المعز بن باديس الانفصال، فانطلقت «تَغْريبة» بني هلال في القرن الخامس من الهجرة[1] و لم يتعدّ عدد أفراد المُهجّرين مائتي ألف و كان ذلك عبر موجات متتالية. لم تتحدث المصادر عن صدام في البداية بين بني المعز و مؤنس بن يحي الرياحي أمير رياح أحد أبرز فروع بني هلال، لكن سرعان ما تبدلت الأمور إلى

1 - دعفوس (راضي)، نفس المرجع

حرب بين بني زيري و رياح، كانت معركتها الفاصلة حَيْدران، جبل بين صَفَاقُس و قَابُس، في سنة 443 هـ/ 1052[1] أدت إلى فتح بلاد المُزَاق أمام رياح و دخول القيروان سنة 449 هـ/ 1057 بعد أن هرب الصَنْهَاجِيُون إلى عاصمة الفاطميين المهدية. استغل سكان المدن الفرصة للإعلان عن «استقلالهم»، فانقسمت البلاد إلى عديد الإمارات، في سنة 449 هـ/ 1058 إمارة بني الورد بصطْفُورة و عاصمتها بنزرت، إمارة بني خراسان بتونس حوالي سنة 450 هـ/ 1058 سيطرت على سهول مجردة السفلى و بلاد بَاجَة و حبوبها، إمارة بُرْغوَاطَة بصَفَاقُس سنة 451 هـ/ 1059، إمارة بني جامع بقَابُس سنة 489 هـ/ 1095، إمارة بني الرند في الجنوب الغربي بقَفْصَة، و كادت سواحل إفريقية الجنوبية أن تسقط تحت سيطرة أحد مماليك صلاح الدين الأيوبي و هو شرف الدين قراقوش[2]، في حين انحصر نفوذ بني زيري في المهدية، و في هذه الأثناء ازدادت الأوضاع سوءا عندما تعرضت إفريقية لغزو قادم من البحر تمثل في احتلال النورْمَان جِرْبَة سنة 530 هـ/ 1135 و المهدية في سنة 543 هـ/ 1148 فانهارت السلطة المركزية بعد القضاء على بني زيري. فكان الحل هو الاستنجاد من جديد «بالآخر» بعد أن قُطّعت أوصال البلاد، و يبدو أن الأرستقراطية العقارية و التجارية هي من شجعت على طلب «الحماية» من الموحدين لفكّ الحصار النُرْمَاني عن الموانئ و التمكّن من استئناف تجارة الحبوب و الزيت و استعادة الهيمنة بعد أن أعاقها دخول البدو.

1 - إدريس (الهادي روحي)، الدولة الصهاجية، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، بيروت، 1992، ح1، ص 254

2 - برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تقلع إلى العربية حماد الساحلي، بيروت، 1988، ح1، ص 36

زمان الاستعمار

تحت حماية مصمودة

قامت الدولة المُوحدية على أنقاض الدولة المُرابطية في قبائل مَصْمُودة بجبل درن بعد أن تم الاستيلاء في عهد عبد المؤمن بن علي الكومي على مراكش، فكانت السيطرة على المغرب الأوسط سنة 548 هـ/ 1152 و التي مكنت بين 554 و 555 هـ المعروفة بسنة الأخماس من طرد النُورْمَان و إجلائهم عن سواحل إفريقية. و تَمَّ إلزام رياح الطاعة للسلطة المركزية بمراكش و واليها بإفريقية كي تتوحّد البلاد من جديد. لكنّ إفريقية سوف تعرف ثالث سلسلة من القوانين الزراعية في التاريخ الوسيط بعد القوانين العُمَرية و الفاطمية حين أمر عبد المؤمن بالقيام بمسح جديد للأراضي، عبر «تكسير بلاد إفريقية طولا و عرضا»، يقوم على التمييز بين ما هو صالح للزرع و ما هو غير صالح، و تقدير ما يمكن أن يحصّل من الأرض الصالحة حبوبا و أموالا فتلتزم كل قبيلة «بقسطها من الزّرع و الورق» و يكون توزيع هذه القيمة على القبائل على حسب قسطها و أن تكون الضريبة الجديدة جماعية لا فردية[1]. وافتكّ الموحدون أراضي بني زيري و اعتبروها ملكا للدولة لأنها فتحت عنوة تستخلص منها ضريبة الخراج. على أن هذا النظام المالي الجديد كان يستهدف القضاء على خطر قبائل البدو العربية خاصة «رياح» التي انفردت برئاسة بني هلال و استقرت بسهول إفريقية الخصبة، فكان التخطيط لتهجير رياح

1 - بن حمادي (عمر)، نفس المرجع، ص 96

و إبعادهم عن المطمور و تمّ ذلك بعد معركة القرن التي حسمت الصراع و أدّت إلى ترحيل رياح خارج إفريقية في اتجاه الغرب لَعَلّ جبال المغرب و صحاريها تبتلعهم فتتفرق ريحهم، فَطُهِّرت إفريقية قَبَلِيّا بأن تم تعويض بني هلال ببني سليم. لكنّ الحماية المُوَحّدية لم تدم طويلا بعد أنّ خَبِرَ أبو زكرياء يحي أن التحكم في فلاحة البلاد يعني النجاح في الاستقلال عن مراكش[1]، و كان الجهر بذلك سنة 634 هـ/ 1236، بعد أن علم الحاكم الجديد أنّ الدولة المُوحدية لم تعد قادرة على التدخل في فترة تزايد فيها تململ الأهالي من شدة وطأة الضرائب المسلطة عليهم بعد «تكسير» الموحدين لأرضهم.

عاصمة الخلافة الإسلامية

توطد الحكم للحفصيين مع المستنصر بالله لتتحول من دولة إلى خلافة بعد سقوط الخلافة الموحدية في مراكش و احتضار حكم بني العباس بسبب المغول. أصبحت إفريقية في العهد الحفصي قادرة على المحافظة على وحدة أراضيها و التصدي للغزاة و تجلى ذلك في إفشال الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع على تونس سنة 669 هـ/ 1270، لكن في هذه الأثناء تفطن المخزن إلى ضرورة التخلي عن القيروان لصالح حاضرة جديدة تسهّل عليهم السيطرة على محاصيل الحبوب و مناطق تصديره، فكان الاختيار على تونس حيث استطاع المخزن انطلاقا منها التحكم في أراضي «افريـقـة»، بعد أن تخلصوا أوّلا من بني رياح بعد استجلاب بني سُلَيم في سنة 630 هـ/ 1232. كما انتهج المخزن سياسة «فرّق تسد» لكسر شوكة القبائل الأخرى و إخضاعها لتونس بمنح القبائل الموالية له مكانة كبيرة على حساب القبائل المعارضة فبرز دور القبائل المَخْزِنية، و حرص الحفصيون على قمع أيّ محاولة للانفصال في مدن الجنوب الرئيسية مثل قَفْصَة و قَابس. لقد كان

1 - أنظر Chérif (M H), *Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn bin'Ali (1705-1740)*, Tunis, 1984, t 1, p 73

أنظر Chapoutot-Remadi (M) Tunis, in *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, Ecole française de Rome, 200, p p235-262, p235

الهدف من وراء السيطرة على الأرياف تأمين الموارد الرئيسية للمخزن الحفصي عبر ضمان استخلاص الجباية الزراعية، لكنّ هذه الضرائب لم تكن شديدة الوطأة كما كان الأمر من قبل نتيجة وجود موارد أخرى متأتية من الجهاد البحري، لذلك من غير المستبعد أن يكون «البحر» خفف من آلام «البَرّ». لكن هذا المُسَكّن لم يكن ليعالج نهائيا أوجاع الأرياف لأنّ البحر الأبيض المتوسط سوف يشهد صراعا شديدا بين حَوْضَيْه، بين دار ملك التُركمان في استانبول ودار ملك الإسبان في غرناطة و كانت إفريقية من بين مجالات الاحتكاك التركي- الإسباني ، هذه التحولات أجبرت المخزن الحفصي على العودة من جديد إلى قهر الأرياف بإثقال كاهل السكان بالمَغَارم و اغتصاب الأراضي بعد أن تقلصت مداخيل البحر لهذه الأسباب فلجأ الملاّكون الكبار إلى حِيلة التَحْبيس و لجأ المخزن من جديد إلى الحل الخارجي بأن سمح السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد (899-932/ 1494-1556) لخير الدين بَرْبَرُوس و عرُّوج من تحويل جربة إلى قاعدة للأتراك لكن ما أن طالب الأتراك بامتلاك كامل إفريقية حتى استعان السلطان الحفصي الحسن (932-950هـ/ 1526-1543) بالحماية الإسبانية فكانت غزوة شارل الخامس لإفريقية سنة 942 هـ/ 1535 أدت إلى اضطراب أحوال البلاد بعد أن «ارتد» المخزن الحفصي. هذا التحالف الحفصي الإسباني هيأ الأرضية لقبول الحماية التركية من جديد، ولمجابهة مطالبة الأهالي بقبول الحماية التركية قرر السلطان أحمد (950-978 هـ/ 1543-1569) الاستنجاد من جديد بالإسبان الذين احتلوا تونس سنة 980 هـ/ 1572 بعد حملة علج علي[1]، و في سنة 982 هـ/ 1574 قاد سنان باشا حملة جديدة تمكن على إثرها من طرد بالإسبان و حَوَّل إفريقية إلى إيالة عثمانية.

تونس تحت الحماية التركية

يبدو أن «الحل الإسلامي» لعب الدور الكبير في قبول أهالي إفريقية الحماية التركية و رفض الوجود الإسباني المسيحي فقد تجلت مساندة السكان

1 - أنظر Chérif (M H), *op cit* , t 1, p 73

للأتراك قبل وقعة حلق الوادي عندما ساند أهالي الجنوب دَرْغُوث باشا لدخول قَفْصَة سنة 1556 و ساند أهالي الوسط عسكر الخلافة العثمانية ليدخلوا القيروان. لقد تحولت إفريقية إلى مقاطعة تركية كان سنان باشا قد ألحقها بالباب العالي في استانبول، و أصبحت وَجَقًا عثمانيا يرأسه بَايلرْبَاي برتبة باشا يتلقى الأوامر من الأستانة و يساعده قائد عسكري برتبة آغا يقود الإنكشارية، التي تراوح عددها بين ثلاثة و أربعة آلاف، كما يساعد الباشا مجلس يتكون من الضباط السامين. انحصر مجال المخزن الجديد في البداية في الحاضرة تونس حيث يرابط معظم العسكر و يبلغ عدده ألفين تقريبا مع وجود محلّة يقودها بَاي كانت تجوب البلاد في الصيف نحو حاضرة «افرِيـقَـة» بَاجَة و في الشتاء صوب القيروان حاضرة بلاد الزياتين، و منها إلى الجنوب، لكن محلة الأتراك و إلى غاية الثلث الأول من القرن السابع عشر، لم تدخل في صراع مع القبائل المسيطرة على دواخل البلاد التونسية[1]. لم تخضع أفريقية طويلا للحكم العثماني المباشر بعد أن خطط ضباط صغار للانقلاب على الديوان، فكان لهم ذلك في يوم الجمعة 18 أكتوبر 1591 فقد على أثرها الباشا دوره كوال للمدينة و لحساب الدايات حُكَّام تونس الجدد[2]. كان عثمان دَاي (1595-1610) أولهم اعتمد على قائد عسكر البر برتبة باي و قائد عسكر البحر برتبة قبطان، لكن قائد البحر كانت له الحظوة الأكثر، إلى حدود منتصف القرن السابع عشر بسبب ما يَدُرُّه البحر عليهم من موارد في إطار ما عرف بالقرصنة[3] بعد أن انتعشت حركة الجهاد البحري في فترة انشغلت فيها أوروبا بحروبها الطويلة مما جعل الأرياف تعيش فترة سلم جبائية. لكنّ الأحوال تبدلت عندما فرض الباب العالي على أتراك تونس إبرام معاهدات مع فرنسا ، و لئن أجبرت معاهدات ما بعد سنة 1605 أتراك القصبة على

1 - انظر Bachrouch (T), *Formation Sociale Barbaresque et Pouvoir à Tunis*, Tunis, 1977, p 63

2 - عد إلى Chérif (M H), op cit, t 1 p 74

3 - تختلف كليا عن معنى "لصُوصية"

عدم التعرض للسفن الفرنسية فإنها شَرَّعت خفية وضع يد الأجنبي على حبوب «افرِيـقَـة»، لذلك فإنه من غير المستبعد أن يكون تصدير الحبوب إلى فرنسا من بين الأسباب التي دفعت الدايات إلى السيطرة على الأرياف و ذلك منذ حكم يوسف داي (1610-1637) و اسْطا مرَاد (1637-1640)، فكانت الحاجة مُلِحَّة لخبرة قائد البَرّ لكن النتيجة كانت وهن الدايات في مرحلة أولى منذ حكم أحمد خُوجة (1640-1647) لتسقط «جمهوريتهم» لصالح الباي.

مقاومة الاحتلال التركي

احتكر المُراديون، و هم من أصل مملوكي، وظيفة باي المحلة الجبائية و كان مراد كُورْسو، و هو من أصل كرسيكي (توفي سنة 1632) مؤسسها ، لكن ابنه حمودة باشا (1631-1666) هو الذي نجح في إخضاع كامل البلاد لمركز الحكم في بارْدُو فَتَوطد الحكم لهم مع مراد الثاني (1666-1675). عمل المُراديون على إخضاع الأرياف و كانت الخطة تقضي أولا بكسر شوكة القبائل التي كانت ترفض دفع الضرائب لحكام تونس الجدد، فكانت تهرب إلى طرابلس تارة و تارة أخرى إلى الجزائر مما يُسبب في الحروب بين الإيالات العثمانية في الغرب. كان أولاد شنُوف بالكاف أول ضحايا هذه السياسة الداخلية، و السبب كذلك في اندلاع الحرب بين الجزائر و تونس، بعد أن نجح المُراديون في كسر شوكة هذه القبيلة بين سنة 1636 و1637 فاستسلمت القبائل الأخرى مثل أولاد بليل و جبالية عَمْدُون، ثم جاء دور أولاد سعيد في الجنوب، و هم الذين عرفوا برفضهم للخضوع للمخزن منذ الفترة الحفصية، فكان تدمير الحَامة سنة 1636 لتسهل السيطرة بعد ذلك على الجبَالِية و وِرْغمة في جَفَارة سنة 1637 و مَطْمَاطة سنة 1638، ثم كان إخضاع الحنَانْشَة في سنة 1644 بعد معركة واد سرَّات. و للمحافظة على هذه المكاسب اهتم المُراديون بالمؤسسة العسكرية بالعمل على توفير مداخيل قارة

للجيش و بعث ثكنات عسكرية في شمال الظهرية بباجة و الكاف، وفي الوسط بالقيروان، و مراكز ثانوية بالحامة و مَطْماطة، و إحياء مؤسسة القبائل المَخْزِنية من خلال تقريب قبائل الدرِيد، كما كانت الاستعانة بكتائب الصبَايْحِية في تونس و باجَة و الكاف، و كذلك عسكر زوَاوَة[1]. لكن الحقبة المُرَادية انتهت بطريقة درامية بعد أن نجح ضابط تركي و يدعى إبراهيم الشريف في قتل مراد الثالث في جوان 1702، غير أن حكمه لم يدم طويلا ذلك أن الأرياف تخلت عنه في حربه ضد عسكر الجزائر فسقط في الأسر في شهر جويلية من سنة 1705، و اختارت البلاد أحد «الكرَاغِلة»، الذي كان كاهية إبراهيم الشريف، حسين بن علي الذي ولد بتونس من أب أعجمي و أم عربية من قبيلة شارن بجهة الكاف و قد نجح هذا الأخير في كسب مساندة الأهالي في حربه ضد الجزائر بعد أن تمكن من إجلاء عسكر الإيالة الغربية ليتحصل على فرمان التنصيب الرسمي من استانبول. حرص حسين بن علي على مواصلة التجربة المرادية المتمثلة في إخضاع الأرياف لسلطة المخزن و إعادة تنشيط دور القبائل المخزنية مثل المرَازْقِية من همامة و أولاد يعقوب و دريد، لكن المخزن سوف يعرف أخطر حرب أهلية عرفتها تونس في التاريخ الحديث (بين 1728 و 1756) عندما ثار علي باشا على عمه حسين بن علي و لجأ إلى جبل وسلات في فيفري 1728، فانقسمت البلاد إلى شقين، الشق الباشي ضم في الشمال و الوسط قبائل السوَاسي و أولاد سعيد و أولاد عيار و الونِيفة و الفرَاشِيش و ماجِر و المثَالِيث، و الشق الحسيني ضم قبائل دريد و الهمامة و جلاص و نفات، أما في الجنوب فكان صف شداد الموالي للشق الباشي يضم قبائل حازم و الغرَارية و الحمَارْنة، و صف يوسف الموالي لشق الحسيني يضم قبائل وِرْغمة و الودَارْنة و عكَّارة و أولاد يعقوب و المرَازِيق[2]. ولم ينته هذا الصراع إلا بمقتل حسين بن علي بالقيروان في ماي 1740 ليتولي غريمه

1 – نفس المرجع، ج1، ص 90

2 – المحجوبي (علي)، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تونس، 1986، ص 15 و التي بعدها

السياسي علي باشا الحكم، لكن عسكر الجزائر قرروا إنهاء الحقبة الباشية وكان ذلك سنة 1756 بعد أن نَصَّبُوا أبناء حسين بن علي في الحكم. عرفت الفلاحة التونسية في عهد حمودة باشا(1782–1814) انتعاشة محدودة في الزمن[1]، لكن ما أن انتهت الحروب الأوروبية حتى دخلت الإيالة التونسية مرحلة جديدة تميزت بتغلغل الرأسمال الأوروبي كانت من نتائجها المباشرة تعرض تونس إلى ضغوطات شديدة أجبرتها على إلغاء القرصنة سنة 1813 و صياغة دستور بين سنتي 1857 و 1861 و لئن كانت لهذا الدستور إيجابيات عديدة فإن سلبياته كانت أخطر لأنّه مكن الأوروبيين من حق امتلاك الأراضي تزامنا مع تزايد اهتمام أوروبا بحبوب «افرِيـقَـة» و خاصة زياتين الوسط. لكن فرنسا كانت تخطط قبل الدول الاستعمارية الأخرى لاحتلال الأرض التونسية، تحت شعار الحماية.

الأتراك يطلبون الحماية الفرنسية

عندما احتلت فرنسا كامل البلاد التونسية و نجحت في إبرام معاهدات مع الباي ففتح لها أرض البلاد، بعد أن استحوذت شركاتها من قبل على عديد الضياع في كل من وادي الزرقاء و النفيضة و سيدي ثابت و العزيب و المرناقية و مرناق و تيبار. و عندما اتبعت فرنسا سياسة الاستعمار الاستيطاني حرصت أولا على أن لا تعيد التجربة الجزائرية و ثانيا على توفير ظروف استقرار المعمرين الأوروبيين، خاصة الفرنسيين منهم. فكان لا بد من تنظيم الملكية 'العقارية لخدمة مصلحة المعمر و خاصة ضمان عقود ملكية واضحة لا لبس فيها. فصدر أمر من الباي بتاريخ 1 جويلية 1884 يقضي بتأسيس لجنة تتولى وضع قانون عقاري جديد للبلاد التونسية، و أسندت رئاسة اللجنة إلى الوزير المقيم. و صدر القانون العقاري الجديد و الذي عرف بقانون

1 – عرفت الفلاحة انتعاشة كبيرة في هده الفترة، انطر التيمومي (الهادي)، الاستعمار الرأسمالي و التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، تونس، 1999، ج 1، ص 121

1 جويلية 1885[1]، و ضعه المقيم العام بول كامبون لتلبية رغبة الشركات و المعمرين و كل الراغبين في شراء الأراضي. و تمثل هذا القانون في حماية الملكية بوجود قانون تسجيل يتمثل في وضع رسم تملك تسجله مصالح دفتر خانة تحتفظ فيه بالأصل و تسلم نسخة منه تسمى الرسم الأزرق. و لضمان تطبيق القوانين العقارية تم بعث مصلحة حفظ الملية العقارية التي عهدت إليها تحرير عقود الملكية و مسك الدفاتر العقارية، و مصلحة قيس الأراضي المكلفة بمسح و تحديد الأراضي التي سيقع تسجيلها. و بعد طمأنة رؤوس الأموال و الشركات و المعمرين على أملاكهم لم يبق أمام المستعمر غير تسخير الأراضي لهم، فكانت الغنيمة الأراضي المحبسة عندما وجدت فرنسا الثغرة في عقد «الإنزال» فأولته لصالح خطتها الاستعمارية الزراعية. فأمرت الباي بإصدار قرارين في 18 أوت و 21 أكتوبر 1885 يضبطان طريقة تنظيم الإنزال في الأرض المحبسة من إيراد ثابت و أبدي إلى إيراد يخضع للمزاد العلني[2]. كما أسست فرنسا إدارة عامة للفلاحة يَسَّرَت للمعمرين الاستحواذ على أراضي البيليك، و أراضي الغابات، و أراضي الموات. و أحدثت مؤسسات لحماية مصالح المستوطنين مثل جمعية الدفاع عن مصالح المعمرين و الندوة الشُّورية سنة 1890. غير أن هذه الإجراءات أدت إلى عمليات مضاربة كبيرة كادت تقضي على خطط الاستعمار في توطين المعمرين بالبلاد التونسية في إطار ما عرف بالاستعمار الزراعي عن طريق الخواص و دامت بين 1881 إلى 1892. كان المعمرون غير راضين على سياسة بلدهم الزراعية في تونس، فالحضور الفرنسي في الأرياف التونسية، مقارنة بالحضور الإيطالي، لم يحول الأرض التونسية إلى أرض فرنسية. فكانت المطالبة بإدخال تعديلات جذرية على الاستعمار الزراعي، تكون لصالح الفرنسيين. و في هذا الإطار يندرج بعث «شركة الضيعات الفرنسية بالبلاد التونسية سنة 1898». فكان

1 – المحجوبي (علي)، نفس المرجع، ص 129
2 – نفس المرجع، ص 132

الاستيلاء على أراضي الأحباس، لتتحول أراضي العروش القبلية في الوسط و الجنوب و بعض مناطق الشمال الغربي بداية من 1901 إلى ما يشبه ملك الدولة في شكل «عقلة». غير أن الأراضي التي سخرت للفرنسيين كان أغلبها في منطقة الشمال في بلاد الحبوب و بلاد الكروم و القوارص. و بذلك استحوذ الفرنسيون على 305 ألف هكتار في الشمال و في الوسط و الجنوب 243.750 ألف هكتار.

عهد الاستقلال

لم تكن مسألة الأرياف التونسية في بداية الأمر مدرجة في عمل الحركة الوطنية، وقد يعود ذلك إلى النزعة الأرستقراطية المَدِينِية لبعض عناصرها، و هذا ما قد يفسر أيضا نزعة اللامبالاة تجاه مشاكل الأرياف. والمفارقة أن المستعمر عمل على التعرف على هموم أهل الرّيف قصد التغلغل في هذا المجال. فقد اهتمت الجامعة الاشتراكية، و التجمع الاشتراكي و النقابي الثوري بوضع العامل الزراعي، و تشكلت « لجنة لتطوير الفلاحة الأهلية» بمقتضى أمر 13 ماي 1911، كان هدفها الاتصال المباشر بسكان الأرياف، من ملاكين عقاريين و فلاحين متوسطين و صغار و عمال زراعيين، وحتى الرعاة. فازداد اهتمام الحركة الوطنية بالفلاحة التونسية، خاصة بعد أزمة الثلاثينات. فقد أسست النقابة الصناعية للفلاحين التونسيين، في أفريل 1933، نقابة للفلاحين، و في يوم 16 سبتمبر 1945 أسس الحزب الشيوعي «جامعة الفلاحين المنتجين» بالوطن القبلي و الساحل، و كان يطالب بتوزيع أراضي الدولة و الشركات الكبرى على صغار الفلاحين و العمال و الخَمَّاسة، واهتم «الاتحاد التونسي للشغل» بقضية الفلاحة التونسية. أما الحزب الحر الدستوري الجديد، و الذي تأسس في مارس 1934، فقد بعث للوجود منظمة فلاحية تابعة له سماها «الاتحاد العام للفلاحة التونسية» و كان ذلك في أكتوبر من سنة 1948 [1]. لكن هذا الاتحاد سيعرف فيما بعد أزمة خطيرة

---

1 – اليمومي (الهادي)، نفس المرجع، ج2، ص 266

عندما اندلعت الأزمة بين اليوسفية و البورقيبية، فساند الاتحاد العام للفلاحة التونسية شق صالح بن يوسف، و اعتبر الاستقلال الداخلي 3 جوان 1955 مجرد خطوة إلى الوراء، في حين ساند الاتحاد العام التونسي للشغل شق بورقيبة، فكان ميلاد منظمة نقابية فلاحية جديدة في القيروان، في يوم 2 ديسمبر 1955، حملت اسم «الاتحاد القومي للمزارعين التونسيين».

و في سنة 1956 وصل شق بورقيبة في الحزب الحر الدستوري الجديد إلى السلطة، فبادرت أول حكومة تونسية مستقلة إلى ضم قرابة 150 ألف هكتار من الأحباس العامة إلى أملاك الدولة بمقتضى قانون 2 مارس 1956، وألغت الأحباس الخاصة و أحباس الزوايا بمقتضى قانون 18 جويلية 1957. و بموجب قانون 28 سبتمبر 1957 حلت أراضي العروش القبلية بجهتي الوسط و الجنوب التونسي و التي كانت تمسح قبل 1956 أكثر من ثلاثة ملايين هكتار. و بداية من سنة 1962 خاضت الدولة التونسية تجربة التعاضد بتوصية من صندوق النقد الدولي، و بتشجيع من الولايات المتحدة الأمريكية[1]، و تبنى الاتحاد العام التونسي للشغل هذه التجربة، بما أنه كان يتبنى سياسة التخطيط.

و لتشجيع التونسيين على قبول سياسية التعاضد، بَيَّنَ الحبيب بورقيبة في خطاب له ألقاه ببورصة الشغل في يوم 25 ماي 1962 و ذلك بمناسبة افتتاح مؤتمر التعاضد، سبب نهج سياسية التعاضد، فقال: « حرصت كل الحرص على الحضور بنفسي في جلسة افتتاح مؤتمر التعاضد و الإشراف على اجتماعكم هذا، رغبة مني في أن أبرز للشعب التونسي أهمية التعاضد و فوائده...و يرجع حرصي الشديد على حضور جلسة افتتاح هذا المؤتمر، زيادة على أهمية فكرة التعاضد، إلى سبب آخر، و هو ما أشاهده دائما من خيبة المشاريع التعاضدية و فشلها نتيجة سوء فهم الكثير من المواطنين حقيقة التعاضد و مراميه. و ربما يرجع ذلك أيضا إلى تقاعس الجهات الحكومية في عهد الحماية أو بعد

1 - نفس المرجع، ج2، ص 289

زوالها بقليل، عن إعطاء هذا الموضوع ما يستحقه من الأهمية، و إلى ضروب من سوء التصرف و الإدارة. و لقائل أن يقول أليس التزايد المستمر لعدد التعاضديات دليلا على الازدهار و النجاح؟ لكن العبرة ليست في كمية التعاضديات، إنما هي في النظرة الصحيحة إليها...تلك هي الثورة التي أنشدها، و الانقلاب الذي أرجوه...و قد زالت نظرية إطلاق الحرية الفردية بمعناه المتقدم، و أصبحت الدولة بما تسنه من قوانين، و ما تملكه من حق الزجر، صاحبة الحق في إصلاح الخطأ، و مقاومة الأنانية، و توجيه الناس نحو المصالح البعيدة المرمى، و لم يبق أحد يتمسك في العصر الذي نعيشه بترك الحبل على الغارب احتراما لحرية الفرد، و اعترافا بما له من كرامة بشرية... كان الاندماج قديما يخضع إلى تسديد الضروريات المحدودة فحسب و كان الأمر جاريا على قاعدة إنتاج ما يستهلك، و استهلاك ما ينتج، و بهذه الوسائل يمكن لأصحاب الضمائر الخربة، و الذين لا يخشون الله، أن يستثمروا بمنتهى الجشع عرق جبين إخوانهم في البشرية، بدون شفقة و لا رحمة. و هناك طائفة أخرى تمثل موقعا استراتيجيا آخر، لا يقل أهمية عن الموقع الأول، و هي طائفة الوسطاء الذي يملكون وحدهم التصرف في الطريق الرابط بين المنتج و المستهلك، و بسبب ذلك في معاش الناس و أقواتهم. والوسيط الواقف في أبواب الأسواق يمكنه فرض الأسعار التي يحددها للشراء و البيع أو تعريض البضاعة للفساد، و هذه الإمكانيات التي توفرت له بفضل رأس ماله الضخم تجعله لا يأبه لفساد البضاعة...و يصير هدفا للتحكم و الظلم و الخسارة، كما أن المستهلك لا يسعه إلا الرضاء بما يفرضه الوسيط من أثمان...إنكم تتذكرون و ما بالعهد من القدم ما نشأ في أسواقنا التونسية إبان موسم إنتاج الطامطم و البرتقال و غيرهما من الخضروات و الغلال، و كيف تحكّم انوسطاء تحكّما مبنيّا على التعسف وسوء التصرف في استعمال الحق، أدى إلى استئثار الوسيط (الهَبَّاط) بربح لم يحصل عليه المنتج نفسه الذي بات

يرضى من الغنيمة بالإياب...و إن أتعجب فأعجب لؤلئك الذين يسكنون الأعشاش آلافا و عشرات آلاف من الناس، وهم عاطلون، و لأولئك الذين يملكون آلاف الهكتارات من الأرض المهملة، فهم كالعِلَّة التي تعطل الدورة الدموية في الجسم. و إذا كان موقف بعضهم مبنيا على مجرد الكسل و البخل و سوء التقدير، فمن الأكيد مقاومة هذه العوامل، و إرشاد الضال إلى سواء السبيل...و من هنا تولدت فكرة التعاون و التعاضد و هي فكرة تبرز فيها مزية جمع الجهود المتفرقة، وتوسيع نطاق الأعمال، مما يسمح للفلاحين مثلا بادخار البذر، وتوزيعه في الموسم على المتعاضدين، أو بشراء آلات الحراثة و الحصاد، و بتربية البقر الحلوب، كل ذلك في جو من التعاون الصادق. و الأخوة المكينة و الثقة المتبادلة يُساعد على تنمية الإنتاج، وتوفير الازدهار للجميع...هناك مسألة أخرى لا بد من التحدث عنها و هي تعاضديات الإنتاج الزراعي فقد قوبلت بشيء من التهرب و التمسك بالملكية الفردية و حرية التصرف، و نحن و إن كنا ندخل حق الملكية و التصرف حسابنا، إلا أنه يجب أن لا يكون هذا التصرف أشبه ما يكون بخبط العشواء، فالمجتمع لا يستطيع أن يضمن حرية التصرف إذا كانت لا تحقق حاجته الأكيدة إلى استثمار كل شبر من الأرض التونسية على الوجه الأكمل. إنك إذا استعملت حريتك للتصرف في الهكتارات الخمس التي تملكها تصرفا قاصرا فإن للدولة التي تمثل المصلحة العامة أن تناقشك الحساب، و أن توجهك إلى الطريقة التي تجعل تلك الهكتارات تنتج ألفا عوض مائة، و ليس لك الحق، في هذه الصورة، أن تمنع الدولة من هذا التدخل بدعوى أنك حر فيما تملك، و أنك مكتف بالمائة و لا حاجة لك بالألف. ذلك لأن الدولة تمثل الأمة التي تتوقف حياتها على استغلال كل شبر من الأرض استغلالا كاملا. فإذا أصررت على أنك مكتف بالمائة كان على الدولة أن تخرجك من قطعة الأرض التي تملكها و تجردك من حقك فيها لأنّ تصرفك كان مضرا بالمجتمع إذا امتنعت عن

إتباع الطرق الكفيلة بتوفير الإنتاج، و قصّرت في خدمة الأرض أو خدمتها بصفة منقوصة لم تأت إلا بإنتاج منقوص. إن القانون لا يسمح لك بأن تحرم من الخيرات التي يمكن أن تنتجها تلك الأرض إذا وقع التصرف بطريقة غير التي اتبعتها أنت. و هكذا عوض أن نفتكّ منك تلك القطعة الصغيرة من الأرض نكتفي بأن نطلب منك أن تكون مع إخوانك يدا واحدة، و عندها نقدم لكم المساعدة و التسهيلات التي تحتاجون إليها و يصبح في إمكانكم أن تنتجوا مجتمعين أضعاف ما كنتم تنتجونه متفرقين»[1].

و كانت أولى نتائج هذه التجربة أن استطاعت البلاد التونسية التخلص نسبيا من مظاهر التبعية لفرنسا، و تجلى ذلك إثر إصدار قانون 12 ماي 1964، و الذي بمقتضاه تم تأميم ما تبقى من أراضي المعمرين و التي كانت تمسح قرابة 165000 هكتار، فكان الجلاء الزراعي.

1 - بورقيبة (الحبيب)، في التعاصد، كتابة الدولة للشؤون الثقافية و الأخبار، تونس، 1962

الفصل الثالث

أهل الأرض

خدّام الأرض

الملاّكون

ينجم عن امتلاك الأرض تقسيم هرمي للمجتمع: فنجد في القمة طبقة ثرية متكونة من شريحتين، «الشرفاء»[1] و قدماء المحاربين و هم من كبار الملاكين تحصلوا على الأرض مقابل تحالفهم مع السلطة الحاكمة ومن بين الأمثلة: مثال الزعماء المحليين الذين ساعدوا روما في حربها ضد قَرْطَاج؛ أو نتيجة تقلدهم لوظائف سياسية و إدارية و عسكرية فملكوا أخصب الأراضي في سهول مجردة[2]، و في الفترة الوسيطة كن استغلال صحبة القادة والأمراء والولاة من بين سبل امتلاك الأراض مثل امتلاك مسروق صحبته لموسى بن نصير من أملاك شاسعة حتى إنه ملك قرية حملت اسمه[3] و تحصل زعماء القبائل على هناشير بجهة القيروان مقابل ولائهم للحفصيين، و ملك مشايخ الكعوب عديد القرى بالجريد و بناحية صَفَاُقس و بالشمال، و في الفترة الحديثة ملك حضر المدن بكل من تونس و بَاجَة و الكاف و نابل و القيروان و سوسة و صَفَاقُس عديد الهنَاشير مقابل خدماتهم «الجليلة» للبايات.

و ملك قدماء المحاربين الذين شاركوا ماريوس في حربه ضد يُوغُرطان

1 - (*Honestıores*)

2 - انظر *Domını* Leveau (PH), L'Afrıque du Nord, ın *Campagne de la Médıterranée romaıne*, Parıs, 1993, p 155-200, p 185

و راجع كذلك المحجوبي (عمّار)، نفس المرجع، ص 134

3 - انظر Talbı (M), "Droıt et économıe en Ifrıqıya au IIIe/sıècle ", ın Etudes *d'hıstoıre Ifrıqıyenne*, Tunıs, 1982, p 185-229, p 188

قطعا صغيرة في كل من جَنْدُوبة و بُوسَالِمِ و تِيبار، و أقطع العرب إبيانة التي كانت تعد ثلاثمائة و ستين قرية لأحد القواد و في العهد الحفصي مُنحت الأراض إلى أحد العُلُوج؛ كما كانت المضاربة العقارية تمكن من امتلاك الأرض حيث اعتاد المقاولون[1] في العهد الروماني شراء أراضي العرش الإمبراطوري و تسويغها.

و من بين الطرق كذلك للحصول على الأرض يمكن أن نذكر المكانة الدينية فقد ملك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في فترة الإمبراطورية المتأخرة أملاكا شاسعة و ملك أبو محرز (214 للهجرة/ 829) قاضي القيروان عديد المنازل و ملك سحنون هنَاشِير كانت المصادر قد أشارت إلى أن مداخيلها بلغت خمسمائة دينارا سنويا و قدرت غلاتها باثني عشر ألف عود زيتون و تحصل كل من أبي رحمة غيث الحكيمي المتوفي سنة 685 للهجرة و أبو عبد الله محمد بن شبل على عديد الهناشير.

الزراع

و نجد في وسط الهرم طبقة الزُرَّاع[2] التي أصبح من الممكن، و بفضل النقائش الأربعة التي عثر عليها في هِنْشِير مِتِّيش و عين جمّالة و عين وسّال و سوق الخميس، من تحديد الملامح العامة لهؤلاء إذ تَبَيَّن أنهم كانوا يخدمون ضياعا صغيرة تابعة للعرش الإمبراطوري يورثونها أبناءهم شريطة أن لا ينقطع تقديم ثلث الإنتاج إلى صاحب الأرض طيلة موسمين متتالين. و قد ورد في نقيشة هنشير مَتِّيش، الواقع عند نقطة التقاء وادي مجردة برافده وادي سليانة، شمال مدينة دُقّـة ما يلي:» ...على كل من يسكن ضيعة ويلاَّماقـنَا، و استغل حقلا من حقولها، أن يدفع إلى المُشْرِف على تدبيرها، حصته و المطالب من محاصيل الحبوب و الكروم و باقي المحاصيل ، و ذلك بمقتضى ما يَنُص

1 - (*Conductor*)

2 - (*Coloni*)

عليه قانون مَانِقِيَانَا. ثلث ما سُلِّم من الحنطة إلى الدراسة، و ثلث ما سُلِّم من الشعير إلى الدراسة، و ربع ما سَلَّمه من فُول، و ثلث ما جمع من خَمر في خوابي لعصير، و كيلة من كل جرة من العسل، و إذا فاق العسل مقدار خمس خوابي فإنه يسلم إلى المُشْرِف على تدبير الضيعة، وعليه فإنه ينبغي تسليم ما دُبِّرَ لتهريبه من الضيعة من شَهْد و نَحْل. كما يُسَلِّم المُسْتَغِل ما جمعه من تين حسب ما سَنَّه العُرْف قبل صدور قانون مَانِقِيَانَا، و إذا سبق الغرس ذلك. و إذا كان الغرس بعد صدور القانون المذكور فإن ثمرة الشجرة تكون من نصيب الزُرَّاع بأكملها طيلة خمسة مواسم. بعد ذلك يُسَلَّم القسط المطالب به حسب بُنُود قانون مَانِقِيَانَا».

الخماس و المغارسي و المساقي

أما في أسفل الهرم فنجد الزُّرَاع الذين تحددت مكانتهم بمقتضى عقود الشركات الفلاحية. فنجد المغارسي الذي يقدم العمل و غرس الأشجار بمقتضى عقد بينه و بين صاحب الأرض يقضي بأن يتحصل على نسبة من الأرض و الأشجار إذا أثمرت. و قد نجد في المصادر الفقهية محاولات لتقنين هذا العقد فقد جاء على لسان ابن راشد.» دفع فُلان لفُلان أرضه البيضاء النقِيَّة التي بموضع كذا، حدودها كذا...على أن يغرسها كذا و يتعاهد ذلك كله باحفر و السقي، فإذا بلغ الأطعام أو إذا علمت الأصول و ارتفعت كل شجرة أو كل نخلة إلى نحو القامة أو ستة أشبار بالشبر الوسطي، فالأرض و الشجر بينهما يقتسمانه أو يقرّانه متى شاء، أو يكون العمل عند ذلك فيها على قدر حظوظها مع مغارسة صحيحة دون شرط و لا شيئا و لا خيار تواصفاها و عرفا قدرها على سُنَّة المسلمين فيها وقول العامل فلان في الأرض المذكورة ليتولى غرسها و العمل فيها، وعليه ما خف من زرب و ثنيّة مجاريها «[1].

1 - حسن (محمد)، المدينة و البادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس، 1999، ج1، ص 417

و قد درس المعمر الفرنسي بدقة عقد المغارسة لتثبيت الاستعمار الزراعي[1]. و المساقي الذي يَرْوِي الأرض و الغرس بمقتضى عقد بينه و بين صاحب الأرض فيتحصل بمقتضى هذه الشركة على قدر من الإنتاج. و اشترطت المصادر الفقهية الإسلامية لإبرام هذا العقد المساقاة، لا يصح إلا في أصل يثمر أو في الأزهار و الورود، أن تكون قبل طيب الثمرة وجواز بيعها، أن تكون مدة معلوم أن تكون بلفظ المساقاة، أن يكون بحيز مشاع مقدر، أن يكون العمل كله على العامل، ألا يشترط أحدهما الثمرة و لا من غيرها شيئا معينا لنفسه، ألا يشترط على العامل عملا خارجا من منفعة الثمرة[2].

و الخَمَّاس بمقتضى عقد الخَمَّاسة و هو عقد مزارعة على الثلث أو الربع أو الخمس، ففي حال شركة الثلث أو الربع فإن العامل يقدم العمل أو ربعها و الماشية و ثلث الزريعة، و في حالة الخمس يُقدم فيها الخَمَّاس «العمل» و خمس الزريعة. و تعتبر الخَمَّاسة بإفريقية من أقدم الشركات الزراعية التي تعود جذورها إلى التاريخ القديم، و تواصلت في فترة الحماية ليتم إلغاؤها بعد

---

1 – هذا ما استخلصه (Joseph Chailley-bert) الكاتب العام للاتحاد الاستعماري الفرنسي، حين ذكر " Le contrat de Mrharça est une variété très lâche du contrat de Khamessa, appliquée à la culture des oliviers, des cactus, des figuiers, des orangers, etc , mais principalement des oliviers En principe, le propriétaire fournit la terre nue à un cultivateur qui s'engage à y planter des oliviers Au bout d'un certain temps la propriété est partagée dans une proportion à déterminer entre les deux parties L'olivier ne rapporte guère avant 10 ou 12 ans L'opération est donc à assez long terme Voici comment elle s'établit dans le Centre et dans le Sud de la Régence, qui sont les parties du pays où le colon rencontrera le plus facilement des terres disponibles Ces terres, l'État mes vend 10 francs l'hectare Sur un hectare on ne peut planter, eu égard au faible volume d'eau qui tombe et à la quantité qu'en exige chaque olivier, plus de seize o de dix-sept oliviers, seize en plantation rectilignes et dix-sept en quinconce Les arbres une fois plantés, il faut que la Mrhaçi vive Dans le Nord de la Régence il pourrait vivre avec le produit des cultures de fèves qu'il fait parmi les oliviers , dans le Sud ces cultures sont moins abondantes et surtout moins régulières, et le Mrhaçi vit principalement des avances que lui fait le propriétaire Quant la plantation est terminée, le propriétaire a dépensé environ 50 francs, et quand les arbres commencent à rapporter, il a dépensé environ 6 a 700 francs Mais cette somme représente pour une grande partie les avances remboursables du Mrhaçi au propriétaire, et, pour s'acquitter, le Mrhaçi abandonne généralement une partie des oliviers qui doivent lui revenir après partage " أنظر (Joseph Chailley-bert, la France en Tunisie, in Revue générale des sciences pures et appliquées, op cit , p 171

2 – حسن (محمد)، نفس المرجع، ج1، ص 418

الاستقلال. و في غالب الأحيان يتعرض الخماسة إلى أبشع أنواع الاستغلال، و هذا ما يتجلى بوضوح فيما بقي مُدَوّنا و شَفويا من جوانب من حياتهم اليومية، فعن اللباس قدم محمد بيرم الخامس الوصف التالي: «قميص و رداء من الصوف يسمى الحرام و برنس من الصوف، غير أنه يلبس لبسا بأن يدخل الرجل رأسه في الطربوشة، وتارة يبقيها على رأسه، و تارة يلقيها إلى ورائه على كتفيه، و هما من مصنوعاتهم، وعلى رؤوسهم شواشي و عمائم من خيوط أو من وبر الإبل أو صوف الغنم الأسود أو الأحمر، و في أرجلهم البلغة (الصواب «المداس»)»[1].

كما نجد أسفل هذه الطبقة الفقيرة العمال الموسميين من بدو و عبيد، و هم ركيزة الفلاحة التونسية، كانوا محل استغلال شرس منذ التاريخ القديم فقد أخبرنا دِيُودُوروس عن انتفاضة عبيد كادوا أن يدمّروا قَرْطَاج في سنة 396 قبل المسيح، و تواصل هذا الاستغلال في الفترة الأغلبية و الفترات اللاحقة إلى أن تم إلغاء العبودية في العصر الحديث.

1 – التيمومي (محمد الهادي)، نفس المرجع، ج 1، ص 336

موطن خُدّام الأرض

تلعب القرية دورا رئيسيا في الحفاظ على التناغم بين المدينة و الرّيف فاستقرار الأوضاع فيها يعني تحكم المدينة في مجالها و المحافظة على وظائفها السياسية و الإدارية و الاقتصادية، فهي الجسر الذي يربط المدينة بالريف و بدونه تتحول المدينة إلى «جزيرة»، و هي من ثوابت الحياة الريفية في إفريقية بسبب علاقتها المزدوجة مع المركز الحضري و المحيط البدوي. و لئن كانت القرية تجمعا ريفيا يسكنه أصحاب الضياع الذين يفضلون استغلال أراضيهم مباشرة، و مستودعا لوسائل الإنتاج، و مركزا لاستقرار قوة العمل الزراعية من زُرّاع أحرار و عبيد و عُمال موسميين، فإن ازدهارها يكسب المدينة انقدرة على استغلال أراضيها البعيدة و هذا ما تجلى بوضوح في الفترة الإمبراطورية العليا و بالتحديد في القرن الثاني بعد المسيح عندما تجاوز عدد المدن و القرى المئات بعد أن اكتسحت الفلاحة الجبال و شارفت السبَاسب و المناطق الصحراوية، و في الفترة الوسيطة لعبت بعض القرى الزراعية دورا رئيسيا في حفاظ الحواضر و مدن الأقاليم على مجالها الزراعي البعيد مثل قرى فحص مرناق المحيطة بتونس أو تلك التي أحياها الأندلسيون مثل تَستور و سلُوقِية و مجاز الباب و قرِيش الواد و طبُرْبة في حوض مجردة السفلي، و قرى بلاد الجريد و نفْزاوَة و قَابُس. لكن في المقابل ينتج عن توتر العلاقة بين المدينة و نواحيها إما خراب القرية أو فك ارتباطها بمركزها الحضري فتتحول عند ذلك إلى مدينة، و غالبا ما يحدث ذلك عندما يتعامل المخزن معها على

أساس أنها وحدة جبائية قبل أن تكون وحدة استغلال زراعي[1]. و لتجنب التعسف الجبائي قد يحدث تحالف بين أهل القرى و البدو للتخلص من وطأة الجباية، فلا يجد كبار الملاّكين من سبيل سوى تحصين القرى و بناء الأسوار و الجدران، هذا ما حدث في الفترة القرطاجية عندما تم تحصين السكن الريفي خوفا من انتفاضات المزارعين و العبيد، حتى إن المصادر أشارت إلى احتماء حَنَبَّعل في « تُرْسِيسْ » له بين القلة[2] و رأس ديماس ، و «تُرْسِيسْ» هي كلمة يونانية كانت تعني « البرج » [3] الذي يعود إلى الفترة الرومانية المتأخرة و الفترة البيزنطية، و كان يسكنه الزُّرَاع بناحية تونس برأس الطابية و بَارْدو و مَنُّوبة و أرْيَانَة في الفترة الوسيطة، أضف إلى ذلك الحصن و الطرش و خاصة القصر في قَفْصَة و بنواحي المهدية و بالساحل. وقد يتحول الجبل إلى ملجأ عندما يزداد تعسف السلطة المركزية و توتر العلاقة بين المجموعات المستقرة المحلية و البدو الرحل لذلك تكثر القرى الجبلية خاصة في جبل وسلات و قلعة سنان و كسرى؛ في حين تكون في شكل قصور بجبل مَطْماطَة مثل قصور شنني و الدوِيرات. كما يرتبط وجود القرى كذلك بالنشاط الزراعي المنتظم خاصة حول الأنهار و منابع المياه و يمكن أن نذكر في هذا المجال قرى «بلاد الرافدين» على حد تعبير سارج لنْسال الواقعة بين وادي مجردة و مليان، و إذا ما اتبعنا نفس الأسلوب في المقارنة فقد نصف هذه «الجزيرة» بهبة وادي مجردة[4] حيث تكثر القرى الزراعية بكل من تَسْتُور و السلُوقِية و مجَاز الباب و قِريش الواد و طبُرْبه التي أحيتها الجالية الأندلسية في القرن السابع عشر[5]. و

1 – أنظر Charles-Picard(G /C), *la vie quotidienne à Carthage*, Paris, 1958, 123

2 - (*Acholla*)

3 - (*Pyrgoi*)

4 – بَحْرَدَة *Bagradas*

5 – دي ايلرا (ميكال)، "و ثائق حديدة حول الأندلسيين بتونس في أوائل القرن الثامن عشر"، المحلة التاريخية المعربية، عد 17–18، تونس، حانفي 1980، ص137–140، ص 139 انطر Temimi (A), « Politique Ottomane face l'implantation et à l'insertion des Morisques en Anatolie », *Revue d'histoire Maghrébine*, N°61-62, 1991, p 147 و عد إلى مقال نفس المؤلف Temimi (A), « Évolution de l'attitude des autorités de la régence de Tunis face à l'accueil

قرى الساحل و الوطن القبلي. و فيما يتعلق بقرى الواحات فتنقسم إلى قرى سهلية قارية ببلاد الجريد مثل درجين و الحامة و تيقيوس؛ و سهلية ساحلية بخليج قَابُس ، و أخرى جبلية.

لكن قبل أن نختم هذه الفقرة ينبغي أن نُنبه إلى صعوبة التعرف على معنى المنزل و الفحص لأن عمر هذه القرى السهلية قصير جدا، لولا ما نجده في بعض المصادر الجغرافية العربية حيث يبدو أن المقصود بالقرية في وسط البلاد السكن المُجَمَّع الذي يقوم على الفلاحة الجاهدة و ذلك حسب شهادة اليعقوبي؛ أما المنزل، و الذي ذكر في غالب الأحيان في صيغة الجمع، فقد يكون المقصود به في الفحص السكن المُشتت الذي يقوم على الزراعات الحقلية في الهناشير. و المنزل هو كذلك مسكن البدو في موسم العودة من الانتجاع أي في الصيف عادة.

des morisques, à la lumière d'un nouveau firman du sultan ottoman ", *Revue d'histoire Maghrébine*, N°69-70, 1993, p 175

خِدمة الأرض

المحراث

يعتبر المحراث من أهم الآلات المستعملة في خدمة الأرض على أن استعماله يختلف من جهة إلى أخرى تبعا لنوعية التربة. فإن كانت رخوة أو صلبة، يجره زوج من الدواب: زوج من البقر أو من الثيران و أحيانا تجره الجمال. و قد أشار بلينيوس الصغير أنه شاهد بعينه في بلاد المزاق عربة يجرها من جهة حمار و من اجهة الأخرى امرأة عجوز[1].

أما فيما يتعلق بأنواع المحاريث فنجد أولا « الشَعْبَه» [2] و هو نوع لا يزال يستعمل في بعض القرى بجهة باجة و تستور و في سفوح الجبال التي يصعب معها استعمال الجرّار. و يتكون هذا المحراث من ثلاث عناصر أساسية: من قصبة المحراث أو « الرُكْبَة» في اللهجة التونسية تُشَد إلى زوج الدواب بالنّير أو بقطعة من خشب تسمى «الكَفْ» في اللهجة التونسية، و في مقدمة « الرُكْبَة

---

1 – انظر

p 89 Plıne L'Ancıen, Hıstoıre Naturelle, texte établı, traduıt et commenté par André (J), Parıs, 1964, XVII, 41

قد تؤكد صورة علاف الكتاب ما دكره بليبيوس، فهده الصورة التقطت لروحين أثناء حرث أرص أحد المعمرين بقصر الطير، على للطريق الرابطة بين تونس العاصمة و الجزائر هل تواصل هذا التقليد الرراعي عند قلب الأرض مند القديم؟ أم أن ملتقط هده الصورة أراد أن يقوم باختراع هدا المشهد لتأكيد ما أورده بليبيوس؟

2 – Araıre dontaı) انظر Valensı (L), Fellahs tunısıens, Parıs, 1977, p 185

« نجد السكة كانت مصنوعة من حجر الصوان و تحولت فيما بعد إلى قطعة حديد و قد يكون ذلك منذ الحقبة القرطاجية. أما العنصر الثالث هو مقبض المحراث و الذي يسمى في اللهجة التونسية « القَرَّاص»[1]، و هذا القسم من المحراث له دور كبير في عملية الحرث فبواسطته يوجه المزارع الدواب و يتحكم في عمق قلب الأرض. و « الشَعْبَه « لها في الغالب زوج « قَرَّاص « خلافا لنوع آخر من المحاريث أحادي «القراص» و يسمى في اللهجة التونسية «المحراث العربي» [2]

آلات الحصاد و الدراس و عمل البيدر: المنجل المسنن

و تدرس السنابل بواسطة درَّاسة مجرورة تسمى «الجاروشة» كانت معروفة منذ القديم[3]، تتكون من العناصر التالية: لوحة مستطيلة تُرصّع بحجر الصوان[4] تتخللها شفرات حديد، و تكون مقعرة عند الأطراف، تجرها الدواب و يركبها رجل، و من خلال هذه الآلة يدرس المندر، الذي كان قد فرش بزبل البقر و خلط بالتبن قبل أن تفرش السنابل. و هناك دَارّسة أخرى كانت تستعمل خاصة في بعض الأرياف المجاورة لسوسة و صفاقس و القيروان و تسمى « الكَرِّيطة»[5] و قد تكون تلك التي وصفها وَارّون[6] و هي عربة ذات عجلات مسننة. و بعد عمل البيدر تتم تذرية الحب عند هبوب الريح بواسطة «مَذَار» طويلة و مجارف مصنوعة من الخشب، بعدها يكون الخزن.

1 – قد نتذكر ذلك المثل الشعبي والذي يصور ما كان يعانيه المزارع من مشاق عند القيام بعمله، و سوف أورده باللهجة التونسية

أوِلْ عِيطَة للسردوك بِتْمَخْمِص وِيحُكْ الرَاس
و ثاني عيطة للسردوك إنْقُوم وِنْلَوَّح على العَفّاس
و ثالث عِيطَة للسردوك إِنْحُط يَدَيْتِي على القَرّاص

2 – (*Araire chambige*) انظر Valensi(L), *op cit*, p 185

3 – (*Tribulum*)

4 – (*Silex*)

5 – راجع Lancel (S), *op cit* ,p 294 و عد كذلك إلى براشفيك (روبار) ، نفس المرجع، ج2، ص 214

6 – (*Plostellum Punicum*))

ولئن لم تتطور الآلات الزراعية كثيرا فإن طرق استخدام الماء لري المزروعات عرف تطورا كبيرا عبر العصور أفضى إلى وجود «هندسة مياه» تعود إلى الفترة القديمة. و قد أثبتت الحفريات الأثرية وجود شبكة من المنشآت المائية من سدود و قنوات و جسور. و أشير هنا إلى أنني سوف استثني المنشآت المائية المعدة للاستعمال البشري مثل الخزانات و الصهاريج و المواجل. قد يرتبط وجود الفلاحة المروية بوجود سلطة مركزية قوية قادرة على بناء هذه المنشآت و حمايتها و صيانتها. وحسب ما ذكره « دِيُودُور الصِقلّي » فإن قرطاج كانت تستخدم الري في دائرتها الترابية. أما الرومان فقد شجعوا على تعاطي الزراعات المروية في بلاد المزاق خاصة بعد صدور قانوني «مانيقيانا» و «هادريانوس»، و من أقدم هذه المنشآت نجد «سد القصرين»[1] حيث استخدمت مياه نهر الدرب في الفلاحة و بلغ ارتفاعه عشرة أمتار[2]. لذلك ليس من المستغرب أن يقول الإدريسي أن سبيبة كانت بها الفلاحة المروية[3]. و تواصلت الزراعات المروية مع الأغالبة و الفاطميين في بلاد المزاق، في فترة ظهرت فيها كتب المياه في المشرق الإسلامي. لكن استخدام المياه في الفلاحة لم يكن مرتبطا دائما بوجود سلطة مركزية قوية بل عملت بعض المجموعات القروية على بناء منشآت خاصة بها و بها زراعتها، و تجسد ذلك خاصة في مثال «جسور مطماطة». و في هذا المجال يدل كتاب « القسمة و أصول الأرضين» لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر النفوسي (المتوفي سنة 504 للهجرة/ 1110)[4] على عراقة التقاليد الموروثة[5].

---

1 - (*Cillium*)

2 - عد إلى *op cit*, Leveau (Ph), p 177

3 - إدريس (الهادي روحي)، نفس المرجع، ج2، ص 80

4 - بن وردو (الهادي)/ ممّو (أحمد)/ حسن(محمد)، قانون المياه و التهيئة المائية بحوث افريقية في العصر الوسيط، تونس، 1999

5 - عد إلى *op cit*, Leveau (Ph), p 176

و فيما يتعلق بالشمال فقد يكون المخزن الحفصي أعاد إحياء تقنيات الري القرطاجية–الرومانية. لكن يجب الإشارة هنا أن هذه المنشآت تأتي بعد منشآت الوسط و الجنوب من حيث الأهمية. و من تقنيات الري في الشمال يمكن أن نذكر تصريف مياه المستنقعات و السباخ و التي لمح لها « دِيُودُور الصِقلّي» عند حديثه عن الفلاحة القرطاجية، و التي شجعت قوانين «مانيقيانا» و «هادريانون» عليها بجهة دقة. و من غير المستبعد أن تكون أراضي برج فرينش[1] ، بين برج العامري و قريش الواد و التي تحاذيها «قرعات لعطش» التي يشقها واد الحمار، من بين الأراضي التي استخدمت فيها تقنيات تصريف المياه. كما أن الجالية الأندلسية أحيت «وِلجْة» نهر مجردة في كل من تستور و السلقوية و قريش الوادي. كما تشير المصادر إلى استخدام النواعير و السواني و الدواليب في قرى ضواحي تونس[2].

1- (*Burgos Furnos*)

2- حسن (محمد)، نفس المرجع، ج2، ص 396

«المجمع الفلاحي»

القمح و الشعير

تحتل الحبوب المرتبة الأولى في هذا المجمع حيث يستحوذ القمح و الشعير على جل الأنشطة الزراعية و المساحة المزروعة في البلاد التونسية لكن يصعب وضع ترتيب لهاتين الحَبَّتَين، فكما أنه لا يجوز القول إن الزُرّاع كانوا لا يزرعون إلا القمح الصلب[1] بالاستناد فقط على ما ذكره «بلينيوس الصغير» فإنه من الصعب جعل الشّعير في المرتبة الأولى رغم التقدير الذي يكنه المزارعون لهذه الحبّة[2]. لكن ما هو ثابت على الأقل أن سكان الواحات في الجنوب زَرعوا القمح منذ القديم واستحسنوا زرع الشعير لأنه قادر على النمو بسرعة في أرض رخوة و حصوية دون الحاجة إلى كمية كبيرة من المياه و هذا ما يفسر تفضيل سكان قَرْقَنَة و حامَة قَابُس الشعير على القمح؛ و من الثوابت كذلك أن باجة كانت حاضرة القمح و الشعير منذ القديم في سهولها الممتدة إلى ماطر حتى أن الإدريسي جعلها أثرى مدينة من حيث القمح بل و قَدَّر حسن الوزّان إنتاجها بأكثر من عشرين ألف سُتِّيَة، وينبغي التذكير هنا أنّ الإدريسي أشار في موضوع آخر من «نزهة المشتاق» إلى مزارع أخرى في بلاد أجر و الأُرْبُس و الأنْصَارين و زَغْوَان. لقد زعم بعض الدارسين أن فلاحة القمح و الشعير لم تكن من نقاط قوة الفلاحة القَرْطَاجية لأنها

1 - (*Triticum durum*)
2 - (*Hordeum hexastichum*)

أهملت و تركت للسكان المحليين متجاهلين بذلك إشادة المصادر القديمة بخصوبة «دائرة قَرْطَاج» البُونِية الممتدة من شمال قَرْطَاج إلى شبه جزيرة الوطن القبلي، و تمسك الكنعانيون ببلاد مكثر و «السهول الكبرى». لقد كان القمح و الشعير هاجس كل السُلَط المتعاقبة على البلاد بدءا بَمسِنِسَان الذي حَوَّل الأراضي البور إلى مزارع خصبة، و شجع الزّراعة على حساب الرّعي، و الاستقرار على الترحال، و عملت روما بعد وفاته على أن تَحُول بين الأهالي و حقهم في التمتع بقمحهم و شعيرهم بعد أن أمر يوليوس قيصر، إثر معركة طَبْسُوس سنة 46 قبل المسيح، بأن تزود روما بقمح مقاطعة إفريقيا الجديدة عبر نظام جبائي دقيق للغاية[1] كان يقضي بجمع الضرائب العينية المفروضة على الفلاحين في خزانات كبيرة قبل نقلها إلى الموانئ[2] من بينها هِرْى هِرْقَلة[3] الذي تصدر منه الحبوب في المراكب لتفرغ حمولتها في العاصمة الرومانية روما. و لا مناص هنا من التذكير أن تصدير الحبوب لا يعني وجود فائض في الإنتاج لأن أرباب الضياع الرومان لا تهمهم الحاجيات الداخلية بل كان همهم الوحيد تلبية حاجيات روما حتى أنّ الأباطرة أمروا بأن تقلع الأشجار وأن تحول البساتين إلى حقول و هذا ما بينته على سبيل المثال نقيشة هِنْشِير مَتِّيش. لقد تحولت مقاطعة إفريقيا الرومانية في عهد الأسرة اليُولْيُو-قلاوْدِية إلى مطمور كبير نَزَف قمحا كي تعيش عاصمة الإمبراطورية ، و تواصل تموين ثلثي حاجيات روما من القمح إلى نهاية القرن الثالث بعد المسيح، إلى أن سُخِّرت مصر لتموين القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية في الشرق، فأصبحت إفريقيا الممول الأول و احتياطي «البترول الأخضر» الوحيد. و تواصل هاجس القمح في الفترات اللاحقة و خلافا لما يُرَوّج في بعض الدراسات لم تتضرر مزارع الحبوب كثيرا نتيجة الهجرات المتتالية للبدو

1 - (*Annona*)

2 - (*horera*)

3 - (*Horera Caelia*)

الرحل سواء في الفترة الوَنْدالية أو زمن الأعراب خاصة بعد أن نجحت بعض المجموعات في الاستقرار و التأهل لتعاطي فلاحة الحبوب و يمكن أن نذكر هنا مثال قبائل «رياح»، كما تواصل تصدير الحبوب في العهد العثماني عندما ربط الأتراك علاقات تجارية مع أوروبا حتى إن بعض العلماء استغربوا تصدير الحبوب و الحال أن البلاد كانت في حاجة لذلك.

شجرة الزيتون

تحتل شجرة الزيتون المرتبة الثانية في هذا «المجمع» وهي التي كانت منتشرة في جزيرة قَرْقَنة[1] منذ القرن الخامس قبل المسيح حسب شهادة هيرودوت، لكن من غير المستبعد تواجدها لدى السكان الأصليين قبل أن يُطَوِّر الكنعانيون تقنيات غرسها التي جلبوها معهم من سوريا و فلسطين، و قبل أن يُعَمموا انتشارها في بلاد المُزَاق رغم استيرادهم للزيوت من صقلية. لكن شجرة الزيت ستشهد انتكاسة خطيرة عندما قرر «اسقِيبْيُون أَيْميلْيَانُوس» قلعها، و عندما تعرضت لسخرية الشاعر «يُوِينالِيُس»[2] الذي أنشد أبيات شعرية يهجو الزيت بالقول إنها لا تصلح لغير فوانيس إيطاليا[3]. لقد كان كبار منتجي الزيت في أسبانيا وراء هذه الدعاية المغرضة لأنهم كان يخافون من منافسة زيت إفريقية و هو ما يتعارض و سياسية أباطرة الرومان الذين سَنُّوا عديد القوانين لحماية هذه الشجرة و التشجيع على فتح مجالات جديدة لها، فاكتسحت مناطق في الشمال و الساحل و القصرين و الجنوب بكل من قَابُس و تِقْيُوس و تبُلْبُو و كتانية، و من بين هذه القوانين يمكن أن نذكر «قانون مانيقيا»[4] و «قانون هادريانوس»[5] الذي صدر في عهد الإمبراطور

1 - (*Ciranny*)

2 - (*Juvenalis*)

3 - أنظر , Lepelley (Cl), l'Afrique, *Rome et l'intégration de l'Empire*, Paris, 1977 p 89

4 - (*Lex Manciana*)

5 - (*Hadrianus Lex*)

وِسْبَازْيَانُوس[1] بين 69 و 79 حيث عثر على ثلاث نقائش، نقيشة أولى تعود إلى عهد «هادريانوس» (117-138) عثر عليها بعين جمالة شمال دقة، و نقيشة ثانية تعود إلى عهد «سَبتِيمْوس سِوِيرُوس»[2] عثر عليها بنفس الجهة بعين وسّال، و نقيشة ثالثة تعود إلى عهد «ترايانوس» بتاريخ (117-115) عثر عليها بِهِنْشِير متّيش. و في القرن الثاني تم تعويض الزراعات التقليدية بالزياتين و الأشجار المثمرة بوادي التين و في سهول الشمال الشرقي و في نفس الفترة كذلك تم تقليص حجم النشاط الرعوي بالقصرين لحساب الزياتين و معاصر الزيت. لقد أصبحت تجارة الزيت نتيجة هذه الإجراءات التجارة المربحة الأولى و مصدر الثروة و الرخاء فتفوقت على الزيوت الإسبانية منذ القرن الثاني بعد المسيح، هذا ما قد يفسر الازدهار الاقتصادي و العمراني في مقاطعة إفريقيا في فترة عرفت الإمبراطورية أزمة القرن الثالث بعد المسيح حيث أثبتت الحفريات الأثرية تواصل توسع مجال غابات الزيتون و الانتشار الكبير لمعاصر الزيت. كما تواصل تصدير الزيت في فترة الإمبراطورية المتأخرة و الفترة الوَنْدَالِية و ظل الزيتون في القرن الأول للهجرة رمزا للثروة عند العرب و ازدادت الغابات كثافة حتى إنها أصبحت تغطي مساحات شاسعة بالساحل في الفترة الأغلبية امتدت جنوبا إلى نحو مرحلة من قَابُس و غربا إلى بلاد قَمُّودة، و كانت صَفَاقُس «و سط ألذ غابة زيتون» حين بلغ رُسْتاق رصفه وحده ثلاثمائة و ستين معصرة للزيت في نهاية القرن الرابع للهجرة كما ظهرت مجالات غابية جديدة في ضواحي تونس، مقابل تقلص مساحة غابة السبَاسُب و قَمُّودَة؛ و في الفترة الحديثة قام المُورِسْكِيُون باحياء غابات الزيتون.

كما لم ينقطع تصدير الزيت في الفترة الوسيطة و الحديثة بل تواصل تصدير الزيوت نحو مصر وجِنْوَة و بِيزَا، على أن الخطر الذي كان يتهدد هذه الشجرة

1 - (*Vespasianus*)
2 - (*Severus Septimus*)

لم يكن البدو، بدليل أن بعض المصادر أشارت إلى تكليف الأعراب من قبل مالكي الزياتين بحراستها، بل إن الخطر الحقيقي الذي تسبب في انتكاسة الزيت الثانية هي تلك الجباية «الجائرة» و احتكار المخزن لتصديره و جعله من أهم الموارد الجبائية، فكان رد الفعل الفلاحين الصغار إما التهرب من دفعها أو ترك الغابة دون عناية. لقد عرفت شجرة الزيتون معاناة كبيرة لم تعرفها من قبل حين اشتد التعسف الجبائي بأن فرض البَاي ضريبة القانون و العشر، فثارت ثائرة الفلاحين و نقموا على كل شيء حتى إن ملاكي الزيتون بالوطن القبلي كانوا يُعوِزون للبدو بإحراق زياتينهم كي يتخلصوا من ضريبة القانون.

الكروم

قد يصعب ذكر شجرة الزيت دون ذكر الكروم فهما توأما البساتين المتوسطية خاصة و أن بساتين قَرْطَاج لم تشذ عن هذه القاعدة استنادا إلى ما ذكره «دِيُودُور الصِقلّي» أن قَرْطَاج في سنة 310 قبل المسيح كانت محفوفة ببساتين الكروم و الزيتون تسقيها العيون الجارية و قنوات الري و أنها زرعت كروما و زيتونا. قد تكون تقنيات غرس الكروم مستوردة من الشام لكن ما هو ثابت أن الرومان، و بعد سقوط قَرْطَاج، عملوا على المحافظة عليها و توسيع مجالها باستثمار أراض جديدة لها بالشمال و السبَاسب. و أود أن أشير هنا إلى ما يُردده العديد من الباحثين من أن الكروم شهدت انتكاسة مع دخول الإسلام إفريقية، إنّ هذا الطرح ينمّ عن الرغبة في طرح المشاكل بطريقة مغلوطة ، لأنّ الإسلام حرّم الخمر لكنه لم يُحرّم غرس الكروم، ثم إن تحريم الخمر في إفريقية كان سابقا للإسلام حيث أشار أفلاطون إلى أن القَرْطَاجيين منعوا على العسكر و العبيد و القضاة شرب الخمر، لذلك يبدو من غير الموضوعي الربط بين انحسار مجال الكروم و دخول الإسلام إفريقية. فمشكلة الكروم و الخمر تعود إلى التاريخ القديم خاصة إذا ما علمنا

أنّ الخمور القَرْطَاجية لم تكن من الخمور الممتازة في المتوسط حتى إنّ الرومان و اليونان كانوا منزعجين من رداءتها، فلم تكن مطلوبة كثيرا في الأسواق المتوسطية لأنها ممزوجة بالجير و الجِصّ، بل إنّ القَرْطَاجيين أنفسهم كانوا يحبذون خمور جزيرة رُودَس. و قد لا نبالغ إذا ما اعتبرنا أنّ انتعاشة الكروم كانت في الفترة الإسلامية حين تم إحياء بساتين بالمرسى و سكرة و قَمَرَت و العْوِينَة حيث ورد في بعض الوثائق أنّ عدد الكروم بلغ نصف مليون كرمة سنة 1880 انتشرت في قرى بنْزت بالمَتْلِين و رأس الجبل و رَفْرَاف و العَالية، و في منطقة الوطن القبلي، و في جزر الجنوب بقَرْقنة و جِربة و الواحات و قَفْصة.

النخيل

يحتل النخيل المرتبة الرابعة في هذا «المجمع الفلاحي» خاصة بعد أن نجحت هذه الشجرة في التعايش مع الزيت فكانت واحات بلاد الجريد و قَفْصَة الداخلية أكثر الواحات إنتاجا للتمر في الفترة الوسيطة في حين اشتهرت الواحات الساحلية و خاصة قَابُس بإنتاج التمر الرطب، و اختصت جِربة و قَابُس و تونس بتصدير التمر إلى بلدان ضفة المتوسط الشمالية، إلى كل من جِنْوة و بيزا و بَرْشَلُونة. تعايش النخيل مع شجرة الزيتون في الواحات[1]. و اختصت جربة و قابس و تونس بتصدير التمر إلى بلدان الضفة الجنوبية إلى كل من جنوة و بيزا و برشلونة[2]. كما تنتج النخلة نوعا من الشراب يعرف «باللاقمي».

الفواكه و البقول و الخضر

تتكون قائمة الأشجار المثمرة من التين و قد نستحضر صورة قاطون و هو يحاول إقناع السناتوس بضرورة القضاء على قرطاج و في يده تينها، على حسب ما ذكره، كما نجد ذكرا لهذه الشجرة في نقش هنشير متّيش. و ذكر

1 راجع كذلك Leveau (Ph), *op cit*, p 196

2 برشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 228

بلينيوس الصغير أن هذه الشجرة منتشرة في المنستير، كما أشارت المصادر الوسيطة إلى وجودها في واحات قفصة[1].

و ورد ذكر الرمان في المصادر اللاتينية تحت اسم التفاح البوني[2] أو الشجرة البونية[3] و كان منتشرا بكثرة في تونس و المنستير[4]. و كان اللوز منتشرا بمدينة جمونس[5] و الإجاص[6] و التفاح بواحات قفصة و الفستق بمدينة طراق بين قفصة و ماجن الفج بقمودة[7] و الخوخ و السفرجل و المشمش و اللوز و الليمون بواحات توزر[8] و الموز بواحات قابس و توزر[9] و فيما يتعلق بمنتجات السواني من الخضر و البقول فيمكن أن نذكر: الكرنب[10] و اللفت و الباذنجان و الجزر و الخس و الهندباء (التفاف في اللهجة التونسية) و البصل و الكُرَّاث و القثاء[11] (الفقوس في اللهجة التونسية) و الفول و الحمص بباجة[12] و العدس و اللوبياء و الجلبّان.

أما التوابل مثل البسباس و الأنسون[13] (حبة الحلاوة في اللهجة التونسية و هي كذلك الكمون الأبيض) و الكمون فنجدها بقفصة و تقيوس شمال توزر و الكزبرة (التابل في اللهجة التونسية) و الزعفران بسبيبة و الأربس. والكروية بتقيوس و سبيبة[14].

---

1 - عد إلى Lancel (S), *op cit*, p 298 وراجع كذلك Leveau (Ph), *op cit*, p 198 و عد كذلك إلى إدريس (روحي-هادي)، نفس المرجع، ح2، ص 77

2 - (*malum punicum*)

3 - (*arbor punica*)

4 - عد إلى Lancel (S), *op cit*, p 298 وراجع كذلك Leveau (Ph), *op cit*, p 198 و عد كذلك إلى برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ح2، ص 231

5 - عد إلى Leveau (Ph), *op.cit*, p 198 و عد كذلك إلى إدريس (روحي-هادي)، نفس المرجع، ح2، ص 31

6 - عد إلى Leveau (Ph), *op cit*, p 198 و عد كذلك إلى حسن (محمد)، نفس المرجع، ح1، ص 444

7 - راجع Leveau (Ph), *op cit*, p 198 و عد كذلك إلى إدريس (روحي-هادي)، نفس المرجع، ح2، ص 77

8 - برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ح2، ص 230 و التي بعدها

9 - إدريس (روحي-هادي)، نفس المرجع، ح2، ص 63 و 75

10 - أنظر Charles-Picard(G /C), *op cit*, 149

11 - حسن (محمد)، نفس المرجع، ح1، ص 447

12 - إدريس (روحي-هادي)، نفس المرجع، ح2، ص 41

13 - حسن (محمد)، نفس المرجع، ح1، ص 447

14 - إدريس (روحي-هادي)، نفس المرجع، ح2، ص 78-80

فلاحة الحيوان والصيد

لقد جرت العادة أن يقع الخلط في أغلب الدراسات بين الأنشطة الرعوية للبدو و تربية الماشية، و كثيرا ما كان يربط البعض بين تغلّب سمة البداوة على المجتمع الإفريقيّ في الفترة الوسيطة و تربية الماشية. و قد أذكر هنا أنّ توسع المراعي أو الزراعات الرعوية لا يعني بالضرورة استيلاء البدو على أحزمة المدن الزراعية بل هو استغلال للأراضي التي هجرها أصحابها أو تركها سكان القرى. قد يكون تعريف ابن وحشية أكثر دقة و الذي تحدث عن فلاحة الحيوان، فتربية الماشية هي من الأنشطة الفلاحية الأساسية و هي التي تلبي حاجيات المدينة من لحوم و حليب و جلود و صوف. و قد ساد نوع من «التناغم» بينها و بين البساتين و الجنان، و خير دليل على ذلك ما ذكره « دِيُودُور الصِقلّي» عند وصفه للمشهد الريفي القرطاجي حيث يبرز نوعا من التكامل بين الزراعة و الماشية و المراعي. لكن ينبغي التذكير أنّ هذه الوضعية لم تكن سائدة مع البدو في فترات تاريخية أخرى.

و تعتمد تربية الماشية على الإبل و الغنم من خرفان و الماعز و البقر و الخيول و هي الحيوانات التي توفر المأكل و الملبس، و هي كذلك من أهم وسائل الإنتاج و تعتمد في النقل و خدمة الأرض.

و أشير إلى أنّ عدم تربية الخنازير لم يكن مرتبطا بالإسلام لأنّ القرطاجيين قبل ذلك كانوا لا يربون هذا الحيوان. و من بين الأنشطة الريفية الأخرى يمكن أن نذكر الدواجن و الحمام، و النحل لإنتاج العسل، و هي من الأنشطة القديمة.

و يعتبر الصيد كذلك من الأنشطة الريفية، كالصيد في البراري و الغابات القريبة من المدن و القرى لذلك اعتنى الفلاحون بتربية كلاب الصيد، وخاصة كلب السلوقي، و كذلك كلاب الرعاة التي تحرس قطعان الماشية.

و فيما يتعلق بصيد الأسماك فهو يتبع كذلك الفلاحة و قد خصصت له

كتب الفلاحة عديد الأبواب. و عرفت قرطاج صيد التن و قد يكون ذلك في ميناء سيدي داود[1]. كما وردت عديد المعلومات عن الأسماك و طرق صيدها في إفريقية في المصادر العربية فقد ذكر الإدريسي طريقة الصيد في صفاقس، لكن أهم المعلومات هي تلك التي أوردها ابن حوقل و البكري و الإدريسي و حسن الوزان عن أسماك تونس و بنزرت و طرق صيدها. و أول هذه النصوص ما ذكره ابن حوقل (توفي بعد 367 هـ/ 977 م) في كتاب صورة الأرض و الذي زار أفريقية فقد ذكر أن :»(...) الحيتان بها و بتونس ما يزيد على الكثرة و لا يدانيه ما بطرابلس من الرخص و السعة. و لها واد عجيب يخرج فيه في كل شهر نوع من السمك، و إذا أهل الهلال لا نجد من ذلك النوع واحدة و يظهر غيره....»[2] . أما البكري (توفي 487 هـ/ 1094 م) فيقول عن أسماك تونس: «و بها من أجناس الحوت الذي لا يكون مثله في غيرها ما لا يحصى كثرة أجناس تجري في البحر مع شهور العجم في كل شهر من تلك الشهور يجري في جنس منه لا يوجد في البحر إلى دخول ذلك الشهر من العام القابل فهم في تجددها في لذة موصلة و نعمة غير مملولة و كل حسب منها يصير فيبقى السي صحيح الجرم طيب الطعم منه جنس يعرف بالعبانق جنس يعرف بالاكتوبري (شلبة) و جنس يعرف بالاشبارس وجنس يعرف بالمنكوس وجنس يعرف بالبقونس و من أمثالهم لولا البقونس لم يخالف أهل تونس»[3]، و عن بنزرت يقول :»(...) و على ساحل هذه القلاع بحيرة تنسب أيضا إلى بنزرت يدخل إليها ماء البحر الكبير فيوجد فيها في شهر ما من السنة صنف من الحوت لا يشبه غيره و لا يوجد هنا في غير ذلك الشهر»[4]. ويضيف:»(...) و في هذه البحيرة أعجوبة و هو أن الصياد فيه إذا أتاه التجار لشراء الحوت يقول لهم على أي شيء أرسل شبكتي فيتفق معهم على عدة

1 - (Missue)

2 - ابن حوقل (أبو القاسم)، صورة الأرض، بيروت، 1963، ص 75-76

3 - البكري ،نفس المصدر ، ص 41

4 - نفس المصدر، ص 58

معلومة فيأتي الصياد بحوت يقال أنه أنثى الصنف المعروف بالبوري فيرسلها في البحيرة ثم يتبعها بشبكته فيخرج العدة التي اتفقوا عليها لا يكاد يخطىء...[1]

أما الإدريسي فقد ذكر: «و هذه البحيرة من أعاجيب الدنيا و ذلك أنها بها اثني عشر نوعا من السمك يوجد منها في كل شهر نوع واحد لا يمتزج بغيره من أصناف السمك فإذا تم الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر الآتي ثم يوجد...و هذه الاثنا عشر نوع من الحوت التي ذكرناها هي البوري و القاجوج و المحل و الطلنط و الاشبلينيات و الشلبة و القاروض و اللاج و الجوجة و الكحلاء و الطنفلو و القلا».[2]

لقد تضمنت هذه القائمة أسماء غير معروفة اليوم و أسماء ما تزال تستعمل إلى يومنا هذا في البلاد التونسية: البوري[3] و الشلبة[4] و القاروص[5] والكحلاء[6] وأخرى أعجمية: القاجوج[7] و المحل[8] و الاشبلينيات[9] و اللاج[10] و الجوجة[11] و الطلنط و الطنفلو و القل. و يذكر حسن الوزان (توفي 960 هـ/ 1552م) أن هذه البحيرة: «و هي صغيرة يسكنها قوم فقراء و يدخل البحر قرب المدينة داخل الأراضي من حلق ضيق قصير، يتسع جنوبا إلى أن يكون شبه بحيرة كبيرة تحيط بها مداشر عديدة لصيادي السمك و الفلاحين، إذا يمتد غربها سهل عظيم يسمى سهل ماطر...و يصاد من البحيرة كمية وافرة من

---

1 – نفس المصدر

2 – الإدريسي (أو عبد الله)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي، منشورات المعهد الشرقي الإيطالي، 1970-1982، ص

3 – هو بالفرنسية mulet و الاسم العلمي هو *Mugil cephalus*

4 – هو بالفرنسية saupe و بالإيطالية salpa و الاسم العلمي هو *box salpa*

5 – هو بالفرنسية « loup » و باللاتينية « lupus » و الاسم العلمي هو *labrax lupus*

6 – هو بالفرنسية Oblade و الاسم العلمي هو *Oblata melanura*

7 – أنظر Dozy (R), *Supplément aux dictionnaires arabes*, Beyrouth, 1981, p

8 – هو بالفرنسية Muge doré الاسم العلمي هو *Mugil auratus*

9 – هو بالفرنسية Alose و الاسم العلمي هو *Clupea sardina*

10 – هو بالفرنسية « maigre » من فصيلة *Sciénoidés* عد إلى نفس Gateau (A)Les poissons du lac de Bizerte, *Bulletin des études arabes*, Alger, 1942, pp 99-101, p 101

11 – هو بالفرنسية Trigle hirondelle و الاسم العلمي هو *Trigla hirundo*

السمك، خصوصا سمك المرجان الكبير الذي يزن من خمسة إلى ستتة أرطال. و عند انتهاء شهر أكتوبر يصطادون نوعا من السمك يسميه الأفارقة زرافة، و أظن أنه هو الذي يحمل اسم لاتشيا في روما. ذلك لأن ماء البحيرة يعود أكثر عذوبة عندما ينزل المطر، فيدخل إذا ذاك السمك إليها، بالإضافة إلى أن البحيرة قليلة العمق. و يستمر الصيد حتى أوائل ماي، ثم يهاجر السمك، كما يهاجر السمك الذي يصاد في النهر الجاري بقرب فاس.»[1] و يبدو أن حسن الوزان كان يتحدث هنا عن قرعة إشكل و ليس بحيرة بنزرت و يتجلى ذلك في محاولة تفسيره وجود هذه الأسماك بربط ذلك ببحث الأسماك عن المياه العذبة و التي توجد في قرعة إشكل.

1 - كانت النص الفرسي أكثرة دقة من الترجمة العربية أنظر Léon L'Africain, *Description de l'Afrique*, trad M Hadj-Sadok, Paris, 1980, p 376 *"On prend dans le lac une grande quantité de poissons, surtout de grosses dorades qui pèsent de cinq à six livres (2 kg à 2 5 kg) Le mois d'octobre passé, on prend une sorte de poisson que les Africains nomment girafa , je pense que c'est celui qui porte à Rome le nom de Laccia (Alose) Cela parce qu'avec les pluies l'eau du lac devient plus douce . le poisson entre alors dans le lac , de plus le lac n'est pas très profond La pêche dure jusqu'au début de mai, "puis le poisson émigre, comme le fait celui qu'on pêche dans le fleuve qui près de Fez*

غذاء الأهالي

قد تختلف مائدة الحضري عن مائدة الريفي بسبب اختلاف نمط العيش بين المدينة و الرّيف، لكن السمة المشتركة بينهما قد تكون في حبِّهما لما تُنتِجُه بلادهم من قمح و شعير و زيتون و خضر و فواكه و ما توفره من لحوم و أسماك، و كذلك في ارتباط هذه المائدة بالسنة الشمسية التي تضبط مواقيت المحاصيل الزراعية و السنة القمرية مواقيت الأعياد و المناسبات الدينية. و ما يُمَيِّز هذه المائدة عدم غياب الخبز البتة، و الخبز أصناف في البلاد التونسية: خبز الفطير و خبز الشعير و الجَرْدَقة و خبز التَّنُّور؛ و الكُسْكسي الذي هو طعام أهل الرّيف منذ الحقبة القرطاجية استنادا إلى وصف قدَّمه قاطون في «كتاب الفلاحة»، و يصنع هذا الطعام من السميد المطبوخ بالبخار، يسقى بالحليب أو بالمرق، قد يضاف إليه لحم الضان و المعز و البقول في بعض الولائم و الأعياد و الأعراس. نجد بعد الكُسْكسي الثريد، مثل ثريد الشعير المسمى لبازين، يطبخ بلحم الضأن في بعض المناسبات؛ و نجد ثريد القمح المطبوخ مع البقول و البيض و الزبدة؛ و البرغل الذي يعرف كذلك بهريسة القمح؛ و العصيدة المصنوعة من دقيق الحنطة و الزبدة و العسل، و الرِّفِيس أو الرِّفِيسَة و هو طعام مصنوع من دقيق الحنطة و التمر و بعض التوابل. أما أكل اللحم فيقتصر في غالب الأحيان على موائد الأعياد و الأعراس.

الخبز

خبز الفطير، و خبز الشعير، و الجردقة[1]، و خبز التنور و يعرف بخبز «الطابونة».

الطعام

- الكسكسي و يعتبر الغذاء الأكثر انتشارا بإفريقية، و قد ذكر قاطون في كتاب الفلاحة طعاما في الفترة القرطاجية قد يكون لعب دور الكسكسي[2]. و الكسكسي طعام مصنوع من السميد المطبوخ بالبخار، يسقى إما بالحليب أو بالمرق قد يضاف إليه لحم الضان و المعز و البقول في بعض الولائم و الأعياد و الأعراس[3].

- الثريد مثل ثريد الشعير المسمى البازين و قد يطبخ في بعض المناسبات بلحم الضأن، و ثريد القمح يطبخ مع البقول و البيض و الزبدة[4]. و قد جاء في كتاب الطبيخ في المغرب و الأندلس في عصر الموحدين لمؤلف مجهول طريقة صنع ثريد يقول إن أهل إفريقية يسمّونه بالفطير : « و هو من أجلّ أطعمتهم، هذا الفطير يعمل عندهم بالدجاج السمان، و منهم من يعمله بلحم الغنم السمين، يؤخذ ما حضر منهما منظفة مقطعة، و تجعل في قدر بملح و بصلة و فلفل وكزبرة يابسة و زيت، و تطبخ حتى تنضج، ثم يرفع ثم ينشأ فتات فطير قد أعد من رغف رقاق محكمة الصنعة مورقة مطبوخة في الطاجن بالخمير، و تعاود القصعة بالسقي حتى تأخذ حقها، ثم يصفق عليها لحم ذلك الدجاج بعد ما يقلى في مقلاة بزيت عذب أو بزبد طري، و تنجمّ بمحاح البيض و زيتون و لوز مقسوم، و يذر عليها قرفة، و تقدم». و هذا الطعام هو الطاجين المعروف اليوم بتونس بأصناف مختلفة. كما قدم صفة نوع آخر من الثريد فقال

---

1 - برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 284

2 - (Puls punica) عد إلى Leveau (Ph), *op cit*, p 149

3 - برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 283

4 - حسن (محمد)، نفس المرجع، ج2، ص 804

: « يؤخذ من السميد الطيب الجلال، و يقسم على ثلاثة أثلاث، يترك الثلث منها بناحية، و يعجن الثلثان عجنا جيدا، و يصنع منه أو تمد رقاق و تدهن، و يذر عليها من ذلك السميد الباقي، و يطوى عليه وتلف، ثم تمد ثانية، و تدهن، و يذر عليها السميد و تطوى مثل المورقة، يفعل بها ذلك مرات حتى يفرغ الثلث الباقي من السميد، ثم تدخل الفرن و تترك لتعقد، و تخرج رطبة، و لا يبالغ، و إن شئت طبخت الرغائف في الدار في طاجن، ثم يفتت، و يصنع منها ثريد مثل الفطير إما باللبن الحليب مثل ثريد اللبن، فيؤكل بالزبد و السكر، أو في مرق الدجاج أو غيره من اللحم، و يجعل عليه من اللحم المقلي و الدسم الكثير، و يذر عليه قرفة و يقدم»[1].

- البرغل و يعرف كذلك بهريسة القمح[2].
- العصيدة المصنوعة من دقيق الحنطة و الزبدة و العسل.
- الرفيس أو الرفيسة و هو طعام مصنوع من دقيق الحنطة و التمر و بعض التوابل[3].
- البرقوقش[4].
- الدويداء[5].

اللحوم و السمك

ذكرنا أنّ أكل اللحم كان خاصة في المواسم و الأعياد و الأعراس. و قد يؤكل لحم الضان أو الماعز أو غيرها يطبخ بالبصل و الثوم و الملح و الكرنب و الكركم[6]. و كان سكان السواحل يستهلكون الأسماك، فقد ذكر البكري كيف كان السكان يحبذون سمك البوري بالقول: « وجنس يعرف بالبقونس

1 - مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب و الأندلس في عصر الموحدين، تحقيق أمبروريو أويثي ميراندا، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان التاسع و العاشر، مدريد 1961-1962، ص 15-242، ص 183

2 - حسن (محمد)، نفس المرجع، ج2، ص 800

3 - برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 283

4 - حسن (محمد)، نفس المرجع، ج2، ص 804

5 - برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 284

6 - حسن (محمد)، نفس المرجع، ج2، ص 801

و من أمثالهم لولا البقونس لم يخالف أهل تونس[1].

الأشربة

كان أهل الحضر يشربون النبيذ المصنوع من الزبيب في حين أنّ أهل الجنوب يشربون نبيذ النخيل المعروف باسم « اللاقمي»[2]. و ما قد يثير الاستغراب أنّ أهل المدن الكبرى كانوا يشربون الخمر المستورد[3]، لكن قد يكون من المفيد هنا التذكير أنّ الخمور التونسية لم تكن الخمور المحبذة و هو ما أشرنا إليه في حديثنا عن الخمر في قرطاج.

الفواكه و المعجونات و الحلويات

لا تخلو المائدة من فواكه كالتين و الرمان و التفاح و الموز، لكنها تبقى أكلات موسمية ثانوية. و فيما يتعلق بالحلويات نجد الزلابية و الكعك[4]. و كان يصنع من السفرجل المعجون فقد جاء في كتاب الطبيخ:» يؤخذ من السفرجل المنقّى من حبّه المقطّع قطعا صغارا رطلان و يدقّ دقّا جيدا حتى يصير كالدباغ، و يطبخ في ثلاثة أرطال من العسل المنزوع الرغوة، حتى يأتي في قوام المعاجين، و يستعمل أيضا على صفة أخرى و هو أبدع: يؤخذ كما ذكر و يطبخ في الماء وحده حتى تخرج قوته، و يصفى ذلك الماء من ثفله، و يضاف إلى مثله من السكر، فيأتي لطيفا شفافا ليس له كمية، و فعله باقي على حاله». كما أورد صفة صنعة المعسل المستعمل بتونس في الولائم :» يؤخذ من العسل المصفّى، و يصب عليه من النشا المحلول المصبوغ بالزعفران للرطل من العسل نصف رطل من النشا، و إن لم يحضر النشا فمن الدرمك المحلول على تلك الصفة، و يصب عليه من الزيت ما يكفيه و يدام تحريكه حتى ينشع الزيت منه و يضاف إليه فلفل و قرفة و يسير كافور فيستعمل»[5].

1 – البكري، نفس المصدر، ص 41
2 – برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 287
3 – نفس المرجع، ص 288
4 – برانشفيك (روبار)، نفس المرجع، ج2، ص 284
5 – مؤلف مجهول، كتاب الطبيخ ، ص 249

الفصل الرابع

وصايا في الفلاحة

مَاجُون و تدبير الأرياف

هل تحتاج الزراعة إلى تأليف؟ قد يكون هذا السؤال طرحه الحكماء منذ أن حاولوا فك رموز معادلة المعاش و الكسب و العلوم. لكن قد يكونوا اكتفوا في بداية الأمر بالتلميح لذلك في بعض النصوص، و كان ذلك في باب الحديث عن التدبير و الطبيعيات. لكن سرعان ما أصبح فن التدبير وفن النبات غير قادِرَيْن على استيعاب الكلام في الزّراعة، فأصبح الكلام في الفلاحة فنا مستقلا بذاته، أحيانا في كتابة الاقتصاد الريفي وفي الفلاحة في أحيانا أخرى. وقد يكون ابن خلدون[1] أفضل حكيم لخص هذا التطور، حين درس في المقدمة تطور هذا الفن. فقد بيّن كيف انتقلت الفلاحة من نشاط معاشي قديم و موروث، و من صناعة بدائية إلى صناعة متطورة، و من ثمة إلى علم. ففي الباب الخامس من الكتاب الأول، و الذي خصصه للمعاش و وجوه الكسب و الصنائع و ما يعرض في ذلك كله من الأحوال، يقول ابن خلدون في الفصل الثامن، و الذي عنونه في أن الفلاحة من معاش المستضعفين و أهل 'لعافية من البدو: «و ذلك أنه أصيل في الطبيعة و بسيط في منحاه. ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب، و لا من المترفين[2]».
ثم أضاف في الفصل الرابع و العشرين في باب الكلام عن صناعة الفلاحة:» هذه الصناعة ثمراتها اتخاذ الأقوات و الحبوب، بالقيام على إثارة الأرض لها

---

1 – اشتهر اس حلدون بالحصوص بالمُقَدمة، لكنها لم تكن سوى مقدمة كتاب التاريح الذي حمل عنوان كتاب العبر

2 – اس حلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، بيروت، 1992، ص 420

و ازدراعها، و علاج نباتها، و تعهده بالسقي و التنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله و استخراج حبّه من غلافه و إحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه، و دواعيه. و هي أقدم الصنائع لأنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا.[1]» و انتقلت الفلاحة، في النظرية الخلدونية، من مهنة ريفية إلى فن، فعلم مستقل عن العلوم الطبيعية الأخرى. فقد ذكر في الفصل السادس و العشرين من الباب السادس أن: «هذه الصناعة من فروع الطبيعيات، و هي النظر في النبات من حيث تنميته و نشؤه بالسقي و العلاج و استجادة المنبت و صلاحية الفصل و تعاهده بها يصلحه و يتمه من ذلك كله. و كان للمتقدمين بها عناية كثيرة، و كان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه و تنميته...و كتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة، و لا يعدون فيها الكلام في الغراس و العلاج و حفظ النبات من حوائجه و عوائقه، و ما يعرض في ذلك كله و هي موجودة[2]». بل و تفطن هذا العلامة إلى الدور الخطير للعلوم الزراعية في ضمان الاستقلال، و اعطى مثالا على ذلك كيف نجح المسلمون في الصمود في غرناطة و التصدي لحركة الاسترداد. فقد ذكر في الباب الرابع، و الذي عنونه البلدان و الأمصار و سائر العمران و ما يعرض في ذلك من الأحوال، و في معرض حديثه في الفصل الثاني عشر عن أسعار المدن أنه: «... قد تدخل أيضا في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح، و يحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالأندلس لهذا العهد. و ذلك أنهم لما ألجأَهُم النَّصارى إلى سَيف البحر و بلاده المُتوعِرَة الخبيثة الزَّارعة النَّكدة النبات، و ملكوا عَلَيهم الأرض الزَّاكية و البلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع و الفُدُن لإصلاح نباتها و فَلْحِها، و كان ذلك العلاج بأعمال ذات قِيَم و مواد من الزِبْل و غيره لها مؤُنة و صارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم. و اخْتُصَّ

1 – نفس المصدر، ص 432

2 – نفس المصدر، ص 548

قُطر الأندلس بالغَلاء منذ اضطَرَّهم النصارى إلى هذا المَعْمُور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك و يَحْسِبُ إذا سمعوا بغلاء الأسعار في قطرهم أنها لقلة الأقوات و الحبوب في أرضهم و ليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فَلْحًا فيما علمناه و أقومهم عليه[1]». لقد حاول ابن خلدون أن يبين قيمة الفلاحة، أقدم وجوه المعاش، و دوره لا في كسب الإنسان قوته فحسب بل في تماسك كل الأصناف المعاشية الأخرى. ولئن كانت الفلاحة هي العنصر الحيوي الأول لدى أهل الرّيف فإنها أساسية أيضا لضمان الحضر.

قد يكون ابن خلدون عَبَّر، و بعد مرور الأزمان، عما قد يكون اختلج في نفس مواطنه مَاجُون و ما قد يكون دونه في موسوعته الفلاحية. و لئن لم يَبْقَ منها سوى بعض الشذرات المتناثرة في كتب الفِلاَحَة الرُّومَانِيَة، عند «وَارُّون»[2] و «قَوُلُومَلاّ»[3] و «بَالاَدْيُوس»[4]، والمؤلفات اليونانية-البيزنطية، فإن وصفه بأب الاقتصاد الريفي قد يدفعنا إلى القول بأنّ مَاجون كان أول من تفطن إلى أهمية الفلاحة في تدبير شؤون البلاد، و أنّ تطوير هذا النشاط عبر وضع علوم زراعية هو السبيل لحماية قرطاج من أطماع روما. لكن كيف وصلت إلينا مقاطع مَاجون في الفلاحة.

اليونانيون و الرومان

اعتاد المختصون في تاريخ العلوم، تقسيم تطور علم الفلاحة في القديم إلى حقبتين رئيستين: حقبة يُونَانِية و أخرى رُومانية. أما ما يتعلق بالحقبة الأولى، و رغم أنّ الوسط الطبيعي في بلاد الإغريق لم يكن يشجع على تعاطي النشاط الفلاحي، فإنّ ذلك لم يمنع من ظهور أولى النصوص الزراعية. لكن يتضح أنّ تأثير المدرسة الكَنْعانية و خاصة المصرية كان كبيرا. فلقد كانت الفلاحة

---

1 - نفس المصدر، ص 388
2 - (*Varron*)
3 - (*Columelle*)
4 - (*Palladius*)

حاضرة في أرجوزة «أَزْيُدُس» بعنوان الأعمال والأيام، وبالأرجوزة فتح المجال للتفكير في هذا الفن، ليبلغ عدد المؤلفين فيه الخمسين. و من أبرز علماء هذه الفترة يمكن أن نذكر: «اكزَنفُن» الذي ألف «الأُيكُنُمِخُس». أرِسْطُوطَالِيس و كتاب التدبير. «ثِيُفْرَاسْتُس» و كتاب علل النبات، و تاريخ النبات. دِيمُقْرَاطِيس و كتاب «الغَيْرغِكُس». و «بُولس المَنْدَاسِي»، الذي عاش في مصر في القرن الثاني قبل المسيح. ثم انتقل فن الفلاحة من الحوض الشرقي إلى الحوض الغربي، فظهرت أبرز المؤلفات في علم الفلاحة. حيث ألف «قاطون» أقدم المؤلفات النثرية اللاتينية كتاب الفِلاَحَة، الكتاب الوحيد الذي وصلنا من هذا المُؤَلِف كاملا، و الذي ورد في شكل ملاحظات ميدانية وإرشادات[1].
و ألف «وَارُّون» كتاب تدبير الأرياف اعتمد فيه على مصادر يونانية و أخرى لاتينية، من ثلاثة أجزاء تطرق فيها إلى مختلف الأعمال الزِرَاعِيَّة. و ألف وِرْجِيلْيُوس «الغَيْرغِيكُس» سنة 37 قبل المسيح[2] أرجوزة قسمها إلى سفرين، كل سفر ينقسم إلى جزأين، كان الحديث في الجزء الأول من السفر الأول عن القمح والشعير والفول والبقول والبذور، وخصص الجزء الثاني للحديث عن الغراسات الثابتة مثل الكروم والزيتون. أما السفر الثاني فقد تكلم فيه عن فِلاَحَة الحيوان في الجزء الأول، والطيور مثل الحمام والدجاج وغيرها من الطيور، والنحل في الجزء الثاني. و في القرن الأول بعد المسيح ألف «قَوُلُومَلاّ» كتاب تدبير الأرياف وكتاب الشجر، حاول من خلالهما تقديم حلول للأزمة التي أصابت الأرياف الرُّومَانِيَة. و تطرق «بلينيُوس الصغير» في موسوعة التاريخ الطبيعي إلى هذه الصناعة. و ألف بَالاَدْيُوس في القرن الرابع بعد المسيح رُوزْنَامَه جمع فيها مادة متنوعة استقاها من عديد المصادر اليُونَانِية واللاتينية، وخاصة من كتاب «قَوُلُومَلاّ»، محاولا تفهّم ما يريده المُزَارع من إرشادات ميدانية وعملية. وفُقد الكثير من الكتب كتلك التي ألّفها كل من

1 – نفس المرجع، ص 81
2 – عد إلى Virgile, p 5

«سَاسَارْنا» و «ترَمَلْيُوس سكرُوفَا» و «دِيُفَانُوس» و«فلَرَانْطِينُس» و«يُولْيُوس أفْرِيقَانُس» و«الكوَانطِيلِيُن» و«يُولْيُوس فرُونْطِينُس وأَبُولَيُوس». غير أنّ أهمّ ما فُقد في هذه المكتبة المتوسطية موسوعة مَاجُون، عالم قرطاج الأول، الذي كانت له مكانة كبيرة لدى أغلب علماء الفلاحة الرومان.

مَاجون و الرّومان

طالـب مجلس الشيوخ في رُومَا، بُعيد تدمير قرطاج سنة 146 قبل المسيح، بترجمة موسوعة مَاجُون الفلاحية، التي أصبحت من أهم مصـادر علم الفـلاَحَة الروماني. فقد سعت الإمبراطورية الصاعدة إلى ترجمة هذه الموسوعة عندَما أمرت لجنة سِنَاتُورية تحت إشراف «دَقِيَانُوس سِلاَنُوس» بذلك. و قد كان هذا المؤلف الضخم عند ترجمته يتكون من ثمانية و عشرين كتابا، ترجمها «كَسْيوس دَنِيس الأُوتِيقِي» بعد ذلك إلى اليُونَانِية، لكنه اختصرها من ثمانية و عشرين إلى عشرين كتابا ، وكان ذلك سنة 88 قبل المسيح. وتواصلت عملية النقل و التَعْدِيل عندما اختصر «دِيُوفَانُوس البِيثِيني» ترجمة «كَسْيوس دَنِيس الأُوتِيقِي»، فأصبحت موسوعة مَاجُون تتكون من ستة كتب، وكان ذلك سنة 64 قبل المسيح[1] . و تحدثت المصادر عن ترجمة يونانية ثالثة قد يكون أنجزها «بُلّيُن دى ترُلّس»[2].

لقد اختلف القدامى في تقييم هذه الموسوعة، فمن منبهر بما ألفه مَاجُون إلى مستنقص له. لكن ينبغي هنا أن أنبّه إلى أنّ اختلاف الآراء حول موسوعة عالم قرطاج. تزامنت مع تضارب المواقف حول مكانة الفلاحة في الاقتصاد البوني. فقد كان الاعتقاد السائد أن التجارة البحرية هي النشاط الاقتصادي الأوحد، حتى إن «قيقرُون» كان يعيب على البُونِيين عدم اهتمامهم بالفلاحة[3]، و هذا ما يتعارض مع ما ذكره «دِيُودُور الصِقلّي» عن خصوصيات المشهد الريفي

1 – نفس المرجع، ص 44
2 – (*Pollıon de Trollεs*)
3 – انظر Cıceron, *De republıca,* II, 4, 7

القرطاجي[1]. أما فيما يتعلق بالآراء حول القيمة العلمية لمؤلف مَاجُون، فقد نحصرها في توجهين اثنين: موقف «قَوُلُومَلاّ» الذي اعتبر مَاجُون البُونِي «أب الاقتصاد الريفي»، وهو الذي نجح بدوره في وضع أهم موسوعة فلاحية في التاريخ القديم[2]. و خالف بذلك رأي «وَارُّون»، الذي قلل من أهمية ما كتبه مَاجُون[3]. وازدادت إشكالية موسوعة ماجون تعقيدا في الدراسات الحديثة، و تناولها بالدرس كبار المختصين في التاريخ القديم، خاصة «رُنِي مَارْتان» و«جاك هورغون». فلئن حاول «رُنِي مَارتان» استغلال ما تبقى من مقاطع موسوعة مَاجُون لدراسة الفلاحة البونية، فإن «جاك هورغون» عمل على حل إشكالية لطالما حيّرت الباحثين، لماذا سارع الرومان إلى ترجمة تلك الموسوعة فور تدمير قرطاج؟ فبين «جاك هورغون» بعد أن درس تلك المقاطع، أهمية هذه الموسوعة بالنسبة إلى الاستعمار الزراعي الروماني، حين شبهها بالكتاب المقدس. أما في الآونة الأخيرة فقد ظهرت دراسة، أقل قيمة علمية، حاول فيها أصحابها التقليل من أهمية هذه الموسوعة بالتركيز على الأسباب التي دفعت المترجمين إلى تعديل و اختصار ما ورد في النص الأصلي، فكانت مجرد «عملية استعراضية» تفتقر إلى ركائز متينة.

لقد نبه «جاك هورغون» إلى هلّينِيَة ما كتبه مَاجُون، الذي من المرجح أن يكون عاش خلال الحربين بين قرطاج و روما. لكن هذا الرأي لا يمكن أن ينقص بحال من الأحوال من قيمة الشهادة التي قدمها «قَوُلُومَلاّ». لذلك فإنه يبقى من المجدي عدم إغفال الأسباب الأخرى التي قد تكون دفعت بروما إلى الترجمة رغم وجود كتاب «قاطون». لعل من بين هذه الدوافع رغبة هذه الإمبراطورية في التعرف على أرياف قرطاج قصد إنجاح استعمارها الزراعي.

1 – عد إلى Martin (R.), *Recherches sur les agronomes latins et leurs conceptions économiques et sociales*, Paris, 1971, p40

2 – عد إلى Columelle, *De l'agriculture*, Dans Les agronomes latins, M. NISARD, Paris, 1874, I, 1, 13

3 – عد إلى Varron, *Économie rurale*, trad. HEURGON (J.), Paris, 1978. I, 1, 10

و أعود مجددا إلى ما كنت قد بدأت به، عن علاقة مَاجُون بابن خلدون، فقد أمرت فرنسا نقل كتاب ابن خلدون إلى الفرنسية، لأنها كانت تبحث قبل كل شيء عما يُعَرِّفها بذهنيّات شعوب المغرب العربي، و قد لا تجد أفضل من ابن خلدون، كما وجدت روما ذلك في شخص مَاجُون.

و مهما يكن من أمر فإن المكتبة الفلاحية الرومانية احتوت على أهم المقاطع المنسوبة إلى مَاجُون، في كتابات كل من «وَارُّون» و «وِرْجِيلْيُوس» و»قَوُلُومَلا» و»بلِينيوس» و»بَالاَدْيُوس».

ماجون و الروم

بعد «بالاَدْيُوس» عاد علم الفلاحة من جديد إلى الحوض الشرقي. فقد اهتم أفْرِيقانُس، الذي عاش بالرها في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث بعد المسيح، بالفلاحة من جهة خواصه، وقد يكون تأثر بدِيمُقْرَاطِيس المنداسي رئيس مذهب "الفُوزِيقا». و ألف «فلُرَنطِينُس»، الذي عاش في القرن الثالث بعد المسيح كتابا في الفِلاَحَة حمل عنوان «الغَيُرْغِيكُس» ، و ألف «دِيدِمُس الإسكندراني»، الذي عاش في القرن الخامس بعد المسيح، «الغَيُرْغِيكُس». لكن يبقى «كَسْيَنُوس بَاسُوس سخُلاَسْتِيكُس»، أهم من ألف في الفلاحة في الفترة البيزنطية الأولى، و هو الذي استهوته الزّراعة فوضع كتابا في هذا الغرض أهداه إلى ابنه «بَاسُوس»[1]. حمل كتابه عنوان الغَيُرْغِيكُس، انتهج فيه أسلوبا إرشاديا غير مُعَقَّدٍ، فورد الكتاب في شكل مُنْتَخب في الفِلاَحَة، جمع فيه كل ما وجده في كتب «فلُرَنطِينُس» و «دِيدِمُس» و «أُوَانْدَانْيُس أَنَاطُلْيُس البَيْرُوتِي»[2]. وظهر في القرن العاشر بعد المسيح مُنْتَخب في الفِلاَحَة بعنوان «الغَيُبُنِيكُس»، يعود تجميعها إلى الفترة الواقعة ما بين 333 و 348 للهجرة

1 – راجع ديباجة الجزء الثامن

- Cassianus Bassus Scholasticus, *Geoponicorum sive de re rustica libri XX*, Lipsiae, 1895

2 – الطر بلسي (نوراوي)، نشأة علم الفلاحة العربي، تونس، 2005، ص 114

/ 944 و959 بعد المسيح[1].و تتكون «الغَيُبُنِيكُس» من عشرين جزءا، كل جزء حمل رقما وديباجة احتوت على عناوين الأبواب، وردت في شكل مقاطع في الفِلاَحَة، حرص واضع الكتاب على ذكر أصحابها من علماء الفِلاَحَة. و من غير المستبعد أن يكون قُسْطَنْطِين السابع كلف أحد أعوانه بتجميع مادة الكتاب من المؤلفات الرئيسية الثلاث: «دِيدِمُس» و «أُوَانْدَانْيُس أَنَاطُلْيُس البَيْرُوتِي»[2]، «كَسْيَنُوس بَاسُوس»، ليبلغ عدد المصادر ثلاثة وثلاثين لعل أبرزهم: «كزَنُفُن» وأفْلاَطُون وأرِسْطُوطَالِيس و»ثِيُفْرَاسْتُس» و»وَارُّون» و»بُولْس المُنْدَاسِي» و»أَفْرِيقَانُس» و»فلُرَانْطِينُس» و»ديديمُس» و»أنَاطُلُيُس البيروتي» و»كَسْيَنُوس بَاسُوس». و من بين من نقل عنهم نجد «دِيُوفان البيثِيني»، مترجم موسوعة العالم القرطاجي إلى اليونانية. و رغم أنها مقاطع عرفت رحلة طويلة عبر الزمن و المكان، فتبدلت مضمونا و شكلا، فإن ذلك لا يشكك في نسبتها كمقاطع في الفلاحة إلى العالم القرطاجي ماجُون.

---

1 – نفس المرجع، ص 119

2 – انظر Lemerle (P), *Le premier humanisme byzantin*, Paris, 1971, p 290, p 291

مَاجُون من خلال مقاطع رومانية وبيزنطية

ضَرُورَة تَعَاهُد صَاحِب الضَيْعَة لها.

قال الشّاعِرُ: إذا رَغِبْتُم في شِرَاء ضَيْعَة شاسِعة فاحرص ألاَّ تزرع إلا قسما صغيرا منها. لئلا تصعب على زُرَّاعها خِدمتها[1]. قال مَاجُون: ينبغي بيع منزلك الذي هو في المدينة إذا ما اشتريت أرضا[2].

متى يَكون الزّرع

يرى ناس أن لا تَزْرَع عند نُقصان القَمَر، بل يكون الزّرع عند كماله. و آخرون يَرَوْن الزّرع من الليلة الرّابعة إلى الثّامنة عشر. و يستحب ناس من الزُرَّاع أن يكون في بداية الشهر. وآخرون يخشون الزّرع كلّه من الليلة العاشرة إلى العشرين، لئلا يؤثر ضوء القمر على خصب الزّرع. لكن من الحكمة أن يكون الزّرع عندما يكون القمر تحت الأرض و يكون قَطْع الشجر للبناء عندما يكون القمر فوق الأرض[3].

1 - انظر Columelle, I, 3

2 - انظر Plıne l'Ancıen, Hıstoıre *Naturelle*, texte établı, traduıt et commenté par Henrı Le Bonnıec, (J), Parıs, 1972, XVIII, 35

3 - انظر Géoponıka, I, 6

طحن الحبوب المفتاتة

قال مَاجُون: ينبغي أن يُغْسَل البُرّ[1] بكثير من الماء لإزالة قشره، ثم يترك لحرّ الشمس بعد ذلك يطحن. و طحن الشّعير كطحن البُرّ. يقول مَاجُون: ينبغي غسل عشرون سُتيِّة شَعِير بِسُّتيتَيْن ماء. أما العَدَسْ فينبغي قبل كل شيء وضعه على النّار و طحنه بعد ذلك بِرِفْق، لكلّ عشرين سُتيِّة عَدَس قطعة آجر غير مطبوخة و نصف صاع من رمل. أما السِّمْسِم[2] فَيُنْقَع في ماء ساخن ثم يُفْرَك و يُغْمَس في ماء بارد ليطفو تبنه، ثم يُفْرَش لحرّ الشّمس فوق خرق من قماش. و إذا لم يسرع عند عمل ذلك فإن لونه يصبح أملج فَيْعْفُن[3].

أوان غرس الكَرْم

ينبغي أن تستقبل الكروم ريح الشَّمَال ليكثر نزلها[4].

حفرة الغرس

قال مَاجُون: لا ينبغي أن يكون ردم حفرة أصل الغرس كاملا في عامها الأول، بل يكون ملأ الحفرة تدريجيا و ذلك لترسخ العروق[5].

كيف يغرس الكَرْم

قال مَاجُون: ينبغي لغارس الكَرْم أن يجعل بين عروق الغرس، عند تحويلها، الحجر لأنه يقيها ضرر الماء في الشّتاء و الحرّ في الصيف. و يقول مَاجُون: يجعل ثُفَل ما بقي من فضول العنب مع شيء من سرجين لأن الثُفَل يشدّ عروق الكَرْم، و السَرْجِين يُدَفِّيها في الشّتاء البارد و الرّطب و يُغَذِّيها في

1 - هو القَمْح
2 - هو الجُلْجُلان
3 - انظر Plıne l'Ancıen, XVIII, 97-98
4 - انظر Columelle, III, 12
5 - انظر Palladıus, *De l'économıe rurale*, trad CABARET-DUPATY (M), Parıs, 1844, III, 10, Columelle, V, 5

الصّيف ويُسَكِّن الحَرَارة[1].

أوان قطع الكُرُوم

قال مَاجُون: ينبغي قَطْع الكُرُوم في الرَّبيع قبل أن يُبَرْعَم، فهي كثيرة العَصِير، فيسهل شدخها فلا تقوى على المِقْضَب[2].

شراب قرطاجي

قال مَاجُون: ينبغي قَطْف الكُرُوم و عنبها غضّا ورَخْوا، يُطْرح عنها العِنَب الذي أصابه الفَسَاد، ثم يُحْفَر قدر أربعة أَذْرُع في الأرض، و يُصَيَّر في الحُفْرة أوتادا ترتفع أطرافها على الأرض، تَصِلها بعصي قادرة على حمل القَصَب، وتبادر إلى العناقيد فتفرش على ذلك القصب و تقرّ كهيئتها حتى يصيبها حرّ الشّمس، و ينبغي أن تُغَطّى في الليل كي لا يصيبه ندى الليل، و حين تيبس، تنزع حَبْرَها و تُلْقِي به في خابية بها عصير لم يطبخ، فيعلو ذلك الحَبْر. و في الليلة السّادسة، و حين يبتل الحَبْر فينتفخ بفعل ذلك العَصير، تقره في سَبَتٍ، ثم يعصر، ثم تأخذ ذلك الشّراب و تصبّه على ثُفَل عصير جَدِيد غير مَطْبُوخ مع عنب أصابته للشّمس مدة ثلاثة أيام، ثم يُطَاء ذلك الثُّفَل وِطَاء شديدا حتى يختلط مع ذلك الشَّراب، ثم يعصر عَصْرَة ثانية، بعدها يوضع في جِرَارٍ، يغط رأسها و تقرّ كهيئتها طيلة عشرين أو ثلاثين يوما، ثم تُنْقَل إلى جِرَارٍ جدية تُطَيَّن فُوَّهَتها بِجَصٍّ وتُلَفْ بِجِلْدٍ[3].

أوان غرس شجرة الزّيت

قال مَاجُون: و ذلك أنّ أَوَان غَرْس شَجَرَة الزَّيْت في الأراضي الجّافة يكون في الخريف[4].

---

1 - انطر Columelle, III, 15

2 - انطر Columelle, IV, 10

3 - انطر Columelle, XII, 29

4 - انطر Géoponıka, IX, 20

فِي أَمْرِ حَفْرَة شَجَرَة الزّيت

قال مَاجُون: يَنْبَغِي أَنْ يَكُون بين حُفْرَتَيْن خمس و سبعون قَدَمًا من كُلّ الجِهَاتِ، أو على الأقلّ خمس و أربعون قَدَمًا في الأرض الخَوَّارَة و الجَّافة وكثيرة الرياح [1].

الأرض التي تغرس فيها شَجَرَة الزّيت

قال مَاجُون: ينبغي أن يَكُون غرس شَجَرَة الزّيْت في جُرْف الهضاب، في الأرض الجّافة و المُطَيَّنَة من الخريف إلى الشِّتاء، و في الأرض القَوِيّة و كثيرة الإنداء أو قليلة من الصّيف إلى الخريف [2].

نِتاج الحِجر و البِغال

قال مَاجُون: أَوان نِتَاج الحِجْر و البِغَال إذا بلغت عاما [3].

مِنْ أمْرِ اختيار الثيران عِند الشّراء

قال مَاجُون: ينبغي لِمَن أراد شراء ثيران أن تكون صغيرة السّن ورَبْعَة. ضخم القوائم، قَرْناه أسودين و قويين، عريض الجبهة جَعْدَة، أسود العَيْنَيْن و الخَطْم، منتفش الأذنين، مَفْطُوس المنخرين، كثيف شعر طرفه، ، وواسع الغَبْغَب متدليا إلى الساقين، عَرِيض الصّدر و الذِّرَاعَيْن، ضَخْم البطن، مُمَدّد الوَرِكَيْن، عريض الكِلْيَتَين، مستقيم الظّهر ومَبْسُوط وبالأَحْرَى أن يكون قَلِيل الانحناء، مُسْتَقيم الساقين عريضتين، قصيرتين خير من طولهما ، ضَخْم الحوافر، طويل الذنب، شعره كثيف و قصير، أَصْهَب اللّون أو أسمر، يَنْبَغي أَنْ يكون نَاعِما ونَاصِعًا [4].

---

1 - انطر Plıne L'Ancıen, XVII, 93

2 - انطر Plıne l'Ancıen, XVII, 128

3 - انطر Varron, II, 1, 27 , Columelle, VI, 37

4 - انطر Columelle, VI, 26

مِن أمر وِجَاء العُجول

قال مَاجُون: يَنْبغِي خصي العُجُول و هي صَغِيَرة السنّ، و لا يَنْبغي أن يكون الخصاء بالحديد، بل ينبغي أن يشدّ الخُصْيَتَيْن بعودٍ فيسحقهما شيئا فشيئا. إنَّ هذه الطريقة مَحْمُودة. لكن إذا رغبت في تأجيل ذلك إلى أن يقوى العِجْل، فَلْيَكُن الخصي في العام الثَّاني دون الأوّل. و ينبغي أنْ يكون الوِجَاء في الرَّبِيع أو في الخريف، عند نقصان القمر. إذا كان الخصي. قال مَاجُون: إذا كان الوِجَاء بالحديد، فينبغي عند ذلك أن يمسك الخصيتين بِلَوْحَين من خَشَبٍ، فيشق كيس الخُصْيَتَيْن بمشاقيص الحديد فيقطع الخُصْيَتَيْن. و ينبغي طَلْي الجُرْح برماد قضيب الكَرْم وزبد الفضة. و يترك الحيوان دون شراب في ذلك اليوم و لا يقدم له كثير العَلَف. و بعد ثلاثة أيام يقدم له أوراق الشّجر و العَلَف الأخضر على دُفُعَات و يمنع عنه الماء. وينبغي طلي الجرح طيلة تلك الأيام الثَّلاث بِزِفْتٍ مُذَاب و رماد و قليل من الزّيت كي يَلْتَئِم الجُرْح و لا يقربه الذُّبَّان.[1].

العِنَاية بالنّحل

قال مَاجُون: يَنْبَغِي ذبح عِجْلٍ في فصل الصّيف كي لا يهرب النَّحْل، أو أن يكتفي بأمعاء العِجْل[2].

كَيف يَكُون التخَلّص من ذكر النحل

قال مَاجُون: لا ينبغي إبادة ذَكر النَّحْل كليا، بل طردها، لأن استئصالها يحث النَّحْل على الكَسَل[3].

أوَان الغرس

قال مَاجُون: ينبغي غَرْس شجر اللَّوْز في الخريف إلى أول الشِّتاء. يَنْبَغِي

1 - انظر Columelle, VI, 1, 2-3

2 - انظر Columelle, IX, 14

3 - انظر Columelle, IX, 15

أن لا تغرس كلّ أنواع الإِجَّاص في نفس الوقت، لأن نُضُورها ليس مُتَزَامِنا، لذلك يَكُون غرس تلك التي ثمارها مُسْتَطِيلة أو مُدَوَّرَة من مَغِيبِ الثُرَيَّا إلى الشِّتاء. أمّا باقي الثّمار في وَسَطِ فصل الشِّتاء[1].

في غَرْسِ التفّاح

إذا أُضِيفَ قَضِيب التُفَّاح إلى شَجَرة الغَار[2] وشَجَرَة الكُمَّثْرَى[3] كان في ذلك التُفَّاح حُمْرَة[4].

في غَرْسِ اللّوز

قال مَاجُون: يَنْبَغي غرس اللَّوْز في أرض طِين رَخوَة، فَيُجْعَل طَرَف اللَّوْزَةِ المُمْتَدَّةِ مِمَّا يَلِي الجَنُوب، و قد يستحبّ غرس اللَّوْز في الأرض اليابسة و الحرّة، و قد تموت شجرة اللَّوْز أو لا تُثْمِر في الأرض النديّة الرَّقِيقَة. و ينبغي غرس اللَّوْز التي تَتّخِذ شَكْل المنجل و التي هي من صغار الشّجر. و بعد أن تنقع في سماد مركب طيلة ثلاثة أيام، أو ليلة الغرس، ينقع في ماء مُعسَّل. و ينبغي أن يُثَبَّت في الأرض من الرّأس و ليستقبل الحدّ الشّمال. و ينبغي أن يغرس أثلاثا أثلاثا، على هيئة المُثَلَّث، قدر شبر. و ينبغي أن يُسْقَى كلّ عشرة أيام إلى أنْ يُظْهر عَلَى وَجْهِ الأرض[5].

في حَمل بَذر الغَرس مِن أرض إلى أرضٍ

قال مَاجُون: يَنْبَغِي عمل ذلك قبل عام لِتَتَشَبَّع حُفْرَة الغَرْسِ بالشّمس والأمطار، و إن لم يكن ذلك ممكنا، فَلْيُعْمَد إلى إشعال نار وسط حُفْرَة الغرس، قبل شهرين، على أن لا يُوضَع البَذْر قبل أن تصيب تلك الحُفْرَة

---

1 - انظر Pline l'Ancien, XVII, 131

2 - الرّند في البلاد التونسيّة

3 - المقصود هنا الإجاص البري أو الجبلي

4 - انظر Géoponika, X, 20

5 - انظر Pline l'Ancien, XVII, 63

الأمطار. أما عُمْق حُفْرَة الغرس في أرض طين أو يابسة، ثلاثة أذرع في كل الجهات، وزيادة شبر على ذلك عند الانحدار، بطريقة تكون على هيئة مَوْقد تضيق فوهته في الأعلى. وفي الأرض السوداء يكون قدر حُفْرَة الغرس ذراعين و شبر، في شكل مربع متساوي الأضلاع[1].

في صِيانَةِ الرُمّان

قال مَاجُون: يَنْبَغِي أن يغلى ماء البحر جَيِّدا، فيغمس للحظات الرُمَّان بعد أن شدّ بِكِتَّان أو نبت الوَزال إلى أن يفقد حمرته، و بعد انتشاله يجفف في الشّمس طيلة ثلاثة أيام، بعد ذلك يوضع في مكان بارد، و إذا بدا لأصحابه أكله غَسَلُوه عن قشره بالماء البارد طيلة ليلة كاملة. وَرُبّ من يطلي الرُمَّان إذا بلغ إبّانه بجصٍّ و ترفع في مكان بارد، ثم تغمس في ماء بارد بعد أن ينزع عنها ذلك الجصّ، فإنها لا تزال غَضّة. و مما يُصَان به الرُمَّان كذلك أن يُعْمَد إليه إذا بلغ إبَّانه أن يُوضَع في قَعْر إناء في نَشَارَة خشب الحَوْر[2] أو البَلُّوط الأخضر، تَعْلُو طرفاه و أعلاه، و تفرش طَبَقَة ثانيّة من الرُمّان و تُغطِّيها بتلك النَشَارَة، إلى أن يمتلأ ذلك الإناء فيُجَصَّص[3].

البَرْوَاق[4]

قال مَاجُون: يُقْطَع البَرْوَاق في آخر شهر مارس إلى بداية شهر أبريل، بعد أن يزهر، و قبل أن يكبر بزره، تفلق قضبانه، و يطرح للشّمس، و في اليوم الرَّابع تتخذ منه حزما عندما تجففها الشَّمس[5].

---

1 - انظر Pline l'Ancien, XVII, 63

2 - شجرة الصَّفصَاف في البلاد التونسيّة

3 - انظر Columelle, IX, 15

4 - *Asphodelus microcarpa*

5 - انظر Pline l'Ancien, *Histoire Naturelle*, texte établi, traduit et commenté par Jacques André, Paris, 1969, XXI, 110

أوسْتُس[1]

قال مَاجُون: اليونانيون يسمون أُوسْتُس النَبْتَةَ المائيّة التي نسميها «السهمي»[2]. ينبغي قشر لحائها من شهر مايه إلى آخر شهر أكتوبر، تجفف تحت أشعة الشّمس[3].

الصّبّار[4]

قال مَاجُون: ينبغي قطع نوع من نبت سَيْفُ الغُرَاب من جُذُورِها، و هو نبت المُسْتَنْقَعات، يجفف تحت الشّمس في اليوم الثّالث إلى أن يَبْيَضّ، لكن يَنْبَغِي إدخالها قبل غُرُوبِ الشّمس كَيْ لا يصيبها إنداء الليل المضرّ بنبتات المُسْتَنْقَعات بعد قَطْعِهَا[5]

السّمار[6]

قال مَاجُون: يتخذ السّمار لصنع الحَصِير. ينبغي أن يجمع من شهر يُونْيَه إلى مُنْتَصَفِ يُولْيَه، يُجَفَّف كما يُجَفَّف النبت الذي يسمى الأُشْنَة[7].

صيد الذئاب

إذا أردت صيد الذّئاب فاعمد إلى سمك بحري قوي الرّائحة و خذ منه سمكة واحدة و قطعها قطعا، ثم اشدخها شدخا بالغا و أشعل نارا في الغائط الذي تأتيه الذئاب، و اقذف فيها كتلة من ذلك السّمك، فإذا انتشر دُخَّان

---

1 - οιστος

2 - قَدَّم المحتصون الاسم العلمي التّالي *Sagitta sagittifolia L* وهو النّبت الذي يتحد ورقه شكل السَّهْم، لذلك سُمِّيَ بالفرنسية *Sagittaire*، لكن بالعودة إلى النّص يبدو أن ماجون كان يتحدّث عن السّت المعروف في البلاد التوسيّة بالدِّيس وهو الأسل وبالفرنسيّة يُسَمّى Ampelodesma والاسم العلمي *Ampelodesma mauritanicum*

3 - انظر Pline l'Ancien, XXI, 111

4 - يبدو أنه السّت المعروف في شمال البلاد التوسيّة بالصّار وبالفرنسيّة يُسَمّى Agave والاسم العلمي *agave americana*

5 - انظر Pline l'Ancien, XXI, 111

6 - *Juncus acutus*

7 - يسمى باليونانية بِريُون (βρυον) و بالفرنسية *lichen* و يسمى في البِلاد التوسيّة شَيْبَة العَجُوز و كذلك الحرار Pline l'Ancien, XXI, 112

ذلك السّمك ، فاطرح حول تلك النّار قطعا من اللّحم ثم أخمد تلك النّار فإن الذئاب تقبل على رائحة ذلك السّمك و تأكل من قطع ذلك اللّحم فتربض ويُغْشَى عليها، و إذا وجدتها على تلك الحالة فاقتلها[1] .

1 - انظر Géoponıka, XVIII, 14

فقد الذاكرة الفلاحية

ما يثير الاستغراب أن البلاد التونسية في الفترة العربية الكلاسكية لم تساهم في إثراء علم الفلاحة. بل تزداد الأمور تعقيدا إذا ما لاحظنا أن إفريقية، التي كانت تلعب دائما همزة الوصل بين المشرق و الأندلس، لم تنقل كتب الفلاحة من العراق إلى أسبانيا، و هي التي كانت محطة رئيسية في انتقال الفكر المشرقي إلى الأندلس. فكيف يمكن أن نفسر ذلك؟ هل أن ما اصطلح عليه بانتكاسة الفلاحة في الفترة الكلاسكية يمكن أن يفسر العزوف عن التأليف في الزّراعة؟ أم هناك أسباب أخرى اختص بها المغرب عامة و إفريقية خاصة.

كتب الفلاحة في المشرق و الأندلس

اطلع العرب قبل الإسلام على التراث اليوناني انطلاقا من ثلاث مراكز سُريانية، نصيبين والرها بسوريا، وجنديسابور بفارس. و كان من بين أشهر النقلة والعلماء الذين استوعبوا الفكر اليوناني في صورته الهلِّنِيَّة وأسهموا في إيصاله إلى العرب عند بداية ظهور الإسلام سَرجِيسْ الرَأْسَ عَيْنِي[1]. لتعرف حركة الترجمة و النقل بعد ذلك ازدهارا كبيرا في العصر العباسي الأول، حين ازدادت حاجة الخلافة إلى الكتب اليُونَانِية المخزونة في بِيزَنْطَة. فقد أمر هارون الرشيد بجلب الكتب من أنقرة وأنطاكية وعمورية وكلف يوحنا بن

1 - *Sergıos de Theodosıopolıs* انظر Chabot (J B), *Lıttérature chrétıenne de l'Orıent,* Parıs, 1934, p p 44-79, Mıelı (A), *La scıence arabe et son rôle dans l'évolutıon,* Leyde, 1966, p 66

ماسويه بذلك[1]، كما أرسل المأمون السفارات لجلب الكتب من بلاد الرُّوم[2]، ومن غير المستبعد أن يكون من بينها كتاب «كَسْيَنُوس بَاسُوس» الذي عرف عديد النُّقُول وعديد التَعْدِيلاَت. فقد نقل من اليُونَانِية إلى السُرْيَانِيَّة ومن السُرْيَانِيَّة إلى الفَهْلَوِيَة ومن الفَهْلَوِيَة إلى العربية. وأولى التَعْدِيلاَت كانت في الحلقة اليُونَانِية-السُرْيَانِيَّة والحلقة السُرْيَانِيَّة-الفَهْلَوِيَة، وأصبح الكتاب يسمى باللسان الفارسي رُوُزْنَامَه وبالعربية كتاب الزّرع. و يمثل كتاب الفِلاَحَة الرُّومِيَة الحلقة الرابعة في سلسلة نقول كتاب «كَسْيَنُوس بَاسُوس» و أول عملية تَعْدِيل وتَحْيِين في كتب الفِلاَحَة المَنْقولة، و أصبح من الجائز الحديث عن بداية تشكل النواة الأولى لعلم الفِلاَحَة العربي. و في القرن الرابع للهجرة تمت ترجمة كتاب الفِلاَحَة النَّبَطيَّة حين نجح ابن وَحْشِيَّة في بعث علم الفِلاَحَة العربي، و استطاع جمع كل النصوص البِيزَنْطِيَّة في الفِلاَحَة وقام قبل نقلها بعملية تأليف نادرة في التاريخ، استطاع فيها التوفيق بين ثلاثة مصادر رئيسية متباينة التوجهات: «كَسْيَنُوس بَاسُوس» و»أَبُلُنْيُس التيَاني وقَسْطُوس» كتاب الفِلاَحَة الرُّومِيَة الذي عدل وحور كتاب «كَسْيَنُوس». ولم يكتف ابن وَحْشِيَّة بتأليف هذه المصادر الثلاث المنقولة بل أضاف إليها خبرات طائفته الكلدانية، التي اشتهرت بخبراتها الزِرَاعِيَّة، خاصة الزِّرَاعَة السقوية. لقد كانت عملية تأليف كبرى لم يعرفها علم الفِلاَحَة من قبل، بعثت للوجود أول كتاب فِلاَحَة يهم العراق والشام، جمع مصادر بِيزَنْطِيَّة مكتوبة، وخبرات زُرَّاع القرى العراقية في العصر العباسي الأول، زُرَّاع كان قد اشتغل أجدادهم بالزِّرَاعَة منذ الفترة الآشورية، وأطلق العرب على أحفادهم تسمية الأعلاج.

انتقل علم الفلاحة العربي بعد ذلك من العراق إلى اليمن، و التي تعددت فيها المؤلفات الفِلاَحية زمن الرسل، و كانت في شكل كتب وأراجيز. وقد ارتبط ظهورها بعلم النجوم فكان ظهور الروُزْنَامَه الزِرَاعِيَّة اليمنية. وكانت أول روُزْنَامَه في شكل أرجوزة من وضع البحر النعامي في نهاية القرن

1 – القفطي، نفس المصدر، ص 380

2 – ابن النديم، نفس المصدر، ص 243

الخامس للهجرة/ الحادي عشر[1]، وأرجوزة نشوان بن سعيد الحميري 573 للهجرة / 1177 [2]، وأرجوزة عبد الله بن أسعد اليافعي 768 للهجرة / 1367 [3]، ورُزْنَامَه الملك الأشرف عمر تحت عنوان كتاب التبصرة في علم النجوم[4]، وروُزْنَامَه القاضي أبو العقول محمد بن أحمد الطبري[5]، وروُزْنَامَه لمؤلف مجهول، تحت عنوان فصول مجموعة في الأنواء والزروع والحصاد[6]، وروُزْنَامَه الملك الفضل العباس تحت عنوان بغية الفلاحين، وأرجوزة شهاب الدين أحمد الزميلي[7]. و بعد المرحلة اليمنية انتقل علم الفلاحة في الفترة العربية الكلاسكية، و من جديد إلى الحوض الغربي و تحديدا بلاد الأندلس.

الأفارقة يرفضون التأليف في الفلاحة

ما الذي حدث في إفريقية في الفترة الكلاسكية كي لا تشارك في نشر هذا العلم؟ هل لهذا الموقف علاقة بوضع الفلاحة في هذه الأرض؟ أم أن السكان يأنفون من الاشتغال بالزراعة، و بالتالي يتعالون عن التأليف فيها؟ هذا ما قد نفهمه من كلام ابن راشد الذي عاش في الفترة الحفصية حين قال:» لما حللت، وجدت تلك البضاعة لا تعرف و تلك الطريقة لا تؤلف، و إنما دأب أهله نخل يأبرونها وغلة يشطرونها، و أرض للزراعة يتبرونها، طاب العلم بينهم كالمصباح في الصباح، و كالقبيحة بين الملاح...لله در القائل، و إن لم يأت في وصف الفلاحة بطائل:

بلد الفلاحة لو أتاه جدول	أعني الحطيئة لاعترى حراثا
تصدى بها الأفهام بعد صقاله	وترد ذكران العقول إناثا[8]

1 – انظر Varisco (D M), The Almanac of a Yemeni Sultan, London, 1994, p 10

2 – نفس المرجع

3 – نفس المرجع

4 – نفس المرجع

5 – نفس المرجع

6 – نفس المرجع

7 – نفس المرجع، ص 11

8 – حسن (محمد)، نفس المرجع، ج1، ص 409

هذا ما يتعارض مع ما ذكره ابن عبدون حين قال: «الفلاحة هي العمران، و منها العيش كله، و الصلاح جله، و في الحنطة تذهب النفوس و الأموال، و بها تملك المدائن و الرجال، وببطانتها تفسد الأحوال، و ينحل كل نظام»[1]. تلك أسئلة عديدة قد يصعب علينا إيجاد إجابات لها. لكن ابن خلدون قد يكون أفضل مساعد لنا، وهو الذي تكلم عن الفلاحة في مُقَدمته. لكن قبل ذلك علينا أن نعود و لو قليلا إلى ما ذكرناه في فصول سابقة عن إشكالية البداوة و الزراعة في إفريقية في الفترة العربية الكلاسكية.

قد يربط البعض عدم التأليف في الفلاحة إلى انتكاسة هذا النشاط خاصة بعد معركة حَيْدَرَان و هي التي اعتبرها البعض الكارثة التي كانت وراء خراب إفريقية؟ لكن، و من المفارقات العجيبة أن ابن خلدون و الذي روج تلك الصورة المشوهة عن دور العربان في «الكارثة»، بعد أكثر من ثلاثة قرون من تاريخ انهزام المخزن الصنهاجي أمام بني هلال[2]، هو الذي قد يرشدنا إلى السبب الرئيسي أمام العزوف عن التأليف في الزراعة. ففي باب الحديث عن الفلاحة، و عند تفسيره لماذا يختص منتحل هذا النشاط بالمذلة، فسر ذلك بالقول : « و السبب فيه و الله أعلم ما يَتْبَعُها من المَغْرَم المُفْضِي إلى التحكم و اليد العالية فيكون الغَارم ذليلا بائسا بما تَتَناوله أيدي القهر و الاستطالة قال صلى الله عليه و سلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما إشارة إلى الملك العَضُوض القاهر للناس الذي معه التسلط و الجور و نسيان حقوق الله تعالى في المتمولات و اعتبار الحقوق كلها مغرم للملوك و الدول و الله قادر على ما يشاء و الله سبحانه و تعالى أعلم و به التوفيق»[3]. لقد بين ابن خلدون بوضوح أن ملل الاشتغال بالفلاحة يعود إلى طريقة استخلاص الضرائب والتي تحولت إلى سياسة جبائية «جائرة» أدت إلى النفور من الاشتغال بالزراعة و الفرار من

1 – نفس المرجع
2 – عد إلى دعفوس (راضي)، نفس المرجع، ص 148
3 – ابن خلدون (عبد الرحمان)، نفس المصدر، ص 394

الأرض و تركها بورا. فأصبحت الفلاحة «لعنة». و هذا ما يفسر إلى حد كبير سبب رفض التأليف في الفلاحة. لأني قد لا أجد تفسيرا لمسألة تَرَقب قدوم الجالية الأندلسية لإعادة إحياء سهول مجردة السفلى في القرن السابع عشر، و الحال أن إفريقية، و التي عرفت في الفترة القرطاجية تأليف أقدم و أهم موسوعة في علم الفلاحة في التاريخ القديم، تميز سكانها بتقاليدهم الزراعية العريقة. لم تكن فقد الذاكرة الفلاحية ناتجة عن «قطيعة» حدثت في تاريخ الفلاحة في الفترة الوسيطة، أو ناتجة عن افتقار المزارع للخبرات الكافية، بل مَرَد ذلك مَلَل الأهالي الاشتغال بالزراعة بسبب جَوْر المخزن الجبائي و تعسفه[1]، و لم يكن بسبب «همجية بني هلال[2]، فهؤلاء قد نشروا الزراعات الحقلية على حساب البساتين التي كان قد هاجرها أهلها. على أن المفارقة الكبيرة أن المصادر الفلاحية المشرقية احتوت على مقاطع غير مباشرة لمَاجُون، أي تلك التي وجدوها في كتب الفلاحة البيزنطية منسوبة إلى «دِيُوفَانُوس»، من بين من نقل موسوعة مَاجُون.

1 - الطرابلسي (بوراوي)، "بساتين آسيا الصغرى من خلال رحلة ابن بطوطة إشكالية البداوة و الزراعة في العالم الإسلامي"، تقديرية أندري ريمون، تونس، آب/ أوت، 2004، ص ص 271-285، ص 284

2 - لم يعد من الممكن القبول بأطروحة "كارثة بني هلال" على الزراعة في تونس و قد استحضر هنا ما ذكره حسن حسني عبد الوهاب عن "الكارثة" التي أحدثها الهلاليون في حوض مجردة السفلي

«*D'autres (les Morisques), envoyés dans des endroits que très souvent parcouraient les nomades hilaliens et autres qui s'abattaient en bandes pour piller et razzier, se disposèrent sur les falaises des bords de la Medjerdah afin d'être protégés contres ces agresseurs sans scrupules et se cantonnèrent au milieu des décombres d'anciennes colonies romaines (Medjaz-el-bab, Testour, Slouguia, Gal'at-el-Andalous)* », Abdul-Wahab (H H), « Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie », *Cahiers de Tunisie*, N°69-70, 1970, p 163

مَاجُون من خلال كتب الفلاحة المُعَرَّبة[1]

الباب العاشر أن تُعْرَفَ تَسْمِيَةُ الرّياح ومَجْرَاها وعَدَّتُها[2].

هي اثنتا عشرة ريحا تهيج بإذن الله تعالى من أربع نواحي: منها ريح تهيج من قبل النيروز من يسار القِبْلَة تُسَمَّى بالرُّومِيَّة أبولوطوس وبالعربية الشَّمَال[3]، ومع هذه الرّيح رِيحَان جنبتيها أسماهما بالرُّومِيَّة فاسم أحداهما كاكياس[4] والأخرى أورؤُن[5]. ومنها ريح تهيج من قبل خراسان ومطلع الشّمس وهي التي تُسَمَّى بالعَرَبِيّة الجنوب وبالرُّومِيَّة نُوطُوس[6] وبالفارسية الرّيح البحرية وتهيج معها ثلاثة أرواح منها رَيْحَان من جنبتيها أسماهما بالرُّومِيَّة ليبانوطوس[7] والأخرى أرونوطوس[8]. ومنها ريح تجري فوق السماء تُسَمَّى

1 - كتاب الزّرع محطوطة برلين تحت رقم 6204 و كتاب الفلاحة الرّومية نسحة تابعة للمكتبة الوطنية تحت رقم 14243

2 - دِيُفانُوس (Διοφάνους)، راجع *Géoponika*, I, 11

3 - هي ريح شرقية

4 - هي ريح شَمَالِيَّة شرقية

5 - هي ريح حوبية شرقية

6 - و هي ريح حوبية

7 - في و هي ريح حوبية عربية

8 - هي ريح حوبية شرقية

بالرُّومِيَّة زوفوروس[1] وهي أرفع الرّياح ومنها ريح من قبل المغرب وهي التي تُسَمَّى بالعَرَبِيّة الدَّبور ومع هذه الرّيح رَيْحَان جنبتيها أسماهما بالرُّومِيَّة، فاسم أحداهما يابوا والأخرى[2] بالرُّومِيَّة ليبوس[3]. ومنها ريح تهيج من قبل خراسان ومطلع الشّمس وتسمى بالعَرَبِيّة الصَّبَا وبالرُّومِيَّة بوراس[4] ومعها ريح تُسَمَّى بالرُّومِيَّة طراسخان[5] وريح تُسَمَّى بالرُّومِيَّة ابارخطيان[6] رَيْحَان يَكُونان بين الأرواح تسميان بالعَرَبِيّة النكباوات. وقد قال قائل من فلاسفة الرُّوم و علمائهم: كيف نعلم مجاري الرّياح إذا جرت في الهواء بين السماء والأرض و إذا جرت في الأرْض فلم يُجِبْهُ في ذلك أحد. فقال أنا أبين لكم ذلك: فذلك أَنَّهُ إذا رأيت مياه البحور و الأنهار و الجبال تصفقها الرّيح وإذا رأيت الرّيح هاجت بشوك الأرْض ونباتها وإذا رأيت هذه الرّيح للشجر يابسا ورقه يَسْقُط وإذا ارتجت الأرْض، وَهَذِه كلها عَلاَمَات مَجْرَى الرّيح في الأرْض. و إذا رأيت سحابا جاريا ورعدا أو برقا فتلك عَلاَمَات ريح الهواء. إذا رأيت الكواكب يتألقن كأنهن يجرين ولبعضهن ذنب ممدود فذلك علامة هبوب الرّيح في السماء فوق الهواء.

الباب الثّاني: فيما وُصِف فيما ينبغي أن يُرْوَى ما لم يكن يسقيه ماء إلا ماء السماء، كيف تجمع الماء[7].

وذلك أنَّ أفضل ما جمع في ذلك الماء و أسلمه من الهوام ومن غيرها من الغدران على ما ارتفع من الأرْض مع أنَّ الرّيح تُسَفِّقُه و تُطَيّبه. و لا ينبغي لماء السماء أن يجمع ما سيل منه من أجاجين المرابط و أجاجين بيوت الأعلاف[8]

---

1 – هي ريح عربية

2 – شَمَالِيَّة عربية

3 – و هي ريح حنوبية عربية

4 – هي الشَّمَال

5 – الشرش

6 – هي ريح شَمَالِيَّة

7 – دِيُمانُوس، راحع، *Géoponika*, II, 7

8 – إجَّانة إناء كبير من حجر أو خَشَب يوصع فيه الماء

و الأهراء، و لكنه يجمع من الأجاجين النظاف[1]، المتخذة من الشّجرة الرُّومِية التي تُسَمَّى دّهْمَشْت[2]. و دَوَاء يُطَيِّب الماء الزُّعَاق[3] أن يوضع على الأجاجين في الجرار و في الخابيات الخَزَف، و تُسَفِّقُه الرّياح و يُحَوَّل كل يومين من إناء في إناء فإنَّه يزداد كل يوم عذوبة و طِيبا.

الباب الرّابع: معرفة علَامَات الأرْض الطيبة الزّاكية من غيرها[4].

فذلك أنَّ علامة الأرْض الزّاكية الطيبة إذا تتابعت عليها أمطار فَنَشَفَتَ المياه لم يَنْشَف ماؤها.و علامة الأرْض الطيبة أيْضًا أن يكثر نباتها من الشّجر كله. و علامة الأرْض الوسط دون الجيّد أن يكون نباتها من الشّجر دقيقا غير ملتف. و علامة الأرْض الرديئة أن يكون نباتها من الشّجر رقيقا ضعيفا. وقد تعرف مع ذلك الأرْض الطيبة من غيرها بريح ترابها وطيبته فذلك أَنَّهُ يحفر الحافر حيث بدا له من الأرْض ذراعين أو أكثر فيأخذ من طينها قدر قبضتين أو ثلاثة، و يُدفن في إناء من زجاج و يُجعل فيه ماء من ماء السماء، ثم تبل ذلك الطّين بذلك الماء و ينقع فيه حَتَّى يغمره الماء، ويوضع ذلك الماء كهيئته ويقر ساعة حَتَّى يصفو ماؤه ثم يذاق ذلك الماء. و يعتبر من تلك الأرْض على قدر ما يوجد من طعم ذلك الماء، فإنَّ كان طَيِّبا فهي طيبة و ان كان مالحا فهي سَبخة. و قدر الحفر في الأرْض للغرس و شقها للحرث: لا تُشَق أرض الحرث فوق شبر عُمقا في الأرْض، و لا تُحفر أرض لغرس الكَرْم فوق ثلاثة أشبار عُمْقا في الأرْض و لا تُحفر أرض لغرس الشّجر المُثْمِر فوق ذراعين من الأرْض. وعلامة الأرْض التي لا يُنْتفع بشيء مما غُرِس فيها أو زُرِع فيها أن توجد إذا اشتم ريحها ذات ريح منكر. و علامة الأرْض التي يوجد فيها حُفر منها من طينها مُلوحة بأنها لا تصلح إلا لغرس النَّخْل أو الطّرْفَاء و القَصَب، و هي

---

1 – قد تكون من خَزَفٍ أو صفر يوضع فيها الخمر

2 – الزَّبد

3 – مء زُعاقٌ يكون مرٌّ غليظ لا يُطاق شربُه من أُجُوجَتِه عُدْ إلى لِسَان العَرَب

4 – دِيُفانُوس راجع *Géoponika*, II, 11

إذا كانت كذلك لغرس النخيل أمثل منها لغيرها. و قد يُعتبر أمر الأرْض الطيبة من غيرها أن يُحفر فيها قدر ما بدا لصاحب ذلك أنَّ يحفر ثم يُعاد في تلك الحُفْرَة طينها فإنَّ زاد طينها على حشو تلك الحُفْرَة فتلك أرض جَّيِّدَة طَيِّبَة، و إن كان ما يعاد إلى حفرتها من طينها كَفَافًا قدر ما تستوي الأرْض بِهِ فهي أرض وسط، و إن عجز طينها عن حشوها أو تسويتها فهي أرض رديئة.

ومعنى الباب الأول في هذه المائة و ثمانية عشر بابا، التي سميت في صدر هذا الكِتَاب فيما ذكرنا أنَّه ينبغي أن يعرف من أراد حفر كرْم و غرسه، وعلامة الأرْض التي تُحتفر و يُغْرس فيها الكَرْم في طِيبِ شرابه أو رداءته[1].

فإنَّ ذلك أن يحفر، من أراد حفر كرْم في الأرْض، يحفر فيها ذراعا ثم يأخذ بَعْض ما في أسفل ذلك التّراب فيجعله في إناء من زجاج و ينقعه في ماء السماء حَتَّى يصفو ذلك الماء ثم يذوقه، فإنَّ شَرَاب ذلك الكَرْم الذي يُحفر فيها في تلك الأرْض كائن على قدر طعم ما ترى فيها من طِيبَة ذلك الماء، و إن كان ذلك التّراب مالحا و كريه الرائحة فلا ينبغي لأحد أن يحفر في تلك الأرْض كَرْما. و معنى الباب السّابع و العشرين أن يعلم ما الذي يسلم الله تعالى بِهِ الكَرْم من البرد و من جمود الماء و الجليد عليه[2].

وذلك أَنَّهُ إذا عمد إلى أرواث الدواب فَيُبِّست و جُمعت في كرْم شاب حيث يستقبل بِهَا الرّياح، فإذا كان ليلة و يَوْمًا يشتد فيه البرد و خيف أضرار البرد بذلك الكَرْم و الشّجر فدُفنت في كل كثيب من تلك الأرواث حَتَّى يطلع دخانها في الكَرْم و الشّجر لذلك الدُخَّان من فساد البرد سلم الله ذلك الكَرْم. و مما يسلم بِهِ الكَرْم من البرد في العام الذي يخاف عليه منه أن يُزْرَع فيه أصول جِرْجِر[3] فإذا رفع حَبّ الجِرْجِر تركت قضيبه و أصوله وورقه كهيئته في أصول الكَرْم.

---

1 – دِيُفانُوس، راجع *Géoponıka, V, 7*

2 – دِيُفانُوس ، راجع *Géoponıka*, V, 31

3 – هو الفُول

ومعنى الباب الثّاني والثَّلاَثِين أن يعلم كيف يعصر الكَرْم من قبل أن يبني حائطا من طين[1].

وذلك أَنَّهُ إذا عمد إلى الكَرْم فحفر حوله ذراعا من الأرْض و ذراعين عرضا، فَصُيِّرت فيه أوتاد أقلامًا و تكون أصولها في تلك الحُفْرَة و تَرْتَفع أطرافها على الأرْض شبرا ويكون بين كل وَتَدَيْن منها عشرة أذرع، و تشد تلك الأوتاد بحبال من بَرْدِيّ، و يكون غِلَظُها كغلظ الحبال. ثم يعمد إلى ثمر شَجَرَة أم غَيْلاَن[2] و ثمرة العَوْسَج[3] و ثمار ما أشبه ذلك، من غليظ النَّبْت وخشنه فيخلط في هذه الثّمار الحارة. ثم يعمد إلى كل نوع من ثمار هذه الشّجرة فيدق ثم ينقع ذلك كله في ماء في إناء فيه حَتَّى يخثر و يصير كالرّب، ثم يخلط بِهِ شيء من أخثاء البقر و يطلى بِهِ بتلك الحبال الممدودة و المصحوبة على تلك الأوتاد. ثم نضحت تلك بما يطلى بِهِ من ذلك ثم يعمد إلى تراب تلك الحُفْرَة حول ذلك الكَرْم فيها حَتَّى يغطى تلك الحبال فينبت في تلك الحبال المطلية مما طلي بِهِ من ذلك من كل نوع من ذلك الشَّوْك كله في ثمان و عشرين ليلة من يوم يغضى بذلك التّراب أربعة أشبار طولا. ثم كان في زيادة و نماء، ثم لم يلبث أن يطول و يَلتف و ينبسط و يَتَشبك و يكون حصنا حصينا دون الكَرْم. وقد يغرس من شاء مع أصولها غرسا من قَصَب فَيَنْبُت مع أنواع هذا الشَّوْك. ثم يتعهد نبت هذه الحبال بالسقي، و ليكن استقبال العمل فيها وصف من أمر هذه الحبال في دَيْ مَاه.

و معنى الباب السّادس و الثلاثين أن يعلم متى أوان قطاف الكَرْم و إدراك العِنَب، فإنَّ ذلك القطاف علم عميق[4].

وذلك أنَّ من يقطف عِنَب كرمة قبل إدراكه فَيَضُرّ ذلك بالكَرْم فيما يُستقبل من ثمرته مع تَغَيّر طعم شَرَاب عامه الذي يُقطَف في غير حينه و مع إسراع

1 - ديافانُوس، راجع *Géoponika, V, 44*
2 - نَوَّار المسك في البلاد التوسيّة
3 - يُوصَف في البلاد التوسية بالعَسْلُوح وهو السَّكُوم
4 - دِيُفانُوس، راجع *Géoponika*, V, *45*

البرد إليه. فينبغي لعنب الكَرْم إذا كان عند أوان قطافه أن يذاق و يكون صاحبه على علم.

و معنى الباب الثّامن و الأربعين فيما وُصِف بِهِ قديم الشَّرَاب و حديثه مما يُعصر من أسود العِنَب و أبيضه و أحمره[1].

فأما العِنَب الأسود فشرابه أمتن الشَّرَاب، و أما الأبيض من العِنَب فشرابه وسط، و أما أحمر العِنَب فشرابه ألذ طعما من شَرَاب العِنَب الأسود. و الشَّرَاب الحديث يزول، و شَرَاب القديم حار متين ذكي الرّيح طَيِّبُها، و إنما صيّر الشَّرَاب القديم حارا متينا لذهاب رغوته و زبده و نداوته عَنْهُ. وقد زعم ناس أنّ الشَّرَاب القديم يزول و أنّ الشَّرَاب الحديث حار.

ومعنى الباب الحادي و الستّين أن يعلم كيف تحتال للشَّرَاب الذي يُحمل في البَحْر حَتَّى لا يفسد[2].

وذلك أَنَّهُ إذا عمد إلى ورق شَجَر الزَّيْت رطبا فَرُض رضا ثم عُصر وطُبخ ماؤه حَتَّى يصير على النصف مما كان ثم جعل فيه شي من عَسَل، ثم عمد إلى وِعَاء الشَّرَاب فجعل فيه ماء ورق ذلك الزَّيْت وغسله حَتَّى يُقارّ في أسفل الوِعَاء ثم أنقعت ذلك الشَّرَاب فجعلته في ذلك الوِعَاء سلم لذلك من الفساد في البَحْر.

ومعنى الباب الثّامن و الخمسين أن يعلم كيف تغرس الفُسْتُق[3].

وذلك أَنَّهُ يعمد إلى الفُسْتُقَة العظيمة المُشَقَّقَة فَتُلَف في صُوفة منقوشة رقيقة لكي تسلم من الهوام فتجعل تَشَقُّقها مما يلي السماء، ثم تغرس فتعلق بإذن الله تعالي. ومعنى الباب الثّالث و الستّين أن يعلم كيف تحوي كل شَجَرَة وما الذي يحوي وما الذي يعلق عليها مما أضيف إلى غيرها مما لا تعلق ولا يشاكل صاحبها منه[4].

1 - دِيُفَانُوس، راجع *Géoponika, VII, 3*
2 - دِيُفَانُس، راجع *Géoponika, VII, 17*
3 - دِيُفَانُس، راجع *Géoponika, X, 11*
4 - دِيُفَانُس، راجع *Géoponika, X, 76*

وذلك أنَّ قضيب شَجَرَة التِّين يُضاف إلى شَجَرَة الفِرْصَاد[1] وشجرة الشَّاهْبَلُّوط[2] و شَجَرَة البُنْدُق وشجرة التُفَّاح وشجرة الحَبَّة الخضراء[3] وشجرة الكُمَّثْرَى و شَجَرَة تُسَمَّى بالرُّومِيَّة بوطَلَيا[4]، كما وصف قبل هذا الباب. وقد تألف قضيب غرس ما يضاف إليه من الشّجر ثقبا في تلك الشّجرة بوتد من طَرْفَاء وشجرة السَّفَرْجَل وشجرة الفِرْصَاد يكون ثمرتها حمراء. وغرس التُفَّاح ألف الكُمَّثْرَى و السَّفَرْجَل إذا أضيف إليها، وتكون ثمرة ذلك التُفَّاح عظاما حلوا. وقد يضاف التُفَّاح إلى الإجَّاص[5] ثم يصير ذلك التُفَّاح تفاحا أحمر. فأما الجَوْز فإنَّه ما يتألف ولا يتعلق إلا مع شَجَرَة الغرْب. وأما شَجَرَة يقال لها الدّهْمَشْت فإنَّها تألف التُفَّاح وأما الخَوْخ فإنَّه يألف الإجَّاص. والكُمَّثْري والتُفَّاح و السَّفَرْجَل وشجرة الشَّابَلُّوط فإنَّها تألف الجَوْز والبَلُّوط و البُنْدُق . وأما الآسّ[6] فإنَّه يألف شَجَرَة الغرْب. وأما شَجَرَة المِشْمِش فإنَّها تألف الإجَّاص واللَّوْز، وأما الأُتْرُجّ[7] فإنَّه مئونة شديدة. وقد يضاف الأُتْرُجّ إلى التُفَّاح والتفاح إلى الأُتْرُجّ.

ومعنى الباب التَّاسع في أمر العقارب[8].

وذلك أنَّهُ إذا أُحرق عَقْرَب بالنار نفرت العقارب وهربت لذلك عند ريح ذلك الدُخَّان. و إن عُمد إلى عَقْرَب وقتلها وطبخها بِسَمْنٍ وطُلي بِهِ موضع لدغة العَقْرَب بَرِئَ. و إن عُمد إلى فُجْل فعصره وطُلِي بِهِ موضع لدغة العَقْرَب بَرِئَ. و إن عمد إلى فُجْل فعصره و طلى بدنه بماء ذلك الفُجْل، وكلما جَف أعاده عليها مرتين أو ثلاثة، ثم قبض على عَقْرَب أو غيرها من

1 – التُّوت في البلاد التوسيّة
2 – هو القَسْطَل في البلاد التوسيّة
3 – ثمرة شجرة تسمى في البلاد التوسيّة لِنطُوم و هي شجرة البُطم
4 – الدَّرْدَار
5 – المقصود هنا لَعْوِينَة في البلاد التوسيّة
6 – الرّيحان في البلاد التوسيّة
7 – طرح، تُفَّاح العجم و كذلك ليمون اليهود في البلاد التوسيّة
8 – دِيُفَانُس، راجع *Géoponika, XIII, 9*

الهوام لم يلدغه شيء منها بإذن الله تعالي. وإذا شدخ الفُجْل وطرح بعضه على عَقْرَب قد لدغت أحدا، فيُختم على إثر اللدغة بخيط وعُصِّب عليه وطُيِّن على ذلك الخيط وخُتم بخاتم كله فِضة بِلا فَصٍّ كان ذلك أسرع لبرئه. ويقول دِيمُقْرَاطِيس العالم إنَّه إذا عمد إلى بَعْض عروق الزَّيْتُون أن يطرح على إثر اللدغة، أذهب عَنْهُ ما يجده من وجع لدغته بإذن الله تعالي.

ومعنى الباب الثّاني في أمر العَسَل[1].

وأنّ أجوده و أخلصه الذي يُسَمَّى عَسَل جبل أتيكو ثم الذي يُسَمَّى في الجزائر. وأحَقّ ما اختير منه ما ضَارع الحُمْرَة ومنه الذّي إذا مددته لا ينقطع دون أن يميل الطَيّب الرّيح. وعلامة العَسَل المتقادم أن يكون لونه مُضَارع السواد، وإذا طبخ العَسَل الذي فيه عيب فُصفى طاب وخلص لذلك. وقد جمع العَسَل من لذاته أنّه دَوَاء يُزيد في الجسم والقوة والسمع والبصر ويسلم بِهِ الله كثيرا من الداء ولاسيما الأسنان من النَّاس.

و معنى الباب الثّالث عشر فيما يَنْصَب بِهِ الماء من جام إلى جام أخر[2].

و ذلك إذا عمد إلى صوف خالص فَلُفّ كالفتيلة وجعل أحد طرفيه أغلظ من الآخر ثم جعل ألطف طرفيه و ما والاه من نصف تلك الفتيلة في جام أو في مكوك فيه ماء، و طرفها الأغلظ في جام أو في مكوك آخر لا ماء فيه، وسقيت تلك الفتيلة بالماء فإنّها تلك تمتص ماء الإناء الذي هو فيه و تصبه في الإناء الآخر حَتَّى تستوعب جميع ما فيه. إلا أنّه ينبغي أن يكون الإناء الذي فيه طرف الفتيلة الأغلظ أخفض من الإناء الذي فيه طرف الفتيلة الألطف.

و معنى الباب التَّاسع عشر في صيد السّباع الضّارية[3].

و ذلك إذا أردت صيد السّباع، فاعمد إلى الصنف من أصناف السّمك الذي يُسَمَّى بالرُّومِيَّة اللّرب[4]، و هو سمك بحري كثير الشَّحْم، قوي

1 – دِيُفَانُوس، راجع *Géoponıka, XV, 7*

2 – دِيُفَانُوس، راجع *Géoponıka*, II, *7*

3 – دِيُفَانُوس، راجع *Géoponıka, XVII, 14*

4 – بالفِرَنْسِيَّة (Belone)

الرائحة، و أخذ منه سمكة واحدة و قطعها قطعا، ثم اشدخها شدخا بالغا، وأشعل نارا في الغائط الذي تأتيه السّباع، أو حول الزّرِيبَة التي تأتيها السّباع، و أقذف فيها كتلة من ذلك السّمك. فإذا أكلتها النّار قذفت فيها كتلة أخرى، و هكذا كلما أكلت النّار كتلة طرحت فيها كتلة أخرى، فإذا انتشر دُخَّان ذلك السّمك في نواحي ذلك الغيط، أو في تلك الزّرِيبَة، فاطرح حول تلك النّار قطعا من اللَّحْم جعلت عليها من الدَّوَاء الذي يُسَمَّى بالرُّومِيَّة هَلاَّنَه سوداء، و من الدَّوَاء الذي يُسَمَّى أَفْيُون، ثم أخمد تلك النّار و أدفنها بحيث لا ترى ولا تظهر. وكَمِّن الرجال بالسلاح و الحبال في مكامن خفية حول تلك النّار، فإنَّ السّباع تقبل إلى رائحة ذلك القُتَار، و تأكل ما تأكل من قطع ذلك اللَّحْم الذي جعلت عليه تلك العقاقير، فتربض و يُغْشى عليه، فَيَصِيدها الكامنون كيف شاءوا. ومما تطرد بِهِ الذئاب عن الغائط و الزّربية، أن يعمد إلى أعضاء ذئب، فَتُنْصَب في طريق الذئاب التي قد اعتادت المجيء فيها، فإنَّ الذئاب تترك تلك الطريق ما دامت أعضاء ذلك الذئب فيه.

الموريسكيون وتصدير «الثورة» الزراعية

ارض الأندلس

لقد ظهر علم الفلاحة الأندلسي في أسبانيا، في بلد تميز بتنوع تضاريسه وتعدد سهوله الجافة و الخصبة و كثرة هضابه و تعدد الأنهار و قِلَّة الأمطار في جنوبه الذي يطغى عليه شيء من الجفاف حيث تتراوح كميات الأمطار بين 400 و 500 مم[1]. هذه العوائق الطبيعية لم تمنع المزارعين من تعاطي النشاط الفلاحي منذ القديم، على أن هذا القطاع الاقتصادي عرف أوج تطوره في الفترة الوسيطة عندما تنوعت المحاصيل الزراعية، خاصة في الضياع السلطانية ، فزرع المسلمون الحبوب و الخضر و البقول بجميع أنواعها في الجنوب، و غرسوا الزيتون في المناطق الجبلية كجبل الغرف، والكروم، واستنبطوا المياه و برعوا في هندستها ووظفوها في الفلاحة، و جلبوا بذورا من أماكن بعيدة وأفلحوها في أسبانيا مثل الأرز و البرتقال و النخيل والقطن و الكتان[2]. واختصت كل مدينة بنوع من الزراعات، فاختص جبل الثلج بالفواكه العظيمة. و يكون أفضل الحرير و الكتان في قراه المتصلة[3].

---

1 – عد إلى Bolens (L), *Agronomes Andalous au moyen-âge*, Genève, 1981, p 17

2 – أنظر في هذا المجال Arıe (R), " La vıe économıque de l'Espagne musulmane ", *Hand buch der orıentalıstık*, Band 6, geschıchte der Islamıchen lauder, Leyde-Cologne, E Brıll, 1977, p p239-254, p 245

3 – نفس المرجع، ص 246

واختصت طُلَيْطِلة بالحنطة و الزعفران[1]، و قرطبة بالقمح[2] و قصب السكر[3].

التأليف في الفلاحة

لقد ربط المستعربون ازدهار الفلاحة في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر بعد الميلاد بالتفكك السياسي الذي ساد الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية سنة 422 هـ./ 1031م و التي سميت بزمن ملوك الطوائف، لكل طائفة ملكها و عاصمتها[4]. لقد عملت هذه السلط المركزية على المحافظة على استقلالها بالتحكم في مواردها الغذائية، فكان اللجوء إلى التجربة «المشرقية» فاطلع العلماء، و بتشجيع من الملوك و الأمراء على كتب الفلاحة العربية-البيزنطية، فكانت مرحلة استيعاب هذه العلوم، تُوجت بتأليف كتب فلاحة أندلسية. و من أقدم المؤلفات الفلاحية الأندلسية: كتاب مختصر الفلاحة ألفه الطبيب أبو القاسم الزهراوي الذي توفي سنة 404 هـ./ 1010 م، و مجموع في الفلاحة لابن وافد[5]، و كتاب الفلاحة لابن بصال[6]، كما ألف أبو الخير الإشبيلي كتابا حمل عنوان كتاب الفلاحة، و كتاب المقنع لابن حجاج ألفه سنة 466 هـ/ 1073 ، و كتاب الفلاحة لابن العوام، و أخيرا أرجوزة ألفها أبو عثمان التجيبي توفي سنة 750 هـ./ 1349، حملت عنوان إبداع الملاحة .

«الثورة» الزراعية الأندلسية

إن الخطأ الذي وقع فيه المُستَعربون هو التوقيت الصحيح لهذه «النهضة»

---

1 – البكري، نفس المصدر، ص 87 الحميري، الروض المعطار في خبر الأمصار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 130

2 – الرازي، الرازي (أبو بكر بن محمد)،كتاب الحاوي في الطب، حيدرباد، 1955 ـ 1964 ، ص 64 و التي تليها و عد كذلك إلى البكري، نفس المصدر، ص 105

3 – الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار و هو معجم تاريخي لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المنعم الحميري، عني بنشرها ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937، ص 21

4 – عد إلى، L Bolens, *Agronomes Andalous* , p 13

5 – أنظر Colin (G S), « Filâha », *EI*$_2$, t II, p 922

6 – نفس المرجع

الزراعية، فهم يرون أن تأليف هذه الكتب إنما هو انعكاس قبل كل شيء لواقع النشاط الفلاحي في تلك الفترة[7]، و ما وجود هذه الكتب إلا دليل قوي على ازدهار الزراعة في الأندلس. و هذا الرأي غير صائب ذلك أنه لا يمكن أن نتحدث عن ازدهار الفلاحة زمن ملوك الطوائف لأنه لا يمكن الحديث عن هذا الازدهار قبل القرن الرابع عشر، و عديد الدلائل تؤكد ذلك: ما لاحظته من خلال دراستي لكتب الفلاحة الأندلسية تلك الفجوة العميقة بين «علماء الزراعة» و الزُرَّاع، بين التعليم الذي يريد العلماء إيصاله و بَثّه بين المزارعين و التقاليد الزراعية الموروثة، أو لنقل تقاليد تلك الأرض «القديمة» التي تحدثت عنها «لُوسِي بُولاَنْس»، تتجسد هذه الفجوة بكل وضوح في كلام ابن حَجّاج في ديباجة اعتمدها ابن العوام: «قد أتممت لك أيها الأخ الشقيق كتابي هذا و استوفَيت القول فيه بحسب الغرض المقصود إليه، و كفيتك الاستمداد بآراء أهل الغَبَاوة من أهل البراري الذين لا علم عندهم و لا شرح لديهم، مع طول ممارستهم بهذه الصنعة و ارتباطهم بها.و عدلت بك عنهم إلى آراء أجلّة الحكماء وذوي البصارة النبلاء فهم القدوة و من سواهم ليس بأسوة. فلا تصغين إلى قول العلة الجفاة و رأي أهل الغباوة و العتاه، و لا تركن إلى أقوالهم الساقطة، فلن تظفر منه بفائدة. إنما حظك منهم الخدمة فأما العمم فهم منه بمعدل و عن الصواب بمعزل»[8]. و يظهر جليا من خلال هذا الكلام أن ابن حجاج و ابن العوام و شقّ كبير من علماء الزراعة لم يهتموا كثيرا بما يحدث في بساتين و فدن المزارعين، بل كان هَمُّهم الوحيد تطوير بساتين الملوك والأمراء، و بالتالي فإن دروس هؤلاء و إرشادهم لم تتعد حدود الحزام الريفي الأول المحيط مباشرة بالمدن و عواصم هذه الإمارات. كما لا يجب أن نغفل عن حقيقة الحركة البطيئة لتطور الأعمال و التقينات الزراعية. فلا يمكن لهذا الموروث أن يتغير بمجرد ظهور هذه الكتب، لأن الفلاح هو

7 – عد إلى Bolens (L.), *Op cit*, p 14

8 – ابن العوام، كتاب الفلاحة، ترجمه وحققه بانكيري، مدريد، 1802

«ابن عوائده ومألوفه» قبل كل شيء. و يتطلب التغيير عقودا من الزمن إن لم نقل قرونا، و هذا معنى قول ابن الحجاج أن الزُرَّاع: « لا شرح لديهم مع طول ممارستهم بهذه الصنعة و ارتباطهم بها». و الدليل الثاني، ما ذكره ابن خلدون الذي كان قد زار أسبانيا في أحد سفارته الدبلوماسية إلى غرناطة في سنة 764/ 1363 وأشبيلية في سنة 765/ 1364 عن مدى التطور الذي وصل إليه الأندلسيون في المجال الزراعي، حيث تم التكثيف من استعمال الأسمدة و الأزبال للزيادة في إنتاجية الأرض رغم رداءتها، بعد أن افتك النصارى أخصب الأراضي[1]، هذا التحول لم يكن زمن ملوك الطوائف-زمن علماء الزراعية-بل كان في عهد ملوك بني الأحمر، عندما استوعب الزُرَّاع في الأرياف تلك الدروس النظرية و الإرشاد و أصبح العمل بها تقليدا سائدا لدى الفلاحين في أسبانيا. فكان إصلاح هذه الأراضي الرديئة بشتى الوسائل من حرث مدروس والاستخدام المكثف للري الأسمدة. الدليل الثالث، ما ذكره الرحالة الطنجي ابن بطوطة عند زيارته غرناطة فأكد أولا مدى التطور الذي وصلته الفلاحة في الأندلس، و قد لا نجد من نثق في كلامه مثل ثقتنا في هذا الرحالة، و هو الذي جاب الدنيا طولا و عرضا، فقد قال:»ثم سافرت منها إلى غرناطة، قاعدة بلاد الأندلس و عروس مدنها. و خارجها لا نظير له في بلاد الدنيا، و هو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور و سواه من الأنهار الكثيرة و البساتين و الجنات و الرياض و القصور و الكروم محدقة بها من كل جهة.و من عجيب مواضعها عين الدمع و هو جبل فيه الرياض و البساتين لا مثل له بسواها»[2]. تؤكد كل هذه الدلائل على التوقيت المتأخر «للثورة» الزراعية، و كان ذلك بعد ظهور علم الزراعة بقرون، عندما نجح المسلمون في غرناطة، آخر القلاع الإسلامية في أسبانيا، في الصمود أمام حركة «الاسترداد»، بفضل ما حققوه من نجاحات في الميدان الزراعي، لا بحد

---

1 - ابن خلدون (عبد الرحمان)، نفس المصدر، ص 364

2 - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه و كتب هوامشه طلال حرب، بيروت، د ح، ص 679

السيف و لكن بقوة العلم و المعرفة. فتمكنوا من تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء لكسر الحِصار الذي ضرب على غرناطة. و قد دفعني هذا الاستنتاج للحديث عن «ثورة زراعية» أندلسية، التي لم تَزُل مع سقوط غرناطة في سنة 1492، بل صُدرت إلى خارج أسبانيا.

المورِسكيون في البلاد التونسية

يمكن القول إن استقرار المُورِسْكِيين بالبلاد التونسية مثل حدثا لا مثيل له في تاريخ الفلاحة و علم الفلاحة، ذلك أن انتقال علم الفلاحة في الفترة القديمة اقتصر على الأفكار المنقولة في الكتب، فقد تأثر مَاجُون عند تأليفه موسوعته في الفلاحة بما كتبه اليونانيون في هذا المجال، و انتقلت موسوعة مَاجُون من قرطاج إلى روما، و انتقلت كتب علماء الفلاحة الرومان إلى آسيا الصغرى، و من بيزنطة وصلت إلى العراق فظهرت المؤلفات العربية في الفلاحة التي نُقِلَت إلى أسبانيا[1]، لكن المعطى الجديد أن أسبانيا لم تصدر الكتب فحسب بل صدرت كذلك الصُنَّاع، قُوة عَمَل زراعية، مهارتها وخبرتها لا مثيل لها في المتوسط. زُرَّاع حولوا العلوم الزراعية النظرية إلى تَقْنيات تُطبّق مَيْدانيا.

هؤلاء هم المُهَجَّرون من أسبانيا، المُورِسْكِيُون الذين وَفَّر لهم المخزن التركي–العثماني، في البداية، الظروف الملائمة للاشتغال في الزراعة و المتمثلة خاصة في «الأمن الجبائي». فكان مشروع إحياء أراضي ضفاف مجردة والوطن القبلي. هؤلاء المهجرون لم يحملوا معهم الخبرات الميدانية فحسب بل كذلك الكتب التي أَلَّفَها علمائهم في الأندلس، و نظرتهم لهذا القطاع.

و قد يكون من المفيد أن ننقل هنا ما ذكره أبو الخير الإشبيلي في باب حديثه عن أهمية الفلاحة:» الفلاح يحتاج أن يكون مقدما في الفلاحة فطنا ذكيا ويقظا، قائما بأصول الصنعة عارفا بأسبابها واقفا على غرائبها مميزا بعناصرها ومجرباتها محيطا بمعرفة عللها. حتى أنه متى بطلت له شجرة أو اعتلت له فيها

1 – الطرابلسي (بوراوي)، نشأة ، ص 237

ثمرة عرف تلك العلة و معالجتها و من أين دخلت الآفة عليها و بأي سبب و متى أيضا جفت إحدى الأشجار أو انقطعت عند هبوب الرياح و الأمطار عرف أيضا بماذا يعرض مكانها من الأشجار غيرها أو يعالجها بحيلة تحتال عليها. فإذا علم ذلك كله كان ماهرا في صنعته دريا في فطنته رفيقا في معالجته .و اعلم أن كل نوع من النبات إذا لم يعان بعلاجة و لطف في صناعته صار بريا شعثا غير يانع في شجره و لا لذيذ في طعمه . و الفلاحة علم وزين ونعمة من الله و أجر عظيم».

و ذكر ابن العوام في مقدمة كتاب الفلاحة ما يلي:» و أما بعد، فإني لم قرأت كتب فلاحة المسلمين الأندلسيين، و من كتب غيرهم من القدماء المقدمين في صنعة فلاحة الأرضين، المضمنة كيفية العمل في الزراعة و الغراسة ولواحق ذلك، وما يتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان ما وصل إليَّ منها...نقلت من عيونها إلى هذا التأليف، ما أن نظر فيه و حفظ أبوابه و فصوله و معانيه، من يريد أن يتخذ هذا الفن صنعة، يصل بها بحول الله إلى معاشه و يستعين بها على قوته و قوت عياله و أطفاله، و جد فيه حاجته و استعان بذلك على منافع دنياه و مصالح أخراه بتوفيق الله إياه. إذ بالغراسات و الزراعات تكثر بمشية الله الأقوات. و قيل أن إلى ذلك أشار النبي،: اطلبوا الرزق في جنايا الأرض...و من وصايا في إصلاح المرء صنيعته، قيل لأبي هريرة ما المروة؟ فقال تقوى الله و إصلاح الضيعة. قال قيس بن عاصم لابنيه: عليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم و يستغنى به عن اللئيم. و قال عتبة بن أبي سفيان لمولاه إذ ولاه أمواله: تعهد صغير مالي فيكبر و لا تضيع كثيره فيصغر. و شبه هذا في هذا المعنى كثير. و من ذلك أن يتفقد صاحب الضيعة ضيعته بنفسه ولا يغيب عنها، و لاسيما في وقت عملها و فلاحتها ليتبين له اجتهاد المجتهدين من عماله، فيكافيه و المقصد فيستبدل به. و من الأمثال في هذا تقول. الضيعة لصاحبها أرني ظلك أعمر».

قد تكون هذه المقاصد هي التي دفعت حسين خواجة في القرن التاسع عشر إلى الاطلاع على ما ورد في كتب فلاحة الأندلسيين، و اختصار ما جاء فيها، لترشد انفلاحين إلى حسن تدبير ضياعهم .وحمل هذا المختصر عنوان كتاب الفلاحة، و هو ثاني مؤلف تونسي في الفلاحة بعد مَاجُون، لكن أهميته تكمن في أن تأليفه كان قبيل الاستعمار الزراعي الفرنسي للبلاد التونسية وتأسيسها لأول المدارس الزراعية الاستعمارية في البلاد.

مختصر كتاب الفلاحة

المؤلف: حسين خواجة بن أحمد التركي

خلت بداية المخطوطة من اسم المؤلف حيث اكتفى بذكر ما يلي: « هذه ورقات مختصرات من كتاب الفلاحة وضعتها لمستحقها »، ليعلمنا في نهاية المخطوطة أنّه « انتهى بحمد الله تعالى ما تيسر تحريره. والحمد لله رب العالمين. في أو أوسط جمادي الأخير سنة واحد وأربعين ومائتين وألف 1241. على يد أضعف الورى وأحقرهم حسين خواجه بن أحمد التركي. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات. آمين والحمد لله رب العالمين». ومن غير المستبعد أن يكون حسين خواجه بن أحمد التركي، صاحب هذه الورقات،هو الذي ترجم له ابن أبي الضياف تحت اسم حسين خوجة، وهو الوزير أبو عبد الله حسين خوجة، وذكر أحمد بن أبي الضياف أن هذا الوزير كان من عمل مدينة نابلي وأنه نشأ في تربية الوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع[1]. أما عن تكوينه العلمي فقد تعلم القرآن وطالع الكتب، لاسيما التاريخ كما أشار لذلك ابن أبي الضياف[2]. و توفي سنة 1274.

1 – ابن أبي الضياف (أحمد)، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق محمد شمام، الجزء الثامن، تونس، 1990، ص 105

2 – نفس المصدر

المخطوطتان ومنهجنا في التحقيق

وصف المخطوطة الأولى والثانية:

مخطوطة مختصر في الفلاحة، المكتبة الوطنية، تحت رقم 21287 و رمزنا إليها (أ). عدد الأوراق 44. المقاس 21.5/ 15. المصطرة 33. خط مغربي.

مخطوطة مختصر في الفلاحة على الوفاء و التمام، 17810 و رمزنا إليها كالتالي (ب)، و هي نسخة للمقارنة تحت رقم 17810. عدد الأوراق 13. خط مغربي.

منهجنا في التحقيق

أخرجنا النص وفقا للقواعد الإملائية المعاصرة من حيث رسم الهمزة ووضع الفواصل والنقط. كما حاولنا التعرف عن المصادر التي اختصر منها المؤلف والتعريف باسماء النباتات وكيف تلهج في البلاد التونسية.

قائمة المختصرات

ابن العوام: ابن العوام، كتاب الفلاحة، ترجمه وحققه بانكيري، مدريد، 1802.

ابن بصّال: ابن بصال (أبو عبد الله محمد)،كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي مارية مياس بيكروسا ومحمد عزيمان، المغرب،مولاي الحسن، 1955.

ابن وحشية: ابن وحشية (أبو بكر)، الفلاحة النَّبَطِيَّة، تحقيق توفيق فهد، دمشق، ج الأول، 1993 و الجزء الثاني، 1995.

أبو الخير: أبو الخير الإشبيلي، كتاب الفلاحة، مدريد، 1991.

الأنطاكي: محفوظ (محمد)، تفسير مفردات الأنطاكي باللجهة التونسية، راجعه و علق عليه ابراهيم بن مراد، بيروت، 1996 .

دياسقوريدوس: ابن البيطار، تفسير كتاب دياسقوريدوس في الأدوية

المفردة، تحقيق إبراهيم بن مراد، تونس، 1990.

ديمقراطيس: كتاب الفلاحة، النسخة المنحولة لديمقراطيس ، مخطوطة تابع كشف دي سلان للمخطوطات العربية بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم 8202.

كتاب الزّرع: مخطوطة برلين تحت رقم 6204.

Géoponıka Cassıanus Bassus Scholastıcus, Geoponıcorum sıve de re rustıca lıbrı XX, Lıpsıae, 1895

الرموز:

(و.) : يعني وجه الورقة المخطوطة.

(ظ.) : يعني ظهر الورقة المخطوط.

بسم الله الرحمان الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه وسلم تسيلما هذه ورقات مختصرات من كتاب الفلاحة وضعتها لمستحقها الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبيه وعبده صلى الله عليه وسلم والرضـ عن آله وصحبه و حزبه الطاهرين الطيبين الأكرمين.

باب معرفة الأرض الجيدة من الرديئة[1]

قالت الحكماء[2]: إذا كان النبات في الأرض غليظا طويلا سمينا، غليظ الورق و حسن الخضرة، غليظ العروق فهي أرض جيدة سمينة. و إذا كان النبات في الأرض و سطا فالأرض وسطة. وإذا كان النبات فيها رقيق الأغصان رقيق العروق وضعيف النبات و النمو فالأرض رقيقة. وخير الأرضيين الأرض السوداء إلا أنها لا تقوى على كثرة المياه والأمطار والحرّ غير أنها

1 – اس العوام، 1، 6

2 – نقل اس العوام قائمة علماء الفلاحة من كتاب المقنع لاس حجاج و أصاف إليها نعص من ألف في الرراعة في الأندلس ممن سبقه و الحكماء عنده علماء الفلاحة الرّومان و الرّومان و السط و الأندلسيين و يقول اس العوام " اعلم وفقنا الله و إياك إن قسمت هدا التأليف على خمسة و ثلاثين بابا و صمنت الأبواب من هدا الفن أنواعا تقف عليها إن شاء الله تعلى و به استعين و عليك أتوكل و اعتمدت على ما تضمنه كتاب الشيخ الفقيه الإمام أبو عمر اس حجاج رحم الله المسمى بالمقنع و هو الذي ألفه في سنة ست و ستين و أربعمائة و هو مبني على أراء أجلة الفلاحين و المتكلمين نقل فيه نصوص أقوالهم و عزاها إليهم و عددهم ثلاثون رجلا" اس العوام، 1، 7

صالحة للكروم. وأجود الأرض ما لا يكثر تشققها إذا اشتد الحرّ وإذا كثرت الأمطار لم يكن فيها زلق ولا إملاس و لا يطول مكث الماء فيها لأنها تنشف سريعا. و إذا رأيت في الأرض أشجارا عظاما برية لم يغرسها أحد فهي أرض جيدة. وإذا أنبتت الأرض الشوك والشجر الصغار ضعافا فليست بجيدة. وكان الأوائل يحفرون في الأرض قدر ذراع عمقا، ثم يأخذون من أسفل تلك الحفرة ترابا فيجعلونه في إناء زجاج ويصبون عليه ماء المطر أو ماء عذبا طيب الرائحة ويخظخظونه ثم يتركونه حتى يعفن التراب ويصفون الماء ويذوقون ذلك الماء ويشمونه، فان كان طيب الرائحة عذبا فالأرض جيدة، وان كان منتن الرائحة مالح الماء فالأرض مالحة رديئة، وعلى قدر الذوق والرائحة تعرف الأرض إن شاء الله. وقالوا: أيضا احفر حفرة قدر شبر و أخرج ترابها وفتته ورده في تلك الحفرة، فان ملأها وفضل منه فالأرض جيدة، وان ملأها ولم يفضل ولم ينقص فالأرض وسطة، وان لم يملأ الحفرة فالأرض رقيقة رديئة. و اهرب كل الهروب على الأرض المنتنة والمالحة والرمل المملح والماء المالح إلا النخل خاصة، فانه يصلح له الأرض المالحة. وقالوا: إذا كانت في الأرض حجارة عظام فهي رديئة لأنها تسخن في الحر وتحرق بحرارتها أصول الشجر والبقل وتبرد في الشتاء فيفسد الشجر والنبات إذا كانت قريبة منها. والصغار من الحجارة أقل ضررا من كبارها والصواب نقل الحجارة [2] (و) والصغار عن الأرض جملة[1].

باب معرفة قرب الماء و بعده[2].

إذا أردت ذلك فاصنع جرة لها جوف من نحاس أو رصاص أو خزف. فينبغي لك أن تطلي داخلها بالشمع المذاب و الزيت، و لتكن مما تسع عشرة أرطال ماء. و إن كانت أكبر فهي أحسن ثم خذ شيئا من صوف أبيض مغسول

1 - أناطُلْيُو راجع *Géoponıka*, II, 10 و دِيُفانُوس راجع *Géoponıka*, II, 11 كتاب الزّرع، 2، 4

2 - ابن العوام، 2، 1

نقي منشوف فاربطه بخيط و ألصق طرف ذلك الخيط في أسفل الإناء بشمع أو بزفت لئلا يسقط ذلك الصوف إلى الأرض إذا كبيت الإناء على وجهه، وتكون لصوفة قريبة من الأرض و لا تصل إليها، ثم احفر في الأرض التي فيها أمارة الماء حفرة يكون عمقها أربعة أذرع أو نحوها و نصفها من ترابها، ثم أقلب ذلك الإناء على وجهه في أسفل الحفرة و ضع حول الإناء من ورق القصب الأخضر الرطيب أو عشبه رطبة و تغلى أيضا بذلك الإناء حتى يرتفع عليه قدر ذراع واحد، ثم تغم بقية الحفرة بالتراب المستخرج، وتفعل هذا عند غروب 'لشمس، فإذا كان قبل طلوع الشمس ارفع التراب و العشب واقلب الإناء و انظر إلى داخله، فإن كان في بطن تلك الأرض ماء غزير قريب فإنك تجد تلك الصوفة مبلولة بالماء و الإناء أيضا قد تجده بالماء و بقدر ما تجد في الصوفة من كثرة الماء و قلته تعلم بعد الماء من وجه الأرض و قربه فإذا لم تجد في الصوف ماء البتة فاعلم أنه لا ماء في ذلك الموضع فلا تتعب في طلبه أبدا إن شاء الله تعالى[1].

باب تخيير المكربين للخدمة والوكيل على القرية[2].

ينبغي أن يخيروا للخدمة من الفلاحين الشاب فانه أقوى على انحناء الظهر والأكتاف و المداومة على العمل في الحرّ والبرد، وأحد أبصار أو اثبت نظرا فيما تكل عنه أبصار الشيوخ من معالم حدود الأرضين وما قد درس منها. و إذا كان الفلاحون كُثْرا فإنه لا ينبغي أن يعملوا جميعا في موضع واحد لأنهم إذا اجتمعوا كثر حديثهم وأشار بعضهم على بعض من المكر والخبث في العمل. و الصواب أن يقسم في العمل من عشرة أكثر الأقسام إلى خمسة، ويستحب القوام عليهم. و ليكن عملهم بالسوية. والذين يعملون بالفؤوس اجعلهم اثنين اثنين ليعمل الكسلان منهم على عمل النشيط، و وَكِّل بعضهم

1 - ناكْسَامُس راجع *Géoponika*, II, 4 كتاب الزرع، 2، 3

2 - ابن العوام، 9، 5

على بعض واجعل لكل قيم على ذلك شيئا. وليكن الذي يحفر يعمل بالفأس طويلا عريضا جسميا قويا لأن القوي يقدر على تقليبه في الأرض والصغير لا يقدر على ذلك. ولا بد في المنزل من أمين وليكن عند اسممه أمينا حسن الهدى والأخلاق له حظ في صلاح ودين وصدق لسان وحب لعمارة الأرضين وحرص عليها بالطبع، ويكون متيقظا ينبعث من نومه قبل العمالين ليقتدي به أهل المنزل، إما لحرصهم على العمارة وأما للاستحياء منه والخوف والطمع. و لا ينبغي أن يكون هذا الوكيل رغيب البطن و لا كثير الأكل لشهواته و لا شاربا للخمر فيقتدي به أهل المنزل. وإذا كان حين الراحة فليرحهم و يولفهم ويحسن إليهم ويلين كلامه لهم و لا يؤخر على وقت خروجه ويبعث ويستشير أهل المعرفة بأوقات العمل. والله الموفق للصواب[1].

باب معرفة المواضع المتخيرة للبناء في المنازل كلها[2].

إذا أردت أن تبني بناء في منزل فتوح المشرق من الأرض فإنه أصلح لهواء من أغوار الأرض، و ليشرف ساكنها على أراضي القرية و زرعها و بساتينها، و لتكن مستقبلة للمشرق، و لتدخلها الشمس من أبوابها و الكوى التي فيها في حين طلوعها، و تدخلها أرياح الصبا لتنتفي عن أهلها الأسقام من الهوى. و لا تجعل البيوت ضيقة و لا قصيرة السمك مغمومة بل تكون عالية السمك طويلة الأبواب لتخرقها الرياح فإن ذلك أصلح لأهلها و أتم. و السلام[3].

باب تخير الزبول[4].

أفضل الزبول زبل الحمام، وكل زبول الطير جيدة ما خلا طير الماء كالبط والوز فإنها تفسد الأرض وتهلك النبات. وأجود الأرواث روث الخيل والبغال والحمير ثم زبل الضأن والمعز ثم أرواث البقر. وإذا كان الزبل مخلوطا

1 – ىَارُوُنُس (*Varron*) راجع، *Géoponika*, II, 22 كتاب الزّرع، 2، 7
2 – أصفت هدا الباب من السحة (ب) اس العوام، 30، 1
3 – دِيدِمُس راجع، *Géoponika*, II, 3 كتاب الزّرع، 2، 1
4 – اس العوام، 2

بأنواع الزبول كان أحسن. و أما زبل الخنازير فانه يهلك كل ما ذكرنا منه. وينبغي أن يحفر حفرة عظيمة و يطرح فيها من كل أنواع الزبل ويجعل معها رماد التنانير ويصب عليها الماء العذب و أبوال الناس و تعتق. وكلما قدم الزبل كان أوفق وأفضل. و لا ينبغي أن يزبل الأرض بزبل مرّ عليه غير عام واحد فأقل، فانه لا ينفع الأرض بل يضرها ويولد فيها الدود والدواب الكثيرة. وأما زبل ثلاث سنين وأربع [2](ط) سنين فكثير الصلاح والمنفعة، وكلما أعتق الزبل أحرق كل شيء فيه وحسن، وإذا طرح على كل وقر من الزبل القديم وثلاثة أوقار من التراب وخلطه به، وتُرِكَ زمانا صار جميعا زبلا جيدا. وإذا ألقيت على زبل الحمام لكل كيلة عشرين كلية من التراب وتركه حولا كاملا صار كله زبلا طيبا. وقال بعض الحكماء الأرض الطيبة إذا زبلت زكى زرعها والأرض السمينة لا تحتاج إلى الزبل الكثير. واعلم أن الأرض الطيبة إذا لم تزبل بردت، و إذا كثر زبلها فوق ما تحتاج حرقت. و تبن الفول و القمح و الشعير إذا برز احدهم في الأرض نفعها ويصلح الأرض المالحة ويحليها، ثم تزد الزبل فيها بعد ذلك فتحسن الأرض وتجود ويزول ملحها إن شاء الله تعالى[1].

باب تخيير البذر[2].

اختر من البذر أصحه وأجوده وأسمنه، واحذر الرقيق الهزول. ويكون القمح صحيحا نقيا كأنه مدهون بالدهن حلو الطعم. وخير ما زرع منه ما أوتي عليه عام أو عامين، أما ما جاوز عليه ثلاثة أعوام أو أربعة فهو دون ما تقدم. وينبغي أن يلث بعصير السوسن ويدق أصل السوسن فيخلط بالبذر، يجود ذلك. ولا تغتر بالقمح وان كان من الأمكنة التي يقيم فيها القمح في البيوت وفي المطامير السنين الكثيرة. وأما الشعير للبذر، الصحيح الرزين الأبيض[3].

---

1 – راجع، *Géoponıka*, II, 22 كتاب الزّرع، 2، 6

2 – ابن العوام، 18، I

3 – أُوَنْدَايِيُنُّس راجع *Géoponıka*, II 16 كتاب الزّرع، 3، 3

باب معرفة ما ينفع الزّرع ويضره ويدفع الآفات عنه[1].

ذكر أصحاب الفلاحة أجمعون: انك إذا اتخذت غربالا من جلد ذئب أو ثعلب وتثقب فيه ثلاثين ثقبة قدر ما يدخل الأصبع السبابة فيها، وغربلت بذلك بذر حرثك بارك الله فيه وسلم من الأوقات[2]. قال انطرليوس الحكيم[3]: إن غطيت المكيال الذي تكيل به البذر بجلد ضبع حتى تعلق به ريحه، لم يكتل به شيء إلا إنتكبه الطير باذن الله. وأجمعوا: أنه إذا أخذ قرن الأيل و أبرده حتى يصير دقيقا وخلطا معه البذر فان الله عز وجل يسلمه من كل آفة. وكذلك إن قطع قرن الأيل صغارا ونقع في الماء سبعة أيام ثم نضح على البذر كان مثل ذلك. وقال انطرليوس الحكيم[4]: الفيل يفعل مثل ذلك. قالوا وان نضح على البذر ماء الزيتون بلا ملح فانه ينفعه مثل ذلك. وإن أخذ [3(و)] الخربق الأسود ودقته وخلطته بالماء و نضحت به البذر فانه لا يأكل منه طير إلا مات، فخذ ما مات وانصبه على عصا منكوسا وفرقها في أرض الزّرع فانه لا يقرب ذلك الزّرع طائر بإذن الله. وقال انطرليوس[5]: إذا أخذت سرطانا وألقيته في جرة ماء وتركته فيه سبعة أيام ثم نضحت ذلك الماء على الزّرع لم يقربه طائر. وإذا دققت البورق ونضحته على البذر فانه يجود و لا يضره شيء من الدواب والطير. وإذا وقع الدود في الزّرع فاحرقه بالثوم وبعيدان الثوم حتى يغشى دخانه جميع الزّرع فان الدود يسقط عن الزّرع. وإذا فعلت ذلك بالأشجار كلها سقط عنها بإذن الله تعالى. و ذكرت الحكماء: أنه إذا أوقفت المرأة مرآة جديدة قِبَل سحاب البرد، صرّفه عز وجل عن ذلك الموضع. قالوا: وان قرنت مفاتيح شتى في حبل وعلقت في قصر أو دار في المنزل، صرف الله

---

1 – أبو الخير، ص 66

2 – سُوُطيُوُنُس راجع *Géoponika*, II, 19 كتاب الزّرع، 3، 8 أبو الخير، ص 66

3 – في (ب) كان الحديث عن أرسطوطاليس

4 – كدا في الأصل و هو تحريف، و الصواب أباطُلْيُو

5 – الصواب أباطُلْيُو

البرد عن ذلك المنزل والله أعلم. وقال ذو مقراط[1]: الحيلة لإذهاب الحشيش من الزّرع أن تأخذ خمس قطعات من خزف جديدة، فَصَوّر في كل قطعة منها تمثال أسد وتمثال رجل قابض على حلق الأسد بيده، وتضع خزفة واحدة في وسط الحرث والأربع خزفات في أربعة نواحي، فان كل حشيش في ذلك الزّرع يهلك. وإن أخذ فأس من نحاس أو قادوم وحمي وسقي بدم تيس لم يقطع به نباتا إلا استوصل و لا يرجع أبدا[2].

باب تخيير الزراعة وقلب الأرض[3].

وينبغي أن لا يزرع البذر في أيام شديدة <البرد> بريح الشمال والريح الغربية فان الأرض لا تقبل الزّرع فيه جيدا. وان زرعت بريح الجنوب أو الشرقية أو في يوم دافئ قبلته الأرض أحسن قبول. وقال ذو مقراطيس[4]: يزرع بعد أربعة في الشهر القمح إلى أربعة عشر منه، يكون أزكى من غيره وأحسن وأطيب. والذي يزرع في نصف الشهر، في نقصان القمر، يخرج قليلا ضعيفا إلا ما شاء الله. وأن يزرع القمح في أطيب الأرضين والشعير في أوسطها والفول والحمص في الأرض الندية. وأفضل الحرث في مارس ولتكن سكة الحرث كبيرة ليخرج شحم الأرض وتقلبها[5].

زراعة العدس[6].

إذا أردت أن تزرع العدس فدلكه بخثاء البقر اليابسة فانه يسرع نباته ويكثر حبّه. و من أكل من ذلك العدس لم يزل مسرورا ما دام ذلك العدس في معدته. وان بذر العدس بخل ثقيف سلم ذلك من السوس.[3 (ط)].

---

1 - سُوُطِيُوُنس راجع *Géoponıka*, II, 42 كتاب الزّرع، 3، 11

2 - أفْرِيقَانُس راجع *Géoponıka*, II, 18 كتاب الزّرع، 3، 5

3 - ابن العوام، 17

4 - كذا في الأصل و هو تحريف، و الصواب ديمقراطيس الذي ذكر في كتاب الفلاحة "و ليكن ما يزرع من أربعة أيام يخلو من أول الشهر إلى تمام أربعة عشرة ليلة من الشهر و ذلك عشرة أيام" ديمقراطيس، 4 (و)

5 - دِيدِمُس راجع *Géoponıka*, II, 14 كتاب الزّرع، 3، 2

6 - ابن العوام، 20، 4

وزرعه في يناير وفبراير[1].

زراعة الحمص[2].

تنقعه في ماء فاتر قبل أن تزرع بيوم. والأرض المالحة توافقه وأخلط فيه من حب الشعير فانه يصلحه إن شاء الله[3]

زراعة الباقلاء[4] «وهو الفول»

ازرعه في الأرض الرطبة الندية فان زرعه لا يصلح إلا في ذلك. وان أحببت سرعة نباته فانقعه في ماء و نطرون يوما واحد، ثم ازرعه فانه يسرع نباته و إدراكه. وأن زرع الفول في التربة البيضاء موافقا له، ولا يزرع الفول بين الشجرة المثمرة فانه مضر لها. وان أكثر الدجاج من أكل الفول انقطع بيضه. وقشر الفول يضر غرس الكروم الحديثة إذا طرح عند أصلها[5].

زراعة الترمس[6].

ازرعه في أرض رقيقة رملية، ويكون ذلك عند زيادة الهلال في أكتوبر، و لا تنتظر بزراعة المطر. وكل أرض يزرع فيها[7] تجود للحنطة في السنة المقبلة، وهو بمنزلة الزبل للأرض. والله أعلم[8].

كيفية الحصاد[9].

احصد القمح إذا يبس، واحصد الشعير وفيه رطوبة فانه أطيب له،

---

1 – فلُرَيطِيُس راجع Géoponıka, II, 37 كتاب الزرع، 3، 17

2 – اس العوام، 21، 2

3 - فلُرَيطِيُس راجع Géoponıka, II, 36 كتاب الزرع، 3، 16

4 - اس العوام، 21، 1

5 - دِيدِمُس راجع Géoponıka, II, 35 كتاب الزرع، 3، 15

6 – اس العوام، 21، 5

7 – الناقلاء المصري، و يعرف نتونس نفول الكلاب قريب من حلق اللوبيا إلا أنه أعرض و لا نقطة فيه الأنطاكي، ص60

8 – فلُرَيطِيُس راجع Géoponıka, II, 39 كتاب الزرع، 3، 18

9 – اس العوام، 29، 1

وكذلك جميع القطاني[1] برطوبتها فانه أوفر لها وأفضل. وان حصدت فضع ما يلي السنبل منه نحو المشرق وموضع قطع المنجل نحو المغرب فانه أفضل. وأرفع جميع الحبوب قبل غروب الشمس فانه أبقى لها وأفضل لحبوبها من أن يذهب برد الليل[2].

باب اختيار مواضع الاندار[3].

الاندار تسمى بالعراق البيادير واحدها بيدر[4]. فلتكن مواضيعها مشرفة لا يرد الريح عنها شيئا، ولتكن في الأرض الصلبة الصخرية، ولتكن معتزلة عن المنزل وعن البساتين، من أجل الريح تحمل دقيق التبن إذا ذرى الزّرع وتلقيه على الشجر فتحرق شجرتها وورقها، و تخلص الشمس إلى عيدان الشجر وأصولها فتحرقها.

صفة البيوت التي تتخذ لخزن الطعام[5].

اجعلْ في البيوت كوة من المشرق والمغرب لتخرقها الرياح وتخرج منها وهج حرارة البيت. ولا تجعل فيها كوة مما يلي الجنوب ولا تجاوزها للمطابخ و لا مرابط الدواب لحرّها. وليكن الطين الذي يطين به الحيطان طيبا. واخلط به التبن وماء الزيتون بلا ملح ورماد ورق الزيتون أو رماد أي شجر كان. وان نقع قثاء الحمير[6] في الماء وعجن به رماد ثم طلي به داخل البيوت لم يقرب الطعام الذي فيه سوس و لا فأر بإذن الله[7]. (و) 4

1 – الدرة الأنطاكي، ص61
2 – فرَبطِيُس راجع *Géoponika*, II, 25 كتاب الزرع، 3، 19
3 – اس العوام، 29، 2
4 – اس وحشية، ح1،ص 426
5 – اس العوام، 29، 3
6 – فقوس الحمير بتونس، و بعيرها من الجهات فقوس البهايم و يسمى قثاء الحمار لأن أوراقه تشبه أوراق القثاء، و الحمير تطلبه و تأكله الأنطاكي، ص 91
7 – صَارَانْطِيُس راجع *Géoponika*, II, 27 كتاب الزّرع، 3، 20

باب ما يحفظ الطعام من الفساد[1].

خذ ورق الرمان اليابس ومن رماد حطب البلوط ومن الجير اليابس ما شئت كيلة واحدة، ومن القمح مائة كيلة واخلط الجميع خلطا جيدا فان القمح يسلم من الآفات بإذن الله تعالى. وإن اخذ من ورق شجرة السدر وورق السلق فنقعتهما وخلطتهما بالحنطة سلمت من الآفات بإذن الله. وان خلطت بالشعير جصا منخولا بقدر ما ترى فيه بياضه ودفنت جرة مملوءة خلا ثقيفا وسط الشعير سلم بذلك من الآفات بإذن الله تعالى. قال بعض الحكماء: إن جعلت بعر الضأن و افسنتيين[2] يابسا سلم بذلك من الآفات وبقي القمح صلبا. وان نضحت جرة من ماء الزيتون على مائة جرة طعام لم يفسد ولم تقربه آفة. وان نضحت عليه ماء الافسنتين بقي ولم يفسد[3].

باب تخيير المواضع لغرس الكرم[4].

الأرض التي يضرب لونها السواد والحمرة أن كان فيها رطوبة فاغرس فيها الكروم فإنها موافقة لها. والأرض البيضاء للكرم الأبيض موافقة له. والأرض اليابسة الكثيرة الرمل هي للكرم الأسود أوفق. والعنب الأصفر والأخضر يخصب في الأرض الرقيقة. و لكن الأعناب ينبغي أن تغرس في أرق الأرض وأسفلها والعنب الذي فيه شدة فينبغي أن يغرس في الأرض الرطبة. ولا يغرس من كرم كثير الزرجون[5] في أصلها في أرض سمينة، فانك إن فعلت ذلك لم تبلغ أوان القطاف حتى يتمسس عنبها. و لكن اغرس من الكرم معتدلة القضبان. واغرس في الأرض السوداء من الكرم الكثيرة الحمل. وان أخذت قضيبا من كرم رقيقة القضبان ضعيفة فغرستها

1 – اس العوام، 29، 3

2 – شحرة مريم نتوىس الأنطاكي، ص 44

3 – طَارَانْطِيُس راجع *Géoponıka*, II, 27 كتاب الزّرع، 3، 21

4 – اس العوام، 7، 45

5 – الررحون، هو قصان الكرم أو العس

في أرض رقيقة لم تخصب، و لكن اغرسها في أرض سمينة فإنها تجود. وخذ القضيب من الجبل واغرسه في البقاع ومن البقاع فاغرسه في الجبل فانه يخصب. وإياك أن تغرس العنب في سفوح الجبال لأن السيل والماء تكشف أصولها.

باب تخيير الزرجون للغرس[1].

وليس كل الزرجون يصلح للغرس، فلا تأخذ من أعلا الكرمة ولا من أسفلها ولا مما ينبت في أصولها و لكن من وسطها مما لان من الزرجون وتقارب عقدة. والقاسي من الزرجون لا خير فيه، و لكن الجيد من الزرجون ما صفا لحاه وتقارب عقده. وليكن قطع ذلك بمنجل مسقي حاد. و لا يستأصل قطع قضبان الكرمة فتهلك، و لا قطع قضبان الغرس من الكرمة القديمة و لا من الغروس الحديثة، و لكن اقطع من ابن ست سنين إلى (ط)[4] نحو ذلك. وقال ذومقراطيس[2]: اقطع القضبان من الكرمة المتوسطة لا من قديم و لا من حديث، و لتكن زراعته سريعا. و إن لم يكن غرس القضبان في الحين فادفنها في أرض ندية إلى وقت غرسك إن شاء الله.

أسرع الكروم إدراكا وأكثرها ثمرة ما غرسته قضبانا وتركته سنتين ثم تقلعها بعروقها وتغرسها في مكان آخر فيكثر حملها ويزيد طيب ثمرتها. وكذلك كل شجرة غير الكرمة فان حكمها هذا الحكم . وكل كرمة أو شجرة إذا غرستها وأبقيتها في مكانها ولم تنقلها بعد أن يأتي عليها سنتان فإنها تكون قليلة الحمل جدا، وان أتيت بالغروس من مكان بعيد وظننت أن الريح قد أصابتها فأنقعه في ماء عذب يوما ثم اغرسه. وإذا كانت الزرجونة طويلة الأنابيب فيجعل في قضيب الغرس ثمانية أعين، وان كانت متقاربة العيون تجعل فيها عشرا، والمتقاربة العيون أجود وأفضل.

---

1 - اس العوام، 7، 45

2 - " و أفصل القصاں للعرس ما قد عرس مد سيں ثم تقلعه ىعروقه و تعرسه ڡي مكاں أحر و يسعي أں يكوں مں كرم لا عتيق و لاح حديث مں أصول كثيرة" ديمقراطيس، 7 (و)

كيفية الغرس[1]

نَقِّ الأرض التي تريد غرسها من جميع أصناف النبات والحجارة. فإن كان غرسك في سفوح الجبال السائلة و لا بد من ذلك، فالأمر أن يكون عمق الحفرة ستة أشبار إلى أكثر، لأن مياه السيول مع التراب تزيل التراب عنه فيبطل الغرس. وان كان غرسك في الوطي من الأرض فيجعل عمق الحفرة ثلاثة أشبار إلى أربعة، لأن الأرض السمينة لا يبلغ الحرّ منها أكثر من ثلاثة أشبار إلا أن تكون من الأرض التي لم تشقق، فان أنت قصرت الحفرة عما ذكرناه أفسدت الغرس وأحرقته. و لا تغرس أصل القضيب و لا أعلاه ولكن اغرس وسطه. فهذا قول جميع الفلاحين. ومعنى هذا الكلام أن يأخذ الغارس بيده القضيب ويثني منه أسفل الحفرة قدر الربع و يضع على ما ثني منه قدمه و يشده إلى الأرض بمبلغ طاقته و يرمي عليه من التراب شيئا، و يضع قدمه الأخرى على التراب الموضع على القضيب، و لا يزال يفعل ذلك حتى يبلغ وجه الأرض فهذه كيفية الغرس. و آخر الأمر شد الرجل على ما يثني من القضيب وردم التراب عليه لئلا يكون القضيب منفشا و ليكن بقية القضيب الخارج (و[5]) فوق وجه الأرض من أول العمل قد عطفه الغارس له بين فخذيه لئلا تناله آفة عند رمي التراب على طرفه المدفون. و ليكن بين كل قضيب في الغرس من خمسة أذرع إلى ستة. و لا ينبغي أن يغرس الأبيض والأسود في مكان واحد بل يكون كل جنس على حدة فهو أفضل وأحسن لأن طبيعة الأعناب مختلفة، منها ما يتقدم نضجه ومنها ما يتأخر فلا يستقيم جميعها في أوان واحد. وقال بعض الحكماء: اجعل في كل حفرة قضيبين فان أخطأ أحد القضيبين أخذ الآخر واستمسك، وان استمسكا جميعا نزعت أضعفهما لأن القضيب إن كان وحده كان أقوى له، وإذا كان قضيبين التفت عروقهما وضعف، وتمرغ أطراف القضيبين باخثاء البقر قبل غرسها فان

---

1 - ابن العوام، 7، 45

الديدان تهرب منها. وغرس الكروم من أول الشهر العربي إلى نصفه أفضل، و لا تغرس الكرم و لا تزبره أبدا إلا بعد ساعتين من النهار إلى عشر ساعات، لأن الرياح التي تفسد إنما تكون أول النهار وآخره.

باب ما يسرع نبات الكرم ويحفظه[1].

اقطع ثمرة البلوط الصغير والق منه مع كل غرسة في أسفل الحفرة. وقالت الحكماء: يؤخذ زبل البقر فيدق ويعجن يبول ويلطخ منها الزرجونة عند الغرس فانه يجود ويسرع نباته ويدفع عنه كل ما يؤذيه من الدود وغيره. ويدق ورق البلوط و النانخاه[2] و يجمعان و يعلق منهما في جميع أصول القضبان وفي أصول كل شجرة تغرسها يسرع بذلك نباتها وتغلظ عروقها وتكثر ثمرتها وتطيب و تحسن. وان ألقيت في أصول الكرم حين تغرسها شيئا من تبن الباقلاء ثم تحثوا عليه التراب وسقيته فان ذلك يدفع عنه كل ضرر بإذن الله تعالى. وان دهنت القضيب عند غرسه أو نقعت طرفه بالزيت وغرسته طاب طعمه واشتدت حلاوته.

باب زبر الكروم[3].

ويسمى التحلية. تزبرها قبل أن تبدو عيونها بالخروج لأنك إن زبرتها بعد تعيينها ألقت أكثر ثمرتها، فان فاتك زبرها فاتركها حتى تنتشر عناقيدها، ثم ازبرها و أَزِل ما يجب زواله ونق ما حول الكرمة من غرائب الشجر. وليس شيء من الكروم أحوج إلى التنقية من الحديث ما دام رخصا وغضا، فان الذي ينبت فيه يضره ويفسده[4].

---

1 - نفس الإحالة

2 - هذه تسمية مصرية للنبات المسمى بانخواه و نانخة من الفارسية و هو النبات المسمى علميا (*Carum copticum*) و بالفرنسية (*Ammi*) و من أسمائه العربية الأنيسون البري الأنطاكي، ص 121

3 - ابن العوام، 9

4 - دَمْفِيلُس راجع *Géoponika*, V, 23 كتاب الزّرع، 4، 28

باب ما يطرد الدود والهوام عن الكروم[1].

اطل المنجل الذي تزبر به الكرم بشحم دبّ 5 ط* فانك ترى عجبا. واطل المنجل بالثوم المدقوق خلطا، فكلما ذهبت رائحته دهنته منه. وإذا دهنت الكرم بأرواث الدواب عند شدة البرد سلمها الله من المضرة. وخذ من الشمع والكبريت أجزاء متساوية فضعها على جمر وبخر بها الشجر والكروم فانه يهلك كل دود ونمل يجد رائحته. وإذا دخنت الكرم بخثاء الحمير و بخثاء البقر والزيت نفيا عنه الروائح. واطرد الدود أيضا يؤخذ رماد حطب التبن فيذر على الزّرع والبقل فانه يعتل الدود عن جميع الأشجار. وإذا دخنت الشجر بالكبريت ولقاح الأذخر أذهب الدود عن الأشجار. وإذا دفن في وسط الأرض كرش كبش بفرثه، و لا يوارى بالتراب فان جميع دود ذلك الأرض يجتمعون إليه فيؤخذ ويحرق، فان بقي شيء من الدود افعل مثل ذلك حتى لا يبقى منه شيء. و إن دخن الزّرع أو الشجر بثوم أو بعيدان الثوم تساقط كل دود يجد ريح ذلك. وان أخذ بول ثور وعصير زيت جديد ونضح على الزّرع والبقل هلك الدود. ويؤخذ منه وقرن أيل وظلف شات ونشارت عظم الفيل، أي ذلك كان فدخن به الزّرع فلا يبقى فيه دود إلا هلك بإذن الله. وكل كرمة يقل حملها وينقص ثمرها فانقر في أصلها بمنقار وادخل في ذلك الشق حجرا واسقها بولا قديما واخلط زبلا بتراب واطل أصل الكرمة وموضع الحجر، وليكن ذلك في آخر الخريف.

قال الحكيم: والكرم إذا لم يحمل فشق شيئا من أصله وصب عليه شيئا من أبوال الناس وغطها بالتراب. و إذا احمرّ ورق الكرمة أو ورق شجرة من الشجر فيقال أنها أفسدها البرق، فدوافعها أن تثقب أصلى الكرمة بمنقار ويضع فيه وتدا من بلوط على قدر الثقب وغم موضعه بالتراب. وقال بعض الحكماء: ويشق أصل الكرمة ويصب في شقها ماء أو الماء و الملح. و قال آخر:

---

1 - اس العوام، 14

يطبخ زيت بزبد البحر ويلطخ به أصل الكرمة. وكل كرمة متغيرة خذ لها رماد البلوط و رماد الزرجون واعجنهما بخل واسق بذلك أصل الكرمة المتغيرة. وكل شجرة أفسدها البرق فأحمر ورقها فعلاجها أن تأخذ لها ورقة الكرمة وتدقه وتعصره وتخلطه بخل حاذق وتصبه في أصلها. وخذ الرجلة[1] فدقها ناعما واطل بها أصل الشجرة تبرأ بإذن الله. و الكروم التي تدمع هي بمنزلة الإنسان الذي لا تطبخ معدته الطعام. فخذ منجلا حادا فانخر به أصلها، فان لم يندفع ذلك فانظر إلى أغلظ عرف يكون فيها فاقطعه [6(و)]، وخذ ماء الزيتون وأطبخه حتى يذهب نصفه واطل به مواضع القطع. وانظر إلى العين التي في أصلها فاطلها بخرو العصافير فانه مجرب. و كل كرم يسرع إليه التجليد من قبل موضعه ورياحه، فازرع في أصله الفول فانه يدفع عنه التجليد بإذن الله تعالى. وكل كرمة تفسد وتلقي ثمرتها ويبيض ورقها وييبس ويصير زرجونها متحببا، أعجن لها رماد النخل وأطل به تلك الكروم وانضح به ما حولها فانه نافع مجرب. وانظر الكرمة التي يسقط عنبها كثيرا و لا يورد حتى يتماسك وهو صغير فخذ البقلة الحمقاء[2] وأعصر ماؤها وأطل به أصول الكرم. وقال بعض الحكماء: خذ أربع حفنات من رماد قديم و ألق منه في أصل كل كرمة يتماسك عنبها إن شاء الله.

باب تلقيم الكرم[3].

اجعل قضيب التلقيم أملس أرطب ما تقدر عليه ويكون متقارب العيون و لا تترك فيه إلا أربعة عيون وتلقم به ساعة قطعه فان تركته أياما فأضمره في التراب في الأرض وصب عليه الماء فإذا بدا يهيج فلقم به، وأفضل ذلك في شهر ابريل، وابري طرف القضيب مثل القلم، ويكون جانب القضيب

---

1 – ابن بصّال، ص 155

2 – تسمى السدلاقة و الرجلة الأنطاكي، ص 57

3 – ابن العوام، 7، 45

مع موضع الشق حتى يفضي لحاء القضيب ما انشق منه. وقال ذو مقراط[1].
وليكن قضيب التلقيم رطب قريب القطوف، ولا تلقم به وقت ما تقطعه ولكن اجعله في إناء واجعل في أسفله شيئا من التراب قد خلط بشيء من زبل طيب وتغطيه أيضا كهيئة سبعة أيام، واحذر أن يصيبه ريح ثم أخرجه ولقم به. و ليكن القضيب في غلظ الإبهام، ويقطع بمنجل مشحوذ وتخفي التي في ثقبه الكرمة قدر عرض أصبعين أو ثلاث، كما تبري القلم حتى يستبين ثقبه، وليكن الثقب على قدر ما تبري من أصل القضيب لا يزيد و لا ينقص، ولتجعل في موضع أصله شيئا من رماد أو تراب جاف لينشف ما كان فيه من بلل، ثم يشد أصله بنسعة وتجعل عليه طينا حارا مخلوطا بخثى البقر، وتنضح عليه ماء كل عشية في الصيف حتى يقبل الصلة، فإذا عَقَدَت وأورق طرفها أركزت جانبها غصنا ومسكتها إليه، فإذا قطعت عنها كل بنسعة وخيط ليجري إليها ماء الشجرة أو الكرمة. والتلقيم على ثلاثة أوجه فمن الناس من يلقم في ساق الكرمة ومنهم من يلقم في أصلها ومنهم من يلقم في القضبان. فمن لقم في الأصل فيحفر التراب عن أصل الكرمة ويقطع جميع زرخونها وساقها ويقلمها، بان يحفر عند أصل الكرمة قدر شبر ثم يثقب في أسفل الأصل ثقبة [6(ط)] ويجعل فيها قضيب الغرس ويعيد التراب عليه. ومن يلقم فوق الأرض فليكن على مقدار ذراع على وجه الأرض وذلك عند خروج البرد في أول الربيع وليكن القضيب طول قدمين في غلظ الإصبع. والتلقيم على وجه الأرض أفضل إذا كان الأصل غليظا يقبل التلقيم. وما لقمت من شيء فغطه بورق الشجر ليقيها من الثلج والجليد. ويشق التلقيم بقفاء منجل حاد طول ثلاثة أصابع ويدخل القضيب في ذلك الشق ويطين عليه بخرقة يوثقها بها. وينبغي أن تكون الآلة التي يلقم بها من أجود الحديد[2].

---

1 - ديمقراطيس، 8 (ط)

2 - فلُرَبطِيُس راجع *Géoponika*, IV, 12 كتاب الزّرع، 4، 23

باب الحيلة أن تكون في عناقيد الكرمة أسود واحمر وابيض[1]

فخذ قضيبا من كرمة بيضاء ومن حمراء ومن سوداء ثلاثة قضبان وتضم بعضها إلى بعض وأوثقها رباطا واحفر حفرة في أرض طيبة وضمها بالتراب، وبعد ثلاثة أيام انضح عليها من الماء العذب. وإذا أتت عليها سنتان اقطع من تلك القضبان زرجونة واغرسها، فإن عناقيدها تكون مختلفة اللون في الحب أن شاء الله. فان أخذت ثلاثة قضبان وشققت كل قضيب منها برفق وتلطف لئلا تفسد عيونها ولا لبابها ثم ضممت كل قضيب إلى خلاف اللون وترح في أول الأمر (كذا) أن تكون قياس كعوب ثلاثة قضبان واحد وليكن إذا شققتها وضممتها التفت كعوبها وصارت كعبا واحدا في رأي العين، فشدها بنسعه من برد أو قشر شجرة الطرف أو الصفصاف واطلها بخثي البقر، ثم طينه بطين حار واغرسها في حفرة يكون عمقها ذراع فوق الأرض منها كعبتان لا غير، واسقها كل ثلاثة أيام حتى تستمسكن فإنها تصير قضيبا واحدا. وبعد عامين اقلعه من الموضع الذي غرسته فيه وتغرسه في غيره فان ثمرته تكون مختلفة بإذن الله. ومتى أردت قلعه فلا تعمق أكثر من ذراع لأن الشمس تدخل حرارتها إليه فتصير له عروق ويكون أهون عليك في قلعه و الإرفاق على عروقه. وما لا تريد قلعه و لا تحويله فَعَمِّق حسبما تقدم ذكره. وإذا أردت أيضا أن تجعل في الأصل الواحد ألوانا من العنب فاقطع من كل صنف من الكرم قضبانا واجمعها وافتل بعضها ببعض فتلا رقيقا مستويا، وخذ عظم ساق البقر أو ساق الثور أوسع ما تجد، واربط القضبان عند رؤوسها وأطرافها ووسطها رباطا لطيفا حتى يلحق بعضها ببعض وادخل القضبان في العظم (و[7]) و اخرج أسافل الزرجون من الساق وضم ذلك في أرض طيبة مزبلة. وأسقه كل ستة أيام ماء عذبا فانه إذا نبت والتف وصار شجرة واحدة وفيها أعناب مختلفة باذن الله تعالى. وإذا أردت أن تكون

---

1 – اس العوام، 15

للكرمة رائحة كرائحة المسك أو العنبر أو الكافور أو غير ذلك، فإذا شققت القضيب و أزلت لبابه على ما وُصِف لك، فاحش القضيب المشقوق بأنواع ما شئت من الطيب وشده بنسعات بردي أو قشر الصفصاف و أغرسه ودبره على ما وصفته لك، فان رائحة العنب تكون مثل رائحة الطيب الذي جعلت في القضيب بإذن الله تعالى[1].

تزبيل الكروم[2].

تزبل في السنة الثانية من غرسها عند كل أصل قدر قدم من زبل قديم بعد ما تنقي عروقها الظاهرة، وتقلع باليد من غير حديد حتى تغلط وتشتد، وينبغي أن يلصق الزبل بالأصول. وإذا كان الكرم في الأرض الرملية فخير ما زبلت به زبل المعز. و أما ما كان في الأرض البيضاء فزبل البقر لأنه قوي طبعه. والكرم يخصب إن زبلت أصوله بزبل الحمام. وزبل الكرم إذا خرج الشتاء والأرض رطبة وارم الزبل على التراب. وتبن الفول عوض الزبل إذا لم يكن الزبل. و مما يجود به الكرم أن يغرس في السنة الثانية من غرسه الفول والقرع والقثاء والسلق والنانخاه فان جميع هذه الأشياء توافقه. وإياك أن تزرع شيئا من ذلك في السنة الأولى من غرسه. وإياك أن تزرع في الكرم الخس والفجل ولا الشلجم[3] ولا الكرنب لأنه يضر بالكرم إضرارا قبيحا بخاصية فيه.

صفة تلقيم العنب في التفاح[4].

إذا جاورت شجرة التفاح الكرمة، فاثقب في شجرة التفاح ثقبة فوق الأرض وتعمد إلى قضيب الكرمة فادخل طرفه في الثقبة وأخرجه من المكان الآخر، واترك القضيب على تلك الحالة وسد الثقبة. فإذا أتت عليه سنتان والتأم وصلح، فاقطع قضيب الكرمة عند الثقبة واترك طرفه يزيد فيمتد مع

1 – دِيدِمُس راجع *Géoponika*, IV, 14 كتاب الزّرع، 4، 25
2 – اس العوام، 7، 45
3 – هو السلحم المعروف باللفت الأحمر المدور دياسقوريدوس، 2، 59
4 – اس العوام، 7

الشجرة بعرشه أو ألقه إلى شجرة التفاح فانه يعلوها. وينبغي أن يقطع أطراف شجرة انتفاح التي رجعت قوتها إلى الكرمة[1].

باب معرفة ما يخرج من النواة و بزره[2].

و هو اللوز و الجوز و النذق و الخوخ و المشمش و الخرنوب[3] و البطم[4] و السرول و الصنوبر و النخيل و الإجاص[5] و الأترج[6] و العنب و التين و العناب و التفاح و السفرجل و الرمان و الكمثري[7] و الأجاص و الدلم[8] و الصفصاف و الغبيراء[9] و القراصيا[10] و الزيتون و التوت و الشاه بلوط[11]. وفي بعض النسخ و الفستق و الجوز و اللوز، فهذه كلها إن شئت أن تغرسها قضبانا و إن شئت تغرسها أصولا، و إن شئت تغرسها حبا إن شاء الله تعالى.

باب إذا أردت ان تحول شجرة من موضعها إلى موضع آخر[12].

فاحفر لها حفرة بقدر ما يصلح لها ثم احفر على أصل الشجرة حتى تستخرج عروقها كلها برفق، وخذ من تراب أصلها واجعله في الموضع الذي تحولها إليه، وزبله من زبل قديم قليل وأنصب الشجرة فيه نصبا مستويا. [7] (ط)، واخق حولها من ترابها الذي كانت فيه فإنها تحب تلك التربة، و اسقها لوقت فإنها تستمسك بإذن الله تعالى. وان قدرت أن تحول الشجرة وترابها

1 – دِيدِمُس راجع *Géoponika*, IV, 13 كتاب الزّرع، 4، 24
2 – ابن العوام، 7
3 – هو شجرة أم كلب بالعربية دياسقورديوس، 3،145 و الإسم العلمي (*Anagyris fœtida L*)
4 – البطوم بتونس الأنطاكي، ص 57
5 – الإجاص يوافق في كتب اللغة العربية ما يسمى بالفرنسية (*Prunier*) و هي عْوِينَة بتونس الأنطاكي، ص 107
6 – يسمى أيضا تربج (طربج) أو تفاح العجم، و يسمى ليمون اليهود لأنهم يحملونه في الأعياد الأنطاكي، ص 30 و ص 107
7 – في تونس يوافق ما يسمى بالفرنسية (*Poirier*) الأنطاكي، ص 106
8 – وشَق، و يدعى رَغطُوط الأنطاكي، ص 101
9 – الزيزفون، و تسمى بتونس الزبحورة و بصفاقس الزبزفورة و البذة الأنطاكي، ص 86
10 – رسمت في الأصل المعتمد قراسيا
11 – القسطل الأنطاكي، ص 75
12 – ابن العوام، 6، 1

مستمسك بعروقها كلها فإنه أفضل واجل أن ثبتت و لا تتغير بإذن الله تعالى. واحذر أن تحول الشجرة من موضع جيد وماء عذب إلى موضع ردي وأرض مالحة وماء مالح، فان فعلت وهلكت فلا تلوم إلا نفسك. وإذا دققت بلوطا ونانخاه وجمعتهما وألقيت منهما في أصل كل شجرة تغرسها نفعتها وأكثر ثمرتها[1].

باب غرس التين[2].

غرس التين في البلدان الباردة في مارس، و في الأرض الحارة الكثيرة السقي في دجنبر وينار. ولا تسرف عليها بالسقي فيفسد ويعفن ومن غرس التين بعروقه فليغرس معه عنصلا فإنه ينفعه بإذن الله تعالى. وانقع ما تريد غرسه من قضبان التين بعروقه بماء وملح فانه يجود. وينقع في ماء وخثى البقر ويغرس. وإن زبل في أصولها رماد نفعها. وان أردت أن تعلو كثيرا فاغرس القضيب منكسا. وان طليت أصولها بزبل الحمام وفلفل ودهن أسرع نباته. ويلقم التين في التوت وفي شجرة الدلم. وإن أردت أن تكون في شجرة التين ألوانا شتى فخذ من كل لون قضيبا واجعلها في ساق، على ما تقدم ذكره كما وصفته لك في العنب، فانه يخرج ما وصفت إن شاء الله[3]. قال ذومقراطيس[4]: جربت في نصب التين وجها آخر حسنا، وهو أن تأخذ حبل ليف فتعركه في التين الطيب عركا شديدا حتى يلصق به حب التين، فتحفر حفرة طويلة وتضع الحبل فيها وانقله واغرسه حيث أحببت إن شاء الله تعالى. وان غرسته في البقاع فباعد بعضه عن بعض. وإذا أردت أن لا يسقط ورقه فاثقب في أصله ثقبا واجعل فيها من الأعواد ما شئت. وان طليت أصل شجرة بحنا وزيت لم يتدود التين. وان أردت أن لا يطلع النمل في شجرة التين فدق بصل

---

1 – امْفِيلُس راجع *Géoponika*, X, 86 كتاب الزّرع، 5،

2 – ابن العوام، 7، 25

3 - افرِيقَانُس راجع *Géoponika*, X, 53 كتاب الزّرع، 5،

4 - الصواب ديمقراطيس

العنصل واخلطه مع السمن واطل به ما فوق الأرض من ساق الشجرة بذراع في شهر مارس. ومما يعظم شجر التين زبل الدجاج. وإذا علقت على شجرة التين ورد السوسن لم ينثر ثمرها بإذن الله تعالى. وإذا أردت أن يخرج لك التين ألوانا مختلفة، فخذ حبة من تينة سوداء وحبة من تينة بيضاء ومن غير ذلك من الألوان فأضمره تحت الأرض وزبله واسقه الماء العذب[8](و) من غير إكثار، فإذا نبت وصار ابن سنتين فاقلعه واغرسه في مكان آخر يطعم لك حبا كما وصفت لك إن شاء الله تعالى[1].

غرس التفاح[2].

يغرس في البعل في نوفمبر، ويسقي حتى يعلق ثم يرفع عن السقي. وان كان غرسه في موضع سقي اغرسه في فبراير. وان وقع به الدود فاكشف عن أصله وصب على عروقه أبوال الناس قد خلط بزبل المعز ستة أيام و اسقها في اليوم السابع أبوال البقر و الغنم و الإبل. وإذا طلي أصلها عند الغرس بمرارة البقر لم تدود وصار تفاحها أحمر. وإذا مرضت شجرة التفاح فصب على أصلها زبل الحمام مبلولا بماء عذب. وان تناثر ورق التفاح وصغر تفاحه فاكشف عن أصل شجرته ثم خذ روث الحمار فحله بالماء وصبه في أصلها ستة أيام ثم تزبلها وأضمرها بالتراب. ويلقم التفاح في الرمان فيخرج التفاح أحمرا ويلقم في شهر نوفمبر إلى شهر فبراير[3]. وان أردت أن تكتب في التفاح الأحمر وتنقش فيه ما شئت، فاعمد عليه وهو أخضر واكتب عليه بالمداد ما أحببت واتركه حتى يكمل نضجه ويحمر فامسح المداد تجد ما كتبت ظاهرا إن شاء الله تعالى.

1 - أفْرِيقَانُس راجع Géoponıka, X, 53 كتاب الزّرع، 5، 33

2 - اس العوام، 7، 38

3 - أدطُلْيُو راجع Géoponıka, X, 18 كتاب الزّرع، 5،

غرس الرمان وما يمنعه من التشقق[1].

اغرسه في مكان دِفِيّ قليل الماء. وان أردت أن لا يشقق ثمره فاغرس مع كل أصل بصلة. والرمان والريحان بينهما مواخاة ومحبة وإذا غرستهما معا اتصلت عروقهما. وإذا تشقق الرمان فاطل أصله بالآس، وهو الريحان، مدقوقا واسقه ماء رماد الحمامات. ومتى غرست قضيب الرمان مقلوبا لم يتشقق قشر ثمره أبدا ويكثر ثمره وحمله. وان أردته بلا عجم، فشق أصل القضيب الذي تريد غرسه قدر أربعة أصابع واخرج لبابه ولف عليه شيئا واغرسه. وان ألقيت عليه ورق العنصل كان أفضل، ثم تدفنه وتسقيه ماء حارا فانه يلتحم ويتمسك ولا يكون لرمانة عجم. قال الحكيم: وان شققت قلب أصل الشجرة التي تكون في الأرض، وفعلت بها مثل ذلك مما وصفت لك في قضيب الغرس، فان رمانه يكون بلا عجم. و إذا ألقيت تراب الرصاص في أصل شجرة الرمان لم يسقط زهرها. وإذا أردت أن تجعل الرمان الحامض حلوا، فاثقب الأصل واجعل فيه عود داد والقي في أصلها زبل الخنازير واسقها أبوال الناس العتيقة، فان حب الرمان يصير حلوا إن شاء الله تعالى[2].

غرس اللوز[3].

يغرس في الخريف بعد قطاف العنب إلى أن يدخل فصل الشتاء وذلك لِبَكُورَتِهِ في التوريق والتنوير قبل سائر الشجر. يغرس منه الفسيل الصغير من أصله ويغرس من أطراف الشجر أيضا[8](ط) و الفسيل أفضل. ومن أراد أن يزرع حبه فليقشره ويغرسه منكسا في حفرة قد حفرها له. فإذا أنبت ومر له سنتان، فانقله إلى مكان آخر وذلك في النصف الأول من نوفمبر. ويصلح في أساس الجبال الجنوبية و في الأرض القبلية التي لا تسقى. وان أخذت

---

1 – اس العوام، 7، 18

2 – فلُرَنطِيُس راجع *Géoponika*, X, 29 كتاب الزّرع، 5، 39

3 – اس العوام، 7، 20

اللوز الذي تريد غرسه وجعلته في ماء و زبل أربعة أيام، ثم أخرجته و نقعته في عسل يوما و ليلة، ثم أخرجته من العسل و غرسته في حفرة عرضها شبر، و اجعل أسفل اللوزة هو أعلاها في الحفرة، ثم اسقها الماء بعد ثلاثة أيام مرة ثم لا تسقه بعد ذلك إلا في كل شهر مرة، فإذا نبت و مر له سنتان فحوله من مكان إلى مكان وأضمرها بالتراب ، يخرج اللوز حلوا طيبا. قال الحكيم: اللوز توافقه الأرض الرقيقة، فمن أراد غرسه من الحب فليأخذ اللوز ابن سنة فهو أفضل ما يغرس ويغرس على ما تقدم وصفه. وان كان اللوز مرا و أردت أن يحلو بإذن الله، فاثقب في شجرته ثقبا في الأرض بشبر و يكون الثقب مربعا فان اللوز يحلوا بإذن الله. وان أردت أن يكون قشره رقيقا فاكشف عن أصله واسقه قبل أن يخرج من زهره ماء عذب في السحر وقبل الصبح، فإذا خرج زهره فكف عنه. فإذا كانت شجرة اللوز لا تثمر فاكشف أصلها في الشتاء واثقب فيه ثقبا وضع فيه عود داد واسقه بولا عتيقا ثم ضمرها بالتراب[1].

غرس الجوز[2].

اعمل الجوز كما وصفت لك في اللوز. وان أخذت الجوزة قبل غرسها ونقعتها في بول صبي لم يحتلم، خمسة أيام، ثم غرستها دون قشرها، وفرك باليد فركا، ويصنع ذلك في اللوز، فيكون كذلك. وان كسرت الجوزة برفق لئلا يزول لبابها عن حاله ورميت قشرتها ولففت اللباب في ورق كرمة أو صوفة، لئلا يصل إليها الدود والنمل، ثم غرستها خرج ثمرتها جوز بلا قشر بإذن الله. وليس يقبل الجوز التلقيم لرقة لحائه. وإذا لم تحمل الجوزة فاثقب في أصلها ثقبة واحدة واجعل فيها عود داد فإنها تثمر بإذن الله. وان كانت الجوزة تلقي زهرها فعلّق عليها خرقة قرمز من مزبلة. وإذا غرست الجوز حبا فاجعل ما تغرسه من الحب منكسا، وتنقله بعد سنتين، وتغرسه في مكان

---

1 – قُرَبطِيُس راجع *Géoponika*, X, 57 كتاب الزّرع، 5، 51

2 – ابن العوام، 7، 24

لا بارد و لا حار واغرسه. و تنقله في شهر فبراير أفضل.[1]

باب غرس البندق.[2]

قشره و اغرسه منكسا في حفرة في فبراير و انقله بعد سنتين في النصف الأول من مارس و دبره تدبير اللوز و الجوز. و توافقه الأرض البيضاء.

باب غرس الصنوبر.[3]

انقع حب الصنوبر في بول غلام لم يحتلم خمسة أيام ثم اغرسه في أرض رملية في شهر فبراير. قال ذو مقراطيس: إذا خلط حب الصنوبر مع شعير وغرسه طال في سنته ما لا يطول بغيثر شعير ثلاث سنين.

غرس شاه بلوط.[4]

يغرس من القضبان و من الثمرة في الأرض القوية و غرسه من القضبان أفضل و بعد أن يأتي عليه سنتان ينقل و يغرس و يكون نقله في مارس و يزبل بزبل البقر مخلوطا بتراب الأرض المحجورة توافقه.[5]

غرس الفستق.[6]

يغرس من حبه ويحفر له حفرتان [9] (و)، وتغرس في الحفرة الواحدة ثلاث حبات قائمات وثلاث حبات منكسات، فإذا نبت واتى عليه سنتان فانقلها واغرسها في شهر يناير في مكان ندي. ويصلح غرسه في البعلي وفي السقي. و اعلم أن الحبات التي غرستها منكسات هي التي يزكى بها شجر الفستق، والحب الذي غرسته قائما هي الأنثى التي تطعم. قال ذو مقراطيس:[7] متى

1 - دَامَغَرَنُطُس راحع *Géoponika*, X, 64 كتاب الزرع، 5، 56

2 - قمت بالإضافة من (ب) ابن العوام، 7، 44

3 - أتممت النص من (ب) ابن العوام، 7، 21

4 - قمت بالإضافة من (ب) ابن العوام، 7، 9

5 - دَامَغَرَنُطُس راحع *Géoponika*, X, 63 كتاب الزرع، 5، 55

6 - ابن العوام، 7، 14

7 - كذا في الأصل و هو تحريف، و الصواب ديمقراطيس

أخذت ورق السرول وجففته ودققته حتى يصير غبارا، ثم وقفت على الشجرة الفستق في يوم ريح وذررته عليها ثلاث مرات أو خمسة في عشرة أيام فالشجرة قد أجرت[1].

غرس الكمثري[2].

اعلم أن الكمثري توافقها الأرض الباردة الممتزجة الرياح الكثيرة المياه. وهو أصناف شتى. فمن أحب أن يجعله كثيرا الحمل حلوا طيبا فليثقب أصل شجرته ثقبة، ويدخل في ذلك عود بلوط ويضمه في التراب. قال ذو مقراوطيس[3]:نق الحفرة التي تغرس فيها من الحصى و الحجارة الصغار والأشياء الجاسية فإن الكمثري على قدر المكان الذي يغرس فيه يكون من الرطوبة والخشونة. وإذا وضعت الغرس في حفرة فالقي عليها ترابا قد نخل ثم اسقه الماء العذب. ويصلح غرس الكمثري في المواضع الباردة الرطبة ويغرس في شهر مارس. وإذا كانت شجرة الكمثري تلقي بورقها فخذ عكر شراب طيب واكشف عن أصل الشجرة، وصب العكر عليها، ثم أضمره بالتراب واسقي الشجرة من العكر المخلوط بالماء خمسة عشر يوما، فإن زهر الشجرة يسلم إن شاء الله تعالى[4].

غرس الأترج[5].

اغرسه في شهر مارس وتوافقه الأرض الحارة و التربة السوداء. توافقه ريح الجنوبية. وتوافقه حيطان البستان. وينبغي أن يطلل في الشتاء لأن الثلج والجليد يضرانه غاية الضرر. ويغرس منه أوتاد في غلظ الهراوة طولها ذراع وأكثر[6].

1 – دِيُفَانُس راجع Géoponika, X, 11 كتاب الزّرع، 5، 58
2 – ابن العوام، 7، 12
3 – اصواب ديمقراطيس
4 – فلُرَنطِيُس و ديماس و طَارنطِيُس و دِيمُقْرَاطِيس راجع Géoponika, X, 22 , 23 , 24 , 25
5 – ابن العوام، 7، 29
6 – فلُرَنطِيُس راجع Géoponika, X, 7 كتاب الزّرع، 5، 76

غرس السفرجل[1].

يصلح السفرجل في كل أرض مستوية تصيبها الشمس. وتُغْرَسُ منه أوتاد في يناير و فبراير. ويزرع من الحب في شهر أكتوبر[2].

غرس الخوخ[3].

يغرس نواة في شهر مارس. ويغرس القضيب الذي يخرج من النواة في شهر يناير وفبراير. وإذا سقي كان اجعل لخروجه. ومتى دفنت نوات الخوخ في الأرض سبعة أيام ثم أخرجته، وقد تعلق، وألقيت فيه زنجفورا[4] مسحوقا، ثم غرسته احمرت ثمرته. و متى كشفت عن أصل شجرة الخوخ ونقبت فيه نقبة و استخرجت لبابها، ثم ضربت فيها وتدا من شجرة خرنوب صغر نواه جدا.

غرس الإجاص[5].

يغرس بأصوله من أول شهر فبراير إلى أول شهر أبريل [9](ط)، و لا يغرس قبل ذلك ولا بعده. ويغرس في الأماكن الباردة الرطبة المفتوحة نحو الشمال. وإذا صببت على أصل شجرته عكر الخل لم يدود وزاد في حموضته. وإذا طليت جذوع الشجرة بمرارة البقر لم يتدود أيضا. وإن كان في شجر الأجاص مثل الحصا فاكشف عن أصل الشجرة، وتأخذ ترابا وليفا وأضمره به فإنه ينصلح إن شاء الله تعلى[6].

غرس النخيل[7].

احفر حفرة عمق ذراعين وأملأها ترابا وزبلا، وخذ نواتا والقها في الحفرة،

---

1 – اس العوام، 7، 36

2 – العَيُنُيكُس إلى كل من دِيدِمُس و ديمانُس و دِيمُقْرَاطِيس راجع *Géoponika*, X, 26 , 27 , 28

3 – اس العوام، 7، 41

4 – الرىحمورة

5 – اس العوام، 7، 42

6 – بامْفِيلُس راجع *Géoponika*, X, 39 , 40

7 – اس العوام، 7، 43

ويكون شقها قبالة المشرق ثم أضمرها بالتراب والملح وزبل قليل، ثم غطي مكان الحفرة بورق الشجر واسقها حتى تنبت، ثم اقلعها وانصبها في أرض مالحة فإن لم تكن مالحة فألق في الحفرة ملحا، وتعاهدها كل سنة بالملح فان النخل يجود عليها إن شاء الله تعالى. قال ذو مقراط[1]: خذ النواة وأصدعها من وسطها، وضعها في الحفرة وألزم ما صعدت منه الأرض، واستقبل بالرقيق من أحد طرفي النواة المشرق. وإناث النخل تحن إلى ذكورها. فان أنكرت حال النخلة و اعلم أن ذلك لشوقها إلى الذكر، و ألقح النخلة من طلع الذكر فيها تصلح ويتوفر حملها إلا بطلع الذكر إن شاء الله تعالى[2].

غرس الزيتون[3].

يغرس في الأرض البيضاء الجافة غير الندية، والزيتون يحب الأرض الرطبة المهزولة ذات الحجارة الصغار، ويوافقه الأرض السوداء الرملية، ولا يصلح في الأرض اليابسة التي يشتد فيها. وينبغي أن يحفر حفرا ويتركها سنة مفتوحة لتصيبها الرياح والشمس والأمطار. وليكن عمق كل حفرة خمسة أشبار، وبين كل حفرة و الأخرى ستة أذرع. و يجب أن يكون قضبان الغرس ملسا من شجرة تكون كثيرة الحمل ويكون القضبان مثل قضبان الكرمة التي تغرسها. والوقت الذي يغرس فيه شهر أبريل. واسق الغرس كل يوم مرتين حتى يعلق. و إذا قل حمل الزيتون فاكشف عن أصلها من ناحية الجنوب، واثقب فيه ثقبة نافذة إلى جانب الشمال، ثم خذ قضيبين من شجرة كثيرة الحمل وادخلهما في الثقب مختلفين، واجذب كل واحد منهما إلى الناحية الأخرى حتى يعظم الثقب منها، ثم اقطع من القضيبين من الجانبين جميعا قطعا رقيقا، و لا تفصل بينهما بشيء، وطين الجانبين بطين حار مخلوط بشعير يكثر بذلك حمل الزيتون بإذن الله تعالى.

1 – كدا في الأصل و هو تحريف، و الصواب ديمقراطيس
2 – راجع *Géoponıka*, X, 4 كتاب الزرع، 5، 50
3 – اس العوام، 7، 1

وقال قراطيس[1]: إن قضيب الدردار والبلوط يفعل مثل ذلك. وإن كان ثمر [10 (و)] الزيتون صغيرا صببت على أصولها ماء الزيتون مخلوطا بمثله ماء عذبا. فإن كانت تلقي ثمرها فألق عندها تبن الفول واسقها ماء الزيتون وملحا وماء عذبا. فان كانت مريضة فاثقب فيها ثقبا وادخل عود دردار[2] أو عود زيتون. واعمل بالزيتون المثمرة كما تعمل بالكرمة من الحرث والزبر والتزبيل. واطل غرس الزيتون التي على وجه الأرض بالرئة وخثاء البقر ممزوجين. ومتى كانت الزيتونة لا تحمل وكبر ورقها، فأخرط من ورق البلوط ودقه وصب عليه الماء واسق الزيتون بذلك الماء يكثر حملها إن شاء الله. و تلقيم الزيتون في النصف الأخير من مارس إلى آخر مايه وإذا لقمت قضيب الزيتون في أصل كرمة كان زيتها حلوا إن شاء الله[3].

غرس التوت[4].

توافقه الأرض اليابسة القليلة الريح لئلا تزيل أصله عن شجرته في الأرض. يغرس منه أوتاد بغلظ هراوة وطوله ذراع، ويكون غرسه في فبراير ومارس، ويحفر للوتد حفرة ويضربه فيها. وإذا سقيت أصوله عكر الخمر أسرع إنضاج ثمره وطيَّب ورقه لدود الخز[5].

غرس القراسيا و يسمى حب الملوك[6].

يغرس بأصله في شهر يناير. وتوافقه الأرض الباردة. وإن أردت أن يكون حبه أسود فلقمه في كرمة سوداء[7].

---

1 – ديمقراطيس، 28 (و)

2 – هو الشحر الذي يثمر لسان العصفور عد أهل المغرب و هو عير شحر النق، وهو من أعظم الأشحار دياسقوريدوس، 3، 125

3 – فلَرَبطِيُس راجع *Géoponıka*, IX, 4 كتاب الزّرع، 6، 2–4

4 – اس العوام، 7، 23

5 – تَرطِيو راجع *Géoponıka*, X, 69 كتاب الزّرع، 5، 49

6 – اس العوام، 7، 15

7 – بامْفِيلُس راجع *Géoponıka*, X, 41 , 42

غرس العناب[1].

أغرسه قضيبا من شجرة كثيرة الحمل، فإنه يعلق إن شاء الله.

صفة التلقيم[2].

ويسمى الانشاب ويسمى التطعيم ويسمى التركيب. كل شجرة غليظة اللحاء ذات رطوبة كالتين والزيتون و الأجاص فتلقيمها بين اللحاء والساق. وذلك أن تأخذ وتدا صغيرا من خشبة صلبة، وتوثره بين لحاء الشجرة وعودها برفق لئلا ينشق اللحاء، ثم تسل الوتد كالاترج والكرم والتفاح والسفرجل. وأما أشبهها فانك تقشر العود فوق الأرض بذراعين أو ثلاثة كيف ما أردت ثم تشق العود وتضع فيه التلقيم ساعة شق العود، قبل أن يدخل الريح في الشق أو الشمس. ولتكن قضبان التلقيم من شجرة فتية كغلظ الخنصر، وتنحت كما ينحت القلم ويحتفظ بلباب القضيب. ولتكن أطرافه المنحوتة بقدر ما يغلق الشق. وضع على موضع التلقيم طينا أبيضا مخلوطا بزبل البقر وشعر مقطع، واجعل عليه من خارج خرق كتان وتربط عليه، وليكن ذلك في أيام الربيع. وترش الماء على موضع التلقيم كل يوم حتى تراه قد اخضر وأورق. تلقيم التين. يلقم في التوت وفي الدلم وفي التفاح وفي البندق وفي الكمثري وفي البطم. تلقيم التفاح. في الرمان وفي الكمثري وفي السفرجل وفي التوت وما لقم في الرمان [10] (ط) والتوت جاء تفاحه أحمرا. ويلقم أيضا في اللوز والفستق والجوز والأجاص وتلقيمه يكون في نونبر إلى فبراير. تلقيم الكمثري. في الرمان والسفرجل والفستق والجوز والتوت وما يقلم في الرمان. وتلقيم الكمثري في كل ما يلقم فيه التفاح. ويلقم السفرجل في سائر الشجر كله فيقبل ويجود إن شاء الله تعالى. تلقيم الأجاص الأسود والأجاص الأصفر. في الكمثري والتفاح الأصفر والسفرجل يجود إن شاء

1 – ابن العوام، 7، 13

2 – ابن العوام، 8، 1 وعد كذلك إلى أبي الخير، ص 151–173

الله تعالى. ومتى ركبت الكمثري أو السفرجل في الأجاص الأسود أثمر في الربيع أيضا. ويلقم الأترج في التوت وفي الرمان فيحمر أترجه ويحسن لونه. ويلقم الورد في اللوز يجود ورده إن شاء الله. ويلقم الجوز في اللوز يجود ورده إن شاء الله. ويلقم اللوز في البطم. وتقلم جميع التي فيها الهضم في شجرة البطم يجود جدا. ويلقم الخوخ في الصفصاف فلا تكون له نواة. وذلك إذا كانت شجرتان متجاورتان فاعمد إلى الصفصافة فاثقب في أصلها ثقبا، وتدخل قضيب الخوخ في ذلك الثقب وتخرجه من الناحية الأخرى، وتطين الموضع، ويترك حتى يملأ القضيب الثقب ويخضر ويورق، فتقطع حينئذ قضيب الخوخ من ناحية شجرته، فيثمر ذلك القضيب خوخا بلا نوى. ويلقم الخوخ في الأجاص فيصفر لونه. ويلقم في اللوز والدلم فتحمر ثمرته بإذن الله[1].

فصل من أراد أن تحسن ثمر بستانه وتطعم وتكثر ثمرتها[2].

فليحفر حول الشجرة ويصب على أصولها أبوال الناس وأبوال الدواب والغنم والبقر والإبل فان ذلك ينفعها جدا[3].

باب نذكر فيه ما ينفع لجميع الشجر ويدفع عنها كل مضرة[4].

انزع التراب عن أصول الشجرة وخذ ماء الزيتون غير ملح، ثم ضف إليه مثل مائه ماء عذبا، وصبّه على أصول الشجر، ورد عليه التراب فلا يضرها شيء بإذن الله تعالى. وإن ألقيت تبن الفول عند أصول الشجر كثر حملها وحسنت. وأجمع سائر علماء الفلاحة وأهل التجربة فيها: أن البول موافق لجميع الفواكه يصب عند أصول شجرتها وينفعها لعلل شتى. والشجرة المريضة تحل زبل الغنم بالماء واسقها. وإذا مرضت الشجرة وكانت تلقي

1 – دِيُفَانُس راجع *Géoponika*, X, 76 كتاب الزّرع، 5، 63
2 – ابن العوام، 14
3 – تَأكْسَامُس راجع *Géoponika*, X, 84 كتاب الزّرع، 5، 7
4 – ابن العوام، 14

ثمرها فاحفر على أصلها حتى تظهر العروق، ثم اثقب عن أصلها فوق العروق ثقبا حتى ينفذ من الناحية الأخرى، واجعل في الثقب عود دردار على قدر الثقب، وصب 11 (و) على الأصل والعروق فولا قديما، فيتمسك ثمرها ولا ينثر بإذن الله تعالى. ولجميع دود الشجر من جميع الفواكه، تمسح عروقها بمرارير الثيران، واسقها بولا مخلطا بمرارير الثيران. وإذا كانت الشجرة تلقي ثمرها، فخذ حجرا مثقوبا لم يتغمد ثقبه احد، وعلقه على الشجرة فان ثمرتها تثبت بإذن الله تعالى. واحفر عن أصلها حتى تكشف عروقها فشقه من داخل واعمل فيه حجرا، ورد عليه التراب، وصب على أصلها ثلاثة أيام ماء قد يقع فيه تبن الفول في كل يوم ثلاث مرات فانه نافع إن شاء الله تعالى. وإذا كشفت عن أصل الشجرة ونثرت عليها من زبل الحمام نفع الشجرة ولم تدود. وينفع الشجرة أن يزبلها بتبن عدس وتبن القطاني[1].

وقد تقدم ذكرها صفة التزبيل ونحن نعيده هاهنا لتحفظه. إذا أردت تزبيل الكرم والشجر فلا تجعل الزبل لاصقا بأصولها ولكن ابدأ بالتراب فلصقه بأصولها، ثم اجعل الزبل فوق ذلك التراب، وكلما أردت غرسه من بذر وحب فخذه بعدما يطيب في شجرة، وذرذر عليه رمادا، وجففه في الظل، وأرفعه إلى إبان زراعته أن شاء الله تعالى.

تحصين الكرم والبساتين.[2]

احفر حول المكان الذي تريد تحصينه ما دار به عرض ذراع، واضرب فيه أوتادا طوالا بين كل وتدين عشرة أذرع، وتشد الأوتاد بحبل ليف ممتد عليها أو حبل بردي كغلظ الإبهام. وعمد إلى ثمرة العوسج والعليق وما شاركهما من الشوك واخلط إليه النانخاه، واخلطهما معا، وضف إليها شيئا من اخثاء البقر، واعجن الجميع بالماء عجنا خاثرا، وخذ منه بيدك وأمرر به على تلك

1 – بامميلُس راجع *Géoponıka*, X, 88 كتاب الزّرع، 5، 11

2 – اس العوام، 7، 45

الحبال، حتى تظهر ثلاثة أرباع الذراع الذي حفرت، ثم اسقه بالماء حتى ينبت، فانه إذا نبت خرج منه شيء لا ينفذه حية ولا تجوزه دابة وإن صغرت بإذن الله تعالى[1].

الحيلة في إبقاء العصير حلوا[2].

اطل الإناء الذي تجعله فيه بالزفت، وأملأه بالعصير ودق خردل[3] وألقه على العصير، فانه يبقى حلوا. وإذا أخذت العصير من يومه وجعلته في إناء وطينته تطيينا محكما، ووضعته في ماء الإناء، فانه لا يغلي وتشربه في أي وقت شئت كيوم عصره[4].

باب إصلاح الخل[5].

إن أردت أن تبقي حموضة الخل و لا تتغير فخذ الباقلاء و اعجنها بعصارة جوف الأترج. وإن حميت حجرا من حجارة الرحى بالنار حميا شديدا وقذفته في الخل، زادت حموضته ويكون مرينا في الجسم. وإذا أخذت الشعير وحمضته ودققته وألقيته 11 (ط) في الخل، زادت حموضته. ومما يحفظ الخل، خذ ورق الكرم وعلقه في خابية الخل فإن رائحته تطيب، و لا يصيب الورق الخل فان رائحته تطيب. وان أخذت حب الآس[6] النضيج المشقوق وألقيته في الخل طابت رائحته جدا. وإن كان في الخل دود فألقه فيه، فإنه يقتل الدود إن شاء الله تعالى. وإن ألقيت الشعير في الخل ثلاثة أيام حمض وطاب. وإن ألقيت على كيلة من الخل مثله من ماء الشعير وألقيت فيه شيئا من الملح حسن وطاب أيضا[7].

---

1 – ديافانُس راجع *Géoponika*, V, 44 كتاب الزّرع، 4، 32

2 – اس العوام، 7، 30

3 – هو حب الرشاد دياسقوريدوس، 2، 138

4 – فلُرَنطِيسُس راجع *Géoponika*, VI, 16 كتاب الزّرع، 4، 45

5 – اس العوام، 30، 7

6 – الريحان نتوس الأنطاكي، ص 37

7 – سُوُطيُوُس راجع *Géoponika*, VIII, 36 كتاب الزّرع، 4، 111

إصلاح الزيت[1].

أيضا خذ شيئا من الكسبرة اليابسة و ملح و يجعل في جرة و يجعل فيه رغيف من خبز شعير حار قد فتحت حروفه يترك فيه يوما و ليلة ثم يجعل فيه يوما آخر بعد أن يخرج الأول يفعل ذلك ثلاث من آب فإن الزيت يصير غاية في الطيب إن شاء الله. أو خذ من الزيت كيلا و من الماء ثلاثة أضعافه ملحا مدقوقا ثم اضرب الجميع ضربا جيدا ثم اتركه يقر ثم اجمعه رويدا ثم خذ ورق الزيتون فدقه و اعصر ماءه و ألقه في الزيت و اتركه فيه حتى يصير طيبا بمنزلة الانفاف بحول الله.[2]>

باب في البقول وما يصلحها[3].

أوفق الأرض للبقول التي ليست بخشنة ولا خوارة، فان الخشينة المشققة تصلح مع كثرة الماء، والخوارة تثري في الشتاء وتيبس في الصيف فيهلك بقلها ويكون ضعيفا إلا إن يكثر زبلها جدا. والأرض الرملة ما يجود فيها البقل. فإذا أردت أن تحرث أرضا للبقل فخذ من ترابها وانقعه في ماء حار وحركه فان رأيته قد نهج عليه كالعكر، فهي أرض جيدة تصلح للبقل. وإن ركد التراب وصفا الماء فليس تصلح للبقل. وإن عجنت ترابها بيدك فَلَصُق طينها بيدك كالشمع فهي تصلح للبقول. وينبغي التي مبقلة أو مقتات أن تقلب وينقى من جميع النبات ومن كل حجر صغير أو كبير، وتكون قريبة الماء بعيدة عن الأقذار، وعن خرق حيض النساء وما شاكلها. وينبغي أن تكون السواقي أعلا من الحوض ليقر الماء فيه، وإن كانت الحياض أعلا من السواقي لم يقم فيها الماء وخرج تراب الحياض. وينبغي أن تسقى البقول

1 - قمت بالإصافة من (ب) اس العوام، 30

2 - دِيُفَانُس، راجع *Géoponika*, IX, 20 كتاب الزرع، 6، 14. طَارَانطِيُس راجع *Géoponika*, IX, 21 كتاب الزرع، 6، 15 دِيدِمُس راجع *Géoponika*, X, 22 دِيدِمُس راجع *Géoponika*, IX, 23 كتاب الزرع، 6، 17 طَارَانطِيُس راجع *Géoponika*, IX, 24 كتاب الزرع، 6، 18 دِيمُقْرَاطِيس راجع *Géoponika*, IX, 25 كتاب الزرع، 6، 19

3 - ابن العوام، 23

وتغرس بثلاث ساعات تبقى من النهار وليستقبلها برد الليل، و لا تزبل. وإن خلطت بزر البقول حين تزرعها مع شيء من نانخاه سلمت تلك البقول من الدود والطير بإذن الله تعالى. وإن أردت أن لا يؤذيها طير ولا نمل فأعصر حي العالم[1] ولت بمائه ما أردت زرعه، وأعصر أصل قثاء الحمير ولت بمائه ما شئت، فانه إذا ثبت لم يقربه شيء. وازرع جميع البقول بعد أربعة أيام من الشهر العربي إلى خمسة عشر، فإذا أخذ القمر في النقصان فلا تزرع منها شيئا. وانقل الزبول للبقول أرواث البغال والحمير والخيل وما تقادم منها، كما وصفنا في باب ذكر الزبول. زبل الحمام يطرد عن البقول جميع الحشائش و قليله يكفي. وان طبخ بول بقر بورق الزيتون وترك حتى يبرد، ثم نضح على البقول حسن بذلك نباتها. ومما يزيل الدود عن البقول وعن الشجر (و12) أن يدخنها بالشمع والكبريت. وإن بخرت بقرن معز أو أيل أو ظلف شات لم يضرها شيء من الدود والهوام. وإن نثر رماد التبن على البقول أو رماد الزيتون قتل دودها إن شاء الله تعالى. وأفضل الشهور لزرع البقول شهر يوليه بأسره وما زرع بعدها فهو متأخر. وتابع السقي لها فان أنبتت فاقصر عن السقي[2].

الكرنب[3]

ينبغي أن يزرع في مكان مالح فإنه ينبسط، فإن لم يكن فاعمد إلى تراب مالح من سبخة فتدقه وتنثره على ورقه وأصوله خمس مرات، فيطيب بذلك طعمه ويسرع بذلك نضجه. وانثر عليه إذا كان على ثلاث ورقات نطرونا وملحا مدقوقا. وإن أردت أن تغرسه من شتلته فانقع أصول الشتل في زبل رطب

---

1 - حي العالم عند القدماء ثلاثة أنواع كبير و اسمه العلمي (*Arboreum sempervivum*) و صغير اسمه العلمي (*Sedum acre*) و نوع ثالث اسمه العلمي (*Sedum telephium*) الأنطاكي، ص 104 و التي بعدها

2 - فلَرَنطِيُس راجع *Géoponika, XII, 2* كتاب الزّرع، *7، 1* دِيدمُس راجع *Géoponika, XII, 3* كتاب الزّرع، *7، 2* دِيدِمُس راجع *Géoponika, XII, 4* كتاب الزّرع، *7، 3* أُوَنْدَايِيُس راجع *Géoponika, XII, 5* كتاب الزّرع، *7، 5* أُوَنْدَايِيُس راجع *Géoponika, XII, 5* كتاب الزّرع، *7، 5* دِيمُقْرَاطِيس راجع *Géoponika, XII, 6* كتاب الزّرع، *7، 6* دِيمُقْرَاطِيس راجع *Géoponika, XII, 6* فرُنطُوُنس راجع *Géoponika, XII, 10* كتاب الزّرع، *7، 10*

3 - ابن العوام، 23، 9

وملحا ونطرونا، ثم اغرسه بعد ذلك. والخشخاش يسرع إلى الكرنب أكثر من سائر البقول، فإذا نثرت عليها رماد تبن عند زرعها لم يقربه خشخاش إن شاء الله تعالى. والرماد المنخول إذا ذرذرته عليه اذهب عنه الدود إذا كان فيه. وإذا تقادم بزر الكرنب أربعة أعوام وزرع تحول سلجما. وإذا زرع بزر ذلك السلجم في العام المستقبل رجع كرنبا كما كان أولا[1].

الخس[2]

إذا أردت أن يكون ورقه غليظا فانظر إلى موضع تصيبه الشمس فزبله وشتل فيه الخس واسقه في الأسحار، فإذا صار شتلا وأردت أن تغرسه خسا فاقذفه ثم اغرسه وزبله بزبل بقر حديث، ثم أضمره بالتراب واسقه من ساعته، فإذا نبت وتقوى، فاجعل في كل واحدة منها حجرا. وإذا جعل بزر الخس مع قشر الأترج أياما ثم زرع كان ريح الخس كريح الأترج إن شاء الله تعالى[3].

باب السلق[4].

إذا أردت أن يكون عظيم الورق أبيض الأضلاع فإذا قلعت شتلة الغرس فاطل أصوله بزبل البقر الرطب و اجعل من تحت أصوله زبل البقر أيضا ثم اسقه فإنه يكون ذلك إن شاء الله بحوله و قوته[5].>

الفجل و اللفت[6].

إن أردت أن يكون حلوا في المذاق، فخذ بزرهما فانقعه في عسل ولبن حليب أو في رب العنب أو في عصير عنب حلو، ثم ازرعه يكون كما ذكرت انم شاء الله تعالى. وإذا ألقيت عليها تبنا وفوق التبن تراب ثم سقيتها عظمت لذلك

---

1 - تَاكْسَامُس راجع *Géoponika, XII, 17* كتاب الزّرع، *7*، *16*

2 - ابن العوام، 23، 3

3 - فلُرَيطِيُس راجع *Géoponika, XII, 13* كتاب الزّرع، *7*،

4 - أتممت النص من (ب) ابن العوام، *23*، *11*

5 - ابن بصّال، ص 156

6 - ابن العوام، 24، 1، 3

أصولها. وإن أخذت وتدا غليظا وضربته في الأرض ثم أزلته وزبلت مكانه بزبل مخلوط بتراب يسير، ثم جعلت في مكان الوتد شتلة عظمت أصولها على قدر عظم الوتد وإن زرعها في شهر أغشت وفي شتنبر[1].

البصل[2].

توافقه الأرض الحمراء. فان زرعه إذا صار شتلا فانقعه واغرس منه ما عرض، واقطع أطرافه إذا نبتت فانه يعظم[3].

باب في الكراث[4].

يصلح في الأرض الرملية القوية فإذا شتلت و أردت نقله فدق خردلا ونونخة فألق منه في الأصل كل واحدة تغرسها و زبله بزبل رقيق و اسقه فإنه يعظم[5].

الثوم[6].

يزرع في الأرض البيضاء الرخوة، وإذا زرع في محاق الهلال نقص عراضة ريحه. وإن نقع في عسل ولبن يومين ثم زرع طاب وقلت رائحته. ولا ينبغي أن يغرس في نقصان الهلال[7].

باب في السذاب[8].

أفضل ما يزرع في الأرض الندية الرخوة و إذا زرع في محاق الهلال نفضت رائحته و إن نقع[9] في عسل و لبن يومين ثم زرع طاب و قلت رائحته و لا

1 - كتاب الفلاحة الرّومية، 7، 15
2 - اس العوام، 24، 4
3 - راجع *Géoponika, XII, 31* كتاب الزّرع، *7، 30*
4 - اس العوام، 24، 6
5 - سُوُطيُوُنُس راجع *Géoponika*, XII, 29 كتاب الزّرع، 7، 29
6 - اس العوام، 24، 5
7 - راجع Géoponika, XII, 30 كتاب الزّرع، 7، 31
8 - اس العوام، 28، 3
9 - و هو الفيحس، و نتوس الفيحل الأنطاكي، ص 149

ينبغي أن يزرع إلا في نقصان الهلال.[1]

القثاء والقرع والبطيخ.[2]

إذا زرعت شيئا من هذه فعمق حفرها [12] (ط) لئلا يصلها الحر، فإذا نبتت وصارت على أربع ورقات فغط أصولها كلها كلما ارتفعت و أنكسها، وخذ شوكة فانخس بها قضيب الثمرة فانه يعظم على ذلك. وإن أردتها شديدة الحلاوة فانقع بزرها في العسل والحليب ثلاثة أيام ثم اغرسها فإنها تكون في غاية في الطيب والحلاوة. ومتى خلطت بزر البطيخ بورق الورد اليابس أياما حتى يعلق ريحه بالبزر، ثم غرست ذلك البزر كان بطيخه فيه رائحة الورد إن شاء الله تعالى. وقال ذومقراطيس[3]: إذا أردت أن تكون القثاء والقرع والبطيخ بلا حب، فاعمد إلى أصل ذلك إن شئت إذا طال ذراعا، فاحفر له في الأرض ثم مده فيها، واخرج طرفه فإذا أطال بعد الثالثة وأيقنت أنه في الحفرة الثالثة قد غرق، فاقطعه مما يلي الأصل الأول في المكان الثاني فان طرفه الثالث يحمل ثمرة بلا نوى إن شاء الله تعالى. ومتى أردت إسراع نبات ما ذكرنا فاغرسه في الشتاء قبل الربيع الذي هو أوان زرعها في إناء في أسفله ثقب وتسقه الماء السخن نضحا من غير إكثار وتكون في البيوت فيه، فإذا كان يوم شمس أو غيث لين دافئ أخرجته و إذا كان البرد رددته إلى مكان دافئ فإذا كان إبان الغرس فاجعل له أي للإناء حفرة، وتضعه فيها وتكسر الإناء وتستخرج الاشقاف برفق، وتضم إليه ترابا مزبلا فانك إن فعلت ذلك أسرع ثمرها كما تريد إن شاء الله تعالى.[4]

باب في قصب السكر.[5]

---

1 – فلُرَيطِيُس راجع Géoponıka, XII, 25 كتاب الرّرع، 7، 24

2 – كتاب الملاحة، 25، 1، 7

3 – ديمقراطيس، 15(ط)

4 – الكَوَنْطِيليُس راجع *Géo*ponıka, XII, 19 كتاب الرّرع، 7، 18

5 – اس العوام، 27، 47

توافقه الأرض الرطبة الرملية و توافقه شطوط الأنهار و انصب قصب السكر في نوننبر و دجنبر و كل ما زرع من قصب السكر نفسه كان أفضل من الذي يغرس من أطرافه.

باب غرس الأزهار والأحباق والرياحين[1].

من أراد غرس الزهر فليجعله في قفاف، فيحفر لها في الأرض، ويَسْقِهِا ماء حارا كل يوم مرتين فإنها تسرع بإخراج الزهر إن شاء اله تعالى. وجميع أصناف الأحباق والرياحين يحتاج الزبل وكثرة الماء. والأرض السوداء النقية أوفق لها من غيره. والبعل من الأزهار والأحباق والرياحين أطيب ريحا من السقي. السوسن إذ غرستها فصب في أصلها عكر نبيذ أسود فانه يصير <كالسوسن > اسمانجوني[2] أو الأقحوان. الورد. احفر له في الأرض قدر شبر واغرسه و احتفظ به فإن كان من قابل فصب عليه كلم يوم ماء سخنا مرتين فإن يسرع إخراجه. وان صببت في أصله ماء ورق الزيتون بقيت رطوبته ولم تتبدل. وإذا سقيت الورد طول الشتاء بالماء الحار أسرع إدراكه. ويلقم في التفاح واللوز خوفا من لحائها غير نافذ إن[13] (و) شاء الله[3].

باب ما ينبغي أن يغرس في كل شهر من الشهور العجمية[4]

شهر يناير[5]. ينبغي أن يبدأ فيه بغرس الكروم وذلك بعد ثلاث ساعات تخلو من صدر كل يوم إلى ثلاث ساعات باقين من آخره. ومتى أردت أن تلقم شيئا من الشجر في البلدان الحارة فليبتدئ به في هذا الشهر، وليكن ذلك في البندق والخوخ واللوز و الخروب. و فيه تغرس الأشجار كلها ما أثمر

---

1 – أتممت الإصافة من (ب) اس العوام، 27

2 – هو الإيرسا، و هو السوسن الاسمانجوني دياسقوريدوس، 1، 1

3 – دِيدِمُس راحع *Géoponika*, XI, 18 كتاب الزّرع، 7، 38 أناطُلْيُو راحع *Géoponika*, XI, 20 كتاب الزّرع، 7، 39

4 – اس العوام، 30، 5

5 – راحع، *Géoponika*, III, كتاب الزّرع، 2، 8

منها وما لم يثمر. وفيه تنقل غروس الشجر كلها. وفيه تخرج الكروم وقضبان الشجر كلها لا ينزع شيئا منها إلا في يوم ساكن لا تهب فيه الرياح الغربية، وتكون الذبح بمناجل حادة. وفيه يزبل أصل الكروم والشجرة المثمرة ولا يلصق بأصولها. وفيه تغرس أوتاد الزيتون والرمان وكل ما يغرس أوتادا. وفيه ينور النرجس. وفيه يجمع قصب السكر وكل ما يقطع فيه من الخشب للبناء لا يتسوس بإذن الله. وفي العشر الأواخر منه يتزوج الطير. وفي غير هذا الكتاب قال: ينبغي أن تقطع الخشب من خمسة عشر من ديجمبر إلى آخر يناير، ويكون ذلك إذا قرب مستهل الهلال، وفي الوقت الذي يكون فيه الهلال صغيرا، فإن كثر ضوء الهلال يصبح الخشب طري سريعا إلى التعفن. قال: وتغرس الكرم وسائر الأشجار في اليوم الثاني عشر من يناير لا سيما ما كان من هو منها سريعا مثل الخوخ والأجاص واللوز والمشمش و القراسيا. وينبغي أن يبتدئ في ذبح الكروم من الثاني عشر من يناير أيضا إلى الوقت الذي تنبت فيه عيون الكرم. و يبتدئ بالذبح من الساعة الثانية إلى التاسعة منه في يوم لا ريح فيه.

فبراير[1] ينبغي أن ينقل فيه الغرس الذي أتت عليه سنتان، ولا ينقل غرس سنة لأن أصوله ضعيفة لا تعلق وفي غيره. و أجود منها كثيرا ما أتت فيه على ثلاثة سنين. وفيه ينبغي أن يغرس من أغصان شجر التفاح والآس. ويغرس فيه الكروم والأشجار كلها. والورود والياسمين. وفيها تلقم الأشجار ومن غيره. وينبغي أن يكون الغرس في زيادة الهلال لأنه يكون عظيم مخصبا. وما غرس في نقصان الهلال فيكون نموه قريب من الأرض راجعا. وفيه يفرخ النخل وتورق الأشجار. وتجني الكمأة[2]. ويكثر الإستفراخ. و يبتدئ الطير بالتغريد.

مارس[3]. يصح فيه تلقيم الأشجار في البلدان الباردة قبل أن تورق. وإذا

---

1 - راجع، *Géoponika*, III لكتاب الزّرع، 2، 8

2 - الترفاس نتوس الانطاكي، ص 93

3 - راجع، *Géoponika*, III, 3 كتاب الزّرع، 2، 8 " ويقول ثَيُفْرَاسْطُس العالم أنوَال الإنسان أنمع في أصول شحر اللور المر من ثلط الحرير

سقي فيه اللوز من أبوال الصبيان الذين لم يحتملوا عاد حلوا. وفيه يغرس قصب السكر والمقاثي والحمص والعدس واللوبيا وسائر القطاني. ويزرع القطن والعصفر[1]. وتسافر فيه الطواويس والبلارج وكثير من الطيور. وينبغي في هذا الشهر أن يحفر حول [13(ط)] جميع الأشجار وخاصة حول شجرة الزيتون وتكرب الأرض التي يريد زراعتها مرتان أو ثلاث. وكل ما أكثر كربها كان أجود لها.

ابريل[2]. ينبغي أن يغرس فيه الزيتون والرمان والآس. و في العشر الأواسط تهب رياح يخاف منها على الفاكهة، و إن لم تهب سلمت بإذن الله تعالى. ويخاف من هذه الرياح على المراكب في البحر. وفيه يظهر الورد ويكثر ويستعمل في الماء وغيره. وفيه يظهر عقد عنب البكر ويظهر عقد التين. وفيه يذكر النخل و يلقم فيه. وفيه ينور الزيتون. وفيه يغرس أوتاد الأترج. وفيه يخرج أصول الشقائق وتجمع شقائق النعمان والجلنار[3] ولسان الثور[4]، وتصنع عصارته. وفيه يزرع الحناء. و تبيض الطواويس والبلارج[5] والكثير من الطيور. وتبتدئ بالحضانة. وفي غير هذا قال: ينبغي أن تزبر فيه الكرم الحديثة، فإن قطعها في هذا الوقت يكون أشد استواء. قال: وإن كان جميع القدماء يرون أن لا يضرب الكرم بشيء من الحديد إلى السنة الثالثة. قال: ويزبل الزيتون وتنمى فيه، وكذلك شجرة الجوز والياسمين فإنها إذا زبرت تكثر ثمرتها. قال: وينبغي في هذا الوقت أن يلقط بذر شجر الدردار[6]، وهي شجرة النبق، وأن تزرع من ساعتها، وقد يمكن فيه أن تحول شجرة التين بأصوله وتغرس في موضع آخر، وإن كان قد نبت لها أغصان.

---

1 - ابن بصّال، ص 116 هو شجرة القرطم، الأنطاكي، ص 41

2 - راجع، *Géoponika*, III, 4 كتاب الزّرع، 2، 8

3 - للّوش و تطلق في العربية التونسية كذلك على زهر الرمان الأنطاكي، ص 109

4 - و هو كثير الأنواع الأنطاكي، ص 30

5 - هو اللقلق و هناك البلارج الأبيض (*CICONIA ciconia*) و البلارج الأسود (*CICONIA nigra*)

6 - ابن وحشية، ج1، ص 173

مايه[1]. ينبغي أن يتعاهد فيه جميع التراتيب بأن تنضح عليها الماء بالعشي كل يوم. وفيه يعقد الزيتون والعنب. وفيه يعمل النحل العسل ويطهر باكور التفاح والمشمش وعيون البقر[2]. وفيه يجمع بزر الشاهترج[3] وبرز الكرفس وبزر الشبت و حي العالم والخردل و الحرف[4] وتحمل عصارته والبانونج[5] ويعمل دهنه. وفيه يغرس بصل الزعفران[6] إلى أول أكتوبر وفي غير هذا. قال: ويمكن أن يغرس من الشجر ما قد نفتح عيونه لنبات أغصانه ما خلا شجرة التين، وما لم ينفتح عيونه فانه يمكن أن يغرس في هذا الشهر. قال: وأفضل ما يعمل في هذا الوقت تعاهد شجرة الزيتون العظام وتزبيلها، وكذا يجب أن يفعل بجميع الأشجار، أن يحفر حولها ويلقي عليها تراب ثم يلقي على التراب سرجين ثم يلقي عليه تراب كثيرا، وأن يتعهد شجرة التي قطعت ويرش عليها الماء بالعشي.

يونيه[7]. يقطع فيه أصول الكرفس الذي أتى عليه سنة باليد لا بالحديد [14] (و) فإن ذلك يقوي أصله. وفيه يسقى الشجر ويقل سقي الزيتونة دون غيره. وفيه تزرع البقول البكر. وفيه يعقد اللوز والجوز. وفيه تجمع عناقيد من البزر ونوى الافستنين وتعمل عصارته وإكليل الملك[8] وبزر الأفتيمون[9] والكشرة[10] والجعدة[11] والفوذنج[12]. وفيه يزرع الكرنب ثم ينقل في شهر اغشت. وفي العشر الأول منه يصلح فيه صيد الأفاعي وعمل أضراسها

---

1 – راجع، *Géoponika*, III, 5 كتاب الزّرع، 2، 8

2 – الإجاص عند أهل الأندلس الأنطاكي، ص 30

3 – حشيشة الصِّيَابة الأنطاكي، ص 151

4 – حرف السطوح، و يسمى الحارة الأنطاكي، ص 64

5 – بالفرنسية (*Camomille*)

6 – كذا في الأصل و قد يكون بصل الزّار و هو الخنثى بالعربية دياسقوريديوس، 2، 152

7 – راجع، *Géoponika*, III, 6 كتاب الزّرع، 2، 8

8 – يعرف بتونس بالنملة الأنطاكي، ص 45

9 – يعرف في تونس بالزعيترة و هو الزعتر، و لا شبه بينه و بين الصعتر الأنطاكي، ص 43

10 – كذا في الأصل و قد يكون الحديث عن الكسرة و هو التابل الأنطاكي، ص92

11 – نوع من النبات الذي يسمى بالفرنسية (*Germandrée*)

12 – منه البري و هو الفليُّو الأنطاكي، ص 81

الداخلة في الترياق. وهذا الشهر يزعم أهل التجربة أيما حصد فيه الزّرع بعد كماله يقيم ولا يسوس أكثر ما حصل في غيره من الشهور. وفيه يؤخذ أفراخ اليمام.

يوليه[1]. كل أرض فاهدم شقوقها لئلا يصل الحر إلى أصول الشجر والكروم فيؤذيها. وفيه تشق أصول الكروم شقا خفيفا في أطراف النهار في ساعتين من آخره، وغبار المشق ذلك الحين نافعا للعنب يعظم حبه ويسرع إدراكه. وفيه حصاد القمح العام. و يبتدئ التين والعنب بالنضج ويعتق الفستق ويطيب الكمثري والتفاح. وفيه تجمع العقاقير أيضا. وفيه يغرس العليق[2] في البساتين. وفيه يكون فراخ الحجل.

اغشت[3]. فيه يشق أصول الزيتون في غبار المشق في ذاك الحين يسرع بإدراكها ويكون أجود لها وفي غير هذا. قال: ولهذا صار للكروم والزيتون التي على الطريق كثرة الثمار لأجل غبار الطريق يظهر إليها الغبار من السالكين بها. وينبغي أن تأخذ لكل شجرة ملقمه بنشاف البحر فتبلها بماء عذب وأجعلها على موضع التلقيم من مغيب الشمس إلى طلوعها فتنزعها حين إذن عنها، فان ذلك يخرج عنها ما أصابها من حر الشمس. و ما لا ينضج من العنب فيه فأسقه بالغداة فانه يسرع نضجه بإذن الله تعالى. وفيه يبتدئ الرطب[4] والعناب و يطيب الخوخ البكري ويعقد البلوط ويطيب البطيخ والدلاع، ويزرع اللفت والجزر[5] والسلق. وفيه يهيج النعام للفساد (كذا)[6].

اشتنبر[7]. فيه يطيب الخوخ والعناب والسفرجل والرمان، و يبتدئ فيه قصب السكر البكري ويسود بعض الزيتون ويظهر الزيت الجديد. وفيه

1 - راجع، *Géoponika*, III, 10 كتاب الزّرع، 2، 8
2 - لبلاب وعند العامة القرويلة و اللواية الأنطاكي، ص 94
3 - راجع، *Géoponika*, III, 11 كتاب الزّرع، 2، 8
4 - هو نوع من النبات الذي يعرف بالفرنسية (*Campanule*)
5 - اسفارية الأنطاكي، ص 62
6 - الصواب السماد
7 - راجع، *Géoponika*, III, 12 كتاب الزّرع، 2، 8

يطيب البلوط والقسطل. وفيه يذهب الخطاطيف. وفي آخره يبتدئ النعام يبيض.

اكتوبر[1]. فيه ينبغي أن تغطى أصول الأترج. وفيه يعمل الزيت الطيب. وفيه يغرس الزيتون واللوز والجوز والدردار. وفيه يجمع بزر الرازيانج[2] والأنيسون[3] والخس والبصل إلى آخر يناير. وفيه يخرج دهن البلسان من شجرة في مصر وفي غير هذا. قال: تغرس أشجار الفاكهة والجوز والصنوبر الذكر[4]. قال: و أما شجر التين فلا يغرس في هذا الوقت. قال: وان تلبس فيه قضبان لأترج بورق القرع (ط)14 ويوضع رماده على أصول الأترج ولا يكثر منه لأن رماد هذا الوقت محرق جدا. قال: ويجب أن يبتدئ فيه بزرع الشعير والقمح، فإن جاء مطر بعد الزّرع بأربعة عشر ليلة يكون الزّرع مخصبا جدا، وإن لم يجيء مطر فلا يضر ذلك ما قد زرع، إلا أنه يكون خصب الذي يجيئه المطر كما قلنا.

نونبر[5]. أخدم فيه الكروم إلى آخر يناير، وأحرث فيه الكروم وزبلها، وألقى زبل المعز منه عند أصول الشجر القليل الثمرة. وفيه يجمع البلوط والقسطل وحب الآس. وفيه تسقط ورق الأشجار. وفي غير هذا قال: أما في المواضع الحارة الأرضين الرقيقة ينبغي أن يبتدئ فيه بغرس الكروم من دخول نونبر إلى آخر ديجمبر، وأما البلاد الباردة الرطبة فالأجود أن يبتدئ بغرسها لسبعة من فبراير. قال: وينبغي في هذا الشهر وفي الذي يليه أن يتخذ الرماد ويذره على عيون الكرم، والأجود رماد الطرفة، فإنك إن فعلت ذلك رسخ الرماد في عيون الكرم فيدفع عنها الجليد الذي يسقط إن شاء الله تعالى.

1 – راجع، *Géoponika*, III, 13 كتاب الزّرع، 2، 8
2 – السماس الأنطاكي، ص 71
3 – هو حبة حلاوة الأنطاكي، ص 46
4 – كذا في الأصل
5 – راجع، *Géoponika*, III, 14 كتاب الزّرع، 2، 8

دجنبر[1]. تغرس فيه الكروم في الأرض الباردة الرطبة إلى فبراير فاصنع فيه كلما تصنع في يناير، واقطع فيه وفي شهر يناير خشب البناء والسقوف فإنه لا يسوس بإذن الله تعالى. وفيه يبتدئ زهر النرجس وينور اللوز البطيء ويطيب الأترج. وفيه يزرع الخشخاش ويزرع الثوم ثم ينقل في شهر أوسوا.

انتهى بحمد الله تعالى ما تيسر تحريره. والحمد لله رب العالمين. في أو أوسط جمادي الأخير سنة واحد وأربعين ومائتين وألف 1241. على يد أضعف الورى وأحقرهم حسين خواجه بن أحمد التركي. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات. آمين والحمد لله رب العالمين.

1 - راجع، *Géoponika*, III, 1 كتاب الزّرع، 2، 8

الاستعمار والتعليم الفلاحي

اقترن الاستعمار الفرنسي بالتخطيط لإحداث المدارس و المعاهد الفلاحية، خاصة و أن فرنسا كانت تعتقد جازمة في دور هذه المؤسسات التعليمية في إنجاح سياسة الاستعماري الزراعي. فقد كان لا بد من استخدام الوسائل العصرية لتطوير هذا القطاع و الاستفادة من نتائج بحوث المخابر التي بعثت في أوروبا لعصرنة الفلاحة، و هذا لا يكون إلا بإنشاء المعاهد و المدارس المهيأة لهذا الغرض القادرة على تخريج الفنّيين و تكوينهم في العلوم الفلاحية، و تمكين المعمرين الشبان من استعمار البلاد زراعيا. و نورد هنا مقالا كان قد حرره مدير المدرسة الاستعمارية للفلاحة[1]، ونظرا إلى أهمية الوثيقة فإننا ارتأينا تقديمها في لغتها الأصلية:

« L'École Coloniale d'Agriculture de Tunis se range parmi les Écoles Supérieures d'Agriculture. C'est à la fois un établissement d'enseignement agricole, de recherches agronomiques et de colonisation générale. Elle a pour but principal la formation : D'agriculteurs instruits qui, soit pour leur propre compte, soit

1 - ,(Robine (directeur de l'école coloniale d'agriculture بطر
La vie technique, industrielle, agricole et coloniale, in *La Tunisie*, 1923

pour le compte d'autrui, se destinent à la gestion de domaines ruraux dans l'Afrique du Nord et des autres pays du bassin méditerranéen, ainsi que dans nos possessions coloniales plus lointaines. De directeurs et de chimistes pour les industries agricoles spéciales à l'Afrique du Nord (huilerie, vinerie, distillerie, etc). D'agents techniques et d'administrateurs pour les divers services privés ou publics touchant à l'agriculture (laboratoires, services agricoles, service des domaines, culture des tabacs, service topographique, etc). Elle s'adresse tout spécialement aux jeunes gens de l'Afrique du Nord ou de la Métropole qui désirent se consacrer à l'agriculture en Tunisie, et bénéficier des avantages réservés aux anciens élèves diplômés de l'École, en vue de faciliter leur installation personnelle sur les terres de colonisation. Située à quelques heures de la France, sous un climat sensiblement analogue à celui du Midi, elle constitue un excellent moyen de développer l'esprit d'initiative des jeunes gens, tout en les habituant à quitter leurs familles sans qu'ils soient, pour cela, abandonnés à eux-mêmes. Elle ménage une transition essentiellement profitable pour tous ceux de nos jeunes compatriotes disposés à s'installer hors de la Métropole Son enseignement très étendu en fait, en outre, une véritable école de colonisation générale préparant les jeunes gens à s'installer dans nos possessions, plus éloignées. Ces possessions, suivant une très juste expression, sont dans l'âge de l'agriculture, et les connaissances qu'aura acquises un élève de l'École de Tunis lui seront toujours profitables, quelle que soit la branche de l'activité à laquelle il se voue par la suite.

Quelques jeunes gens, originaires des colonies et pays étrangers, que les conditions de milieu engagent à préférer Tunis à la Métropole, peuvent demander à l'École un enseignement technique qui fait défaut chez eux. Les résultats obtenus par

l'École jusqu'à ce jour prouvent qu'elle correspond à un réel besoin, et sa réputation s'est rapidement étendue, non seulement en France et dans l'Afrique du Nord, mais encore dans nos colonies et à l'étranger. Elle est en pleine prospérité.

Établissement public d'État, doté de la personnalité civile, elle n'offre pas les inconvénients que présentent bon nombre d'institutions dont la gestion est laissée à des particuliers, à leurs risques et périls. Au point de vue de l'existence matérielle et de l'instruction, l'École offre toutes garanties, et les familles peuvent, en toute confiance, lui envoyer leurs enfants. La discipline y est celle qui convient à des jeunes gens de 17 à 25 ans, et il va de soi que la tolérance la plus complète y est de règle absolue. A leur sortie de l'École, les élèves reçoivent selon leur classement, le diplôme d'ingénieur ou le diplôme de fin d'études de l'École Coloniale d'Agriculture de Tunis.

Les élèves les mieux classés peuvent bénéficier de bourses de stage leur permettant de parachever leur instruction pratique. Les élèves diplômés, qui désirent acquérir un fonds rural en Tunisie, jouissent, par rapport aux autres demandeurs, d'un droit de préférence sur les terres de colonisation mises en vente par l'État tunisien à des conditions avantageuses pour les acquéreurs. (Décret du 24 janvier 1914.) Ces facilités, l'essor particulièrement rapide de la Régence, les placements fructueux qu'elle offre aux capitaux, enfin l'attrait spécial qu'exerce la Tunisie sur tous ceux qui ont vécu sous son ciel et goûté de la vie active dans ses campagnes encore imparfaitement exploitées, ont décidé, jusqu'ici, la majeure partie des élèves de l'École à s'y installer.

Ceux d'entre eux qui désirent s'ouvrir l'accès des services agricoles des colonies peuvent compléter leurs connaissances en matière coloniale à l'Institut National d'Agronomie Coloniale,

de Nogent-sur-Marne (Seine). Le diplôme d'Ingénieur de l'École Coloniale d'Agriculture de Tunis est de plus en plus apprécié non seulement en France, en Tunisie, en Algérie et au Maroc, mais dans nos autres colonies et à l'étranger. L'École est située à moins de deux kilomètres du centre de la ville de Tunis, à proximité du grand parc municipal du Belvédère, dans un quartier agréable jouissant des meilleures conditions d'hygiène et de salubrité. Elle est reliée à la ville par un tramway électrique (Rue de Rome-Belvédère-Ariana), et par téléphone. Elle est installée sur une exploitation agricole et horticole de 110 hectares, à proximité d'une station botanique de même superficie. Le domaine de l'École, la station botanique et les laboratoires annexes, qui relèvent également de la Direction Générale de l'Agriculture, contribuent dans une large mesure à l'étude des questions scientifiques intéressant la production agricole et fournissent en même temps un vaste champ d'application sur lequel les élèves suivent les travaux d'une exploitation agricole aussi complète que possible et peuvent acquérir une pratique agricole raisonnée. Cette situation particulièrement heureuse de l'École, au centre d'une exploitation agricole et d'établissements de recherches et d'expérimentation, permet d'associer constamment la pratique à la théorie ainsi que l'organisation d'une entreprise à la technique d'exécution. L'École possède tous les locaux et aménagements que comporte l'internat (dortoirs avec cellules individuelles, lavabos, douches, réfectoire, infirmerie, etc.). Pour les besoins de l'enseignement, elle dispose de salles d'études, amphithéâtres, bibliothèques, laboratoires de chimie, minéralogie, géologie, technologie, botanique, zoologie, parasitologie, viticulture, agriculture, zootechnie, mécanique, génie rural, d'une huilerie expérimentale pour la fabrication dé l'huile d'olive, etc., d'une vaste salle de collections, d'ateliers de forge, ajustage et Menuiserie,

d'une station de météorologie, d'un cours d'apprentissage de mécaniciens-conducteurs agricoles, etc. Les laboratoires sont pourvus de collections variées et du matériel nécessaire aux travaux pratiques et manipulations. En même temps qu'ils servent au besoin de l'enseignement, les laboratoires procèdent aux études scientifiques que nécessite l'adaptation des principes d'agronomie aux conditions particulières de l'Afrique du Nord. La ferme annexée à l'École a une superficie de 110 hectares. Elle possède de vastes bâtiments de ferme comprenant : écurie, bouverie, vacherie, bergerie, porcherie, basse-cour, silos à grains et à fourrages, magasins, ateliers, cellier, etc., aménagés suivant les données les plus modernes ; Un matériel de motoculture avec tracteurs et un outillage agricole moderne et complet ; Un réseau électrique de force motrice pour les travaux de la ferme (vinification, battages), ainsi que pour la commande des machines élévatoires installées sur plusieurs points du domaine (pompe centrifuge, pompe à chapelet, pompe multicellulaire) ;

Des cultures de céréales, plantes fourragères, plantes industrielles, etc. ; Un vignoble complanté des cépages présentant le plus d'intérêt pour les viticulteurs tunisiens et comprenant en outre une collection de plus de huit cents cépages , Un verger et une olivette comprenant les variétés les plus intéressantes pour le pays ; Un jardin de cinq hectares avec cultures maraîchères et florales, pépinières et serres. Le domaine du Service Botanique, qui joint celui de l'École, comprend d'importantes collections de végétaux ; en outre, les plantes de grandes cultures et notamment les céréales, l'arboriculture fruitière, forestière et d'ornement, la culture maraîchère, la floriculture y sont l'objet d'études méthodiques dans le but d'obtenir et de déterminer les variétés à propager et de dégager les meilleures méthodes culturales à leur appliquer. Ses pépinières livrent chaque année un nombre

considérable de plantes aux colons à des prix très faibles. Enfin, un domaine de 390 hectares, situé à une vingtaine de kilomètres de Tunis, doit être aménagé dès 1922, pour y recevoir les élèves de l'École ainsi que d'autres stagiaires désireux de compléter leur formation pratique avant de s'établir. Ce domaine qui comprendra les aménagements les plus modernes est situé à proximité de l'établissement d'élevage de Sidi-Tabet, qui servira lui même à l'initiation des jeunes gens aux meilleures méthodes d'élevage ».

لقد كانت البداية مع إحداث «مخبر لتربية الماشية»[1]، و كان ذلك سنة 1897. و تم بعث المدرسة الاستعمارية للفلاحة[2] في سنة 1898. و في سنة 1913 أوجد الاستعمار الفرنسي مصلحة خاصة بالنبات[3] و التي أضيف إليها فيما بعد القطاع الفلاحي[4] و كان ذلك سنة 1936. و لم تقتصر هذه المدارس و المعاهد على العاصمة فحسب ففي سنة 1914 أحدثت فرنسا مدرسة فلاحية بسيدي ناصر، و التي كانت تعرف بمدرسة سمنجة الفلاحية، ليتم نقلها في سنة 1952 إلى المقرن و أصبحت تسمى المعهد الإعدادي للفلاحة. و إزاء هذا التغلغل الفرنسي في الأرياف قررت «حركة الشباب التونسي» تأسيس مدرسة فلاحية لتعليم أبناء كبار المزارعين و كان ذلك في أواخر 1903 بالأنصارين.

1 - (*Laboratoire de L'Élevage*)

2 - (*l'École Coloniale d'Agriculture*)

3 - (*Service Botanique de Tunisie*)

4 - (*le Service Botanique et Agronomique de Tunisie SBAT*)

التعليم الفلاحي بعد الاستقلال

تفطن الجميع بعد خروج فرنسا من البلاد إلى مكانة الفلاحة في بناء اقتصاد قوي و المحافظة على الاستقلال و ضمان متانة النسيج الاجتماعي. فسلكت حكومة الاستقلال سياسة عقلانية، حيث كان الحرص -و منذ البداية- على عدم التمريط في المدارس و المعاهد الفلاحية التي أوجدها الاستعمار، بل كان العمل على مزيد دعمها بتخصيص حصة كبيرة من ميزانية البلاد لها. بعد مرحلة المحافظة، كان الشروع في تَوْنَسة هذه المعاهد، عن طريق تغيير أسمائها أولا لكن دون المساس ببرامجها و نظامها التعليمي القديم، لتدخل البلاد بعد ذلك مرحلة إحداث مدارس و معاهد فلاحية تونسية المنهج و التعليم و الهيكلة. ففي سنة 1961، تحولت مصحلة البحوث و الفلاحة بتونس[1] إلى المعهد القومي الفلاحي بتونس[2]. و في سنة 1964 تم إحداث مدرسة فلاحية بمجاز الباب عرفت بالمدرسة الإعدادية للهندسة الريفية بشمال إفريقيا[3]. و تحولت المدرسة الفلاحية الاستعمارية[4] إلى المدرسة القومية العليا للفلاحة[5] و كان ذلك في سنة 1970. و في نفس السنة تحول مخبر تربية الماشية إلى معهد مختص في البحوث البيطرية[6].

1 - (SBAT)

2 - (l'Institut National de la Recherche Agronomique de Tunisie INRAT

3 - (le collège Nord Africain de Génie rural)

4 - (l'École Coloniale d'Agriculture)

5 - (ENSAT)

6 - (l'institut de recherche vétérinaire IRVT)

و تَخَرَّج من هذه المعاهد العديد من الفنيين كان لهم الدور الكبير في تطوير الزراعة التونسية، بالعودة بها في البداية إلى المستوى الذي شهدته زمن الاستعمار الفرنسي، ثم تطويرها لتصبح قادرة على استيعاب ما يحدث على المستوى العالمي. و قد عملت هذه المدارس و المعاهد الفلاحية على تدريس العلوم الزراعية باللغة الفرنسية لأن الغرب برع فيها فأصبحت غربية. فكان لا بد من تدريسها باللغة التي تساعد على مواكبة ما يحدث في مخابر البلدان المُصَنَّعة. لكن ذلك لم يمنع الجيل الأول من طلبة المعاهد و المدارس الفلاحية التونسية من التفكير في العودة من جديد إلى ما كتبه الأجداد في مجال العلوم الزراعية و التعريف به لدى خريجي المعاهد، فقد أعاد المهندس الزراعي، صلاح الدين العمامي نشر الترجمة الفرنسية لكتاب ابن العوام في الفلاحة، فَمَهَّد بالقول:

« L'histoire et les conditions variées du milieu ont marqué la civilisation agricole méditerranéenne qui a sécrété des technologie à fois riches et adaptées. L'apport de la civilisation arabo-islamique drainant dans son sillage l'immense expérience asiatique a été déterminant dans l'essor de cette agriculture méditerranéenne. L'une des figures la plus célèbres qui a contribué à cet essor est l'agronome arabo-andalous Ibn Al-Awam. À partir des pratiques intégrant les acquis locaux et l'apport du savoir faire arabe, il a forgé des concepts agronomiques originaux. L'agronomie en tant que science de l'observation et de l'expérimentation fut ainsi née

La traduction en français, de son célèbre livre sur l'agriculture, au dix neuvième siècle, était devenue une nécessité pour renforcer l'école agronomique française et offrir un outil d'investigation et de propagation des techniques adaptées à l'empire naissant. C'est par cette traduction que l'ouvrage d'Ibn Al-Awam fut propagé

et connu du monde entier. Dans le monde arabe, à part quelques copies manuscrites possédées par les collectionneurs privés, le nom d'Ibn Al-Awam est demeuré curieusement ignoré. Seule la revue de recherche agronomique marocaine « Al-Awam » porte son nom.

La réédition de la traduction française en Tunisie permet aux Ingénieurs et techniciens de renouer avec leur passé technologique prestigieux. Elle offre en plus un outils pédagogique pour l'enseignement dans les écoles d'agriculture maghrébines utilisant la langue française comme véhicule technologique. La publication de la version originale en arabe faciliterait énormément l'arabisation de l'enseignement technique. Cette réédition donne enfin une idée sur le degré de raffinement et de progrès atteint par la civilisation arabe en Andalousie. Un exemple suffit pour illustrer ce niveau avancé, c'est l'application du principe de l'irrigation goutte par goutte déjà connu des arabes à cette époque. En effet des jarres en poterie enterrées au pied des arbres permettaient de diffuser l'eau et d'alimenter directement les racines de ces arbres. Il faut dire aussi que l'essor de l'agronomie andalouse fut favorisé par les conditions socio-économiques et politiques caractérisées par une décentralisation régionale des pouvoirs de décisions rapprochant ainsi gouvernants et gouvernés et permettant un épanouissement des techniques et des initiatives locales. Il était aussi de tradition que les gouvernants encourageaient les sciences et plus spécialement celles à caractère appliqué comme l'agronomie. Ibn Al-Awam avait trouvé auprès des califes de Séville toute l'aide nécessaire pour expérimenter et tester ses techniques. Les résidences et les palais des califes fonctionnaient comme des « jardins d'essais » et des « stations expérimentales » pour la mise au point et la réalisation des techniques agronomiques de pointe.

Les agronomes andalous ont ainsi atteint un niveau élevé dans la maîtrise du matériel végétal et des facteurs de production agricole. Parmi ces facteurs l'eau était considérée comme la plus importante dans les conditions semi-arides andalouses.

Ibn Al-Awam a voulu faire de son livre une encyclopédie ne négligeant ni les croyances ni les superstitions qui dominaient les pratiques agricoles de son époque. Il a même enregistré les rites et les dogmes qui accompagnent l'interprétation de ces pratiques. Mais son interprétation personnelle des phénomènes naturels est restée à base expérimentale et a conservé ainsi un caractère scientifique. Le continu de ce livre est, donc, à manipuler avec prudence et à placer dans son contexte. Les sciences naturelles et physiques, ont, depuis, précisé des phénomènes qui étaient ignorés au Moyen Age.

L'oeuvre ainsi complète reflète la contribution de l'agronomie andalouse au progrès de l'ensemble de l'agriculture méditerranéenne. Elle donne une idée réelle sur le patrimoine technologique arabo-andalous pour nos ingénieurs et techniciens souvent éblouis par le transfert technologique occidental et ignorant parfois leur propre apport culturel à cette technologie, apport qui est la synthèse de toutes les oeuvres humaines dans ce domaine ».

و تواصل التفكير في تعريب العلوم الزراعية، و لئن كانت هذه الرغبة أحيانا فردية، و لم ترق بعد إلى مستوى المشروع الوطني، فإن ما قام به البعض من محاولات قد يساعد على تأصيل العلوم الزراعية في المجتمع التونسي. وفي هذا الإطار أصدر المركز الجامعي للنشر، في سنة 2000، كتابا في الفلاحة بعنوان في أصول الزراعة العصرية، للدكتور فرج سلامة، المتحصل على دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية اختصاص فيزيولوجية النبات، جاء في

ديباجة الكتاب ما يلي:

« بسم الله الرحمان الرحيم. أصدرنا منذ أكثر من عشر سنوات كتاب أصول الزراعة العصرية. و هو أول عمل قمنا به باللغة العربية في هذا الميدان الهام. و وجب اليوم مراجعته بنضج أكبر و خبرة أوسع لإصلاح أخطائه و لزيادة تسهيل استيعاب ما ورد فيه من قواعد زراعية أساسية. و أيضا لتنقيحه بالمعلومات الجديدة. و لا يخفى على أحد أن نوعية التربة و عوامل المناخ تتغير من جهة إلى أخرى بل و في نفس الجهة من منطقة إلى أخرى. و يجب أن يأخذ الفنيون و الفلاحون هذه التغيرات و هذه الفوارق بعين الاعتبار حتى يتوفقوا في عملهم الميداني كل في منطقته. فيكون مردود الفلاحة طيبا مربحا. و لأجل ذلك أوجد العلم أصولا أي أساسيات زراعية عامة تخص: التربة الفلاحية، النبتة الزراعية، عوامل الإنتاج النباتي و الفيزيائية و عوامل الإنتاج النباتي الكميائية. و يبقى هدفنا من وضع هذا التأليف إيجاد مرجع ييسّر فهم أصول الزراعة العصرية ليحسن استيعاب قواعدها الأساسية فتطوع و تطبق بإحكام حسب الجهات و تتطور كيفية إنجاز العمليات الزراعية. و الله ولي التوفيق».

خاتمة

لم نقصد من خلال إنجازنا لهذا العمل وضع كتاب عن تاريخ أرياف البلاد التونسية، بقدر ما سعينا إلى تأليف موجز، لأنه من الصعب القيام بذلك خاصة مع ما تقدمه الأركيولوجيا الريفية-رغم أنها ما زالت في تونس في خطواتها الأولى- من نتائج قد تعيد النظر في طريقة قراءة النصوص المدونة و التي تغطي مختلف العصور. لقد كان غرضنا من هذا العمل التنبيه إلى ما هو منسي في تاريخ البلاد، الأرياف. أن نحاول تتبع تطورها. و ينبغي أن أشير هنا أننا تعمدنا التعسف على مسألة «القطيعة»، و ذلك قصد إعادة النظر من جديد في عديد الأطروحات، التي أصبحت من المسلمات. مثل أطروحة ازدهار الفلاحة في التاريخ القديم و انتكاستها في الفترة العربية الكلاسكية. العداء التاريخي بين الفلاحة و البدو. العداء بين المستقرين الزراعيين والرُّحَل. جذور التوتر بين الرّيف و المدينة و دور المخزن في ذلك. موقف سكان الأرياف من سياسات المخزن الداخلية و الخارجية. كما حاولنا من خلال هذه الدراسة البحث في أسباب فقدان كتب الفلاحة التونسية رغم أن أول من كتب في تدبير الأرياف و صناعة الفلاحة كان مَاجُون. كما حاولنا أن نفهم سبب عدم إنخراط البلاد في هذا الصنف الآدبي في الفترة العربية

الكلاسكية. وعملنا على جمع ما يمكن جمعه من نصوص في الفلاحة تناثرت في عديد الكتب القديمة و الكلاسكية و الحديثة، لعلها تفيد في دحض فكرة عدم «تواصل» الكتابة في الفلاحة و الاقتصاد الريفي.

كما حاولنا من خلال هذا العمل أن نسأل، بطريقة غير مباشرة، سكان الأرياف عن موقفهم من هوية الأرض التي خَدَموها منذ ألاف السنين، فمن أفضل من خُدَّام الأرض الحقيقيين ليرشدنا إلى هوية تونس و التونسيين ، فهي ثابتة عند أهل الرّيف و متحولة عند أهل المدن، فلئن كانت وليدة ممارسة يومية و أزلية و تفان في حب و خدمة الأرض فهي في المدينة وليدة فكرة انتماء مغشوش، و نشوة عابرة حبكتها نزعة الانتهازية. لذلك عندما نتحدث عن عروبة تونس و انتمائها إلى البحر الأبيض المتوسط فإننا نستند أولا إلى الجذور المتوسطية لزراعة البلاد و التي هي أكثر وضوحا في الداخل، لأن خُدَّام الأرض هم أكثر سكان البلاد انتماء للمتوسط، فقد عرفوا «الآخر» منذ آلاف السنين، و تأثروا به و تأثر بهم، حتى إنه أعجب بقمح «افريـقـة» و زيت بلاد المُزَاق و دِقْـلة واحات الجريد. أما عن عروبة البلاد فيكفي أن تسأل أهالي الرّيف كما سأل القديس «أَوْغُسْطينوس» زُرَّاعها بعد مُرُور قرون عديدة على سقوط قَرْطَاج فأجابوه أنهم كنعانيون، فلو أعدت نفس السؤال على أحفادهم اليوم، لقالوا لك: «إننا أمازيغ وعَرَب و بقايا رُوم تَعَرّبوا فَتَعَرَّبَت الأرض التي أحبّوها فأحبّتهم بصدق».

قائمة المصادر و المراجع

المصادر المخطوطة

- كتاب الزّرع: مخطوطة برلين تحت رقم 6204.
- كتاب الفلاحة الرّومية نسخة تابعة للمكتبة الوطنية تحت رقم 14243.
- كتاب الفلاحة، النسخة المنحولة لديمقراطيس، مخطوطة تابع كشف دي سلان للمخطوطات العربية بالمكتبة الأهلية بباريس، تحت رقم 8202.

المصادر العربية

- ابن البيطار، **تفسير كتاب دياسقوريدوس في الأدوية المفردة**، تحقيق إبراهيم بن مراد، تونس، 1990.
- ابن بصال، **كتاب الفلاحة**، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي مارية مياس بيكروسا ومحمد عزيمان، المغرب، مولاي الحسن، 1955.
- ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، شرحه و كتب هوامشه طلال حرب، بيروت، د.خ.
- ابن حوقل ، **صورة الأرض**، بيروت، 1963.
- ابن خلدون ، **المقدمة**، بيروت، 1992.
- ابن سلام، **كتاب الأموال**، تحقيق خليل محمد هراس، القاهرة، 1975.
- ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقيا و الأندلس**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964.
- ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر و أخبارها**، ليدن-بريل، 1920.
- ابن العوام، **كتاب الفلاحة**، ترجمه وحققه بانكيري، مدريد، 1802.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، القاهرة، 1996.

- ابن وحشية، **الفلاحة النَّبَطِيَّة**، تحقيق توفيق فهد، دمشق، ج الأول، 1993 و الجزء الثاني، 1995.
- ابن النديم، **الفهرست، تحقيق غوستاف فلوجل**، 1971.
- أبو الخير الإشبيلي، **كتاب الفلاحة**، مدريد، 1991.
- أبو يوسف ، **كتاب الخراج**، بيروت، 1979.
- الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نابولي، منشورات المعهد الشرقي الإيطالي، 1970-1982.
- البكري، **المسالك و الممالك**، بغداد، د.ت.
- البلاذري، **فتوح البلدان**، القاهرة، 1959.
- الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، منتخبة من كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار و هو معجم تاريخي لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المنعم الحميري، عني بنشرها ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937.
- الرازي،**كتاب الحاوي في الطب**، حيدرباد، 1964-1955.
- الطبري، **تاريخ الرسل و الملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، القاهرة، 1963.
- القرشي، **كتاب الخراج**، تحقيق أبو الأشبال أحمد محمد شاكر، بيروت، 1979.
- القفطي، **تأريخ الحكماء**، ليبزيك، 1903.
- اليعقوبي، **تاريخ، بيروت**، 1960.
- **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محي لدين عبدا لحميد، القاهرة، 1951-1950.
- مؤلف مجهول، **كتاب الطبيخ في المغرب و الأندلس في عصر الموحدين**، تحقيق أمبروزيو أويثى ميراندا، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان التاسع و العاشر، مدريد 1962-1961.
- محفوظ (محمد)، **تفسير مفردات الأنطاكي باللجهة التونسية**، راجعه وعلق عليه ابراهيم بن مراد، بيروت، 1996 .

المراجع العربية والمعرّبة

- إدريس (الهادي روجوي)، الدولة الصنهاجية، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، بيروت، 1992.
- برنشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تقلع إلى العربية حماد الساحلي، بيروت، 1988.
- بن حمادي (عمر)، « بعض المنعرجات الهامة في أوضاع الملكيات الزراعية إفريقية»، دراسات تاريخية، السنة 13، العددان 42 و 44، أيلول-كانون الأول، 1992.
- بن وزدو (الهادي)/ ممّو (أحمد)/ حسن(محمد)، قانون المياه و التهيئة المائية بجنوب افريقية في العصر الوسيط، تونس، 1999.
- تيمومي (الهادي)، الاستعمار الرأسمالي و التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، تونس، 1999.
- جنحاني (الحبيب)، دراسات في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمغرب، بيروت، 1986.
- دغفوس (راضي)، « العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال، مجلة أوراق، عدد 4، 1981، ص 163-147، ص 148.
- دي ايبلزا (ميكال)، « و ثائق جديدة حول الأندلسيين بتونس في أوائل القرن الثامن عشر»، المجلة التاريخية المغربية، عدد 18-17، تونس.
- ستهم (حافظ)، شخصية الأقاليم الجغرافية التونسية، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999.
- طالبي (محمد)، الدولة الأغلبية (909-800/296-184) التاريخ السياسي، نقله إلى العربية المنجي الصيادي، بيروت، 1985.
- طرابلسي (بوراوي)، «بساتين آسيا الصغرى من خلال رحلة ابن بطوطة إشكالية البداوة و الزراعة في العالم الإسلامي»، تقديرية أندرى

ريمون، تونس، آب/ أوت، 2004.

- طرابلسي (بوراوي)، **نشأة علم الفلاحة العربي**، تونس، 2005.

- عمر (بن حمادي)، « **بعض المنعرجات الهامة في أوضاع الملكيات الزراعية إفريقية»**، دراسات تاريخية، السنة 13، العددان 42 و 44، أيلول-كانون الأول، 1992.

- كراتشكوفسكي (أغناطيوس)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، بيروت، 1987.

- محجوبي (علي)، **انتصاب الحماية الفرنسية بتونس**، تونس، 1986.

- محجوبي (عمّار)، **ولاية إفريقيا إلى نهاية العهد السويري (146 ق.م- 235 م.)**، تونس، 2001.

- وسلاتي (عامر)، **المشاهد الطبيعية في تونس**، تونس، 1994.

المصادر الأجنبية

- Cassianus Bassus Scholasticus, *Geoponicorum sive de re rustica libri XX*, Lipsiae, 1895

- Columelle, De l'agriculture, *Dans Les agronomes latins, M. Nisard*, Paris, 1874,

- Cornélius Népos, *oeuvres*, Paris, 1970.

- Hésiode, *les travaux et les jours*, Paris, 1951.

- Léon L'Africain, *Description de l'Afrique*, trad. M. Hadj-- Sadok, Paris, 1980.

- Palladius, De l'économie rurale, trad. M. Cabaret-Dupaty, Paris, 1844.

- Pline L'Ancien, *Histoire Naturelle, texte établi*, traduit et commenté par ANDRÉ, (J.), Paris, 1964, XVII .

- XVIII, *texte établi*, traduit et commenté par Henri Le Bonniec, (J.), Paris, 1972, XVIII.

- XXI, *texte établi*, traduit et commenté par Jacques André, Paris, 1969.

- Salluste, *la conjuration de catilina. La guerre de Jugurtha Fragments des histoires*, Paris, 1989, XVIII.

- Varron, *Économie rurale*, trad. J Heurgon, Paris, 1978.

- Virgile, *Géorgiques*, trad. E. De Saint-Denis, Paris, 1982.

المراجع الأجنبية

- Abdul-Wahab (H.H.), « *Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie* », Cahiers de Tunisie, N°691970 ,70-.

- Arie (R.), " *La vie économique de l'Espagne musulmane.* ", Hand buch der orientalistik, Band 6, geschichte der Islamichen lauder, Leyde- Cologne, E Brill, 1977.

- Bacherouch (T.), *Formation Sociale Barbaresque et Pouvoir à Tunis*, Tunis, 1977.

- Bolens (L.), *Agronomes Andalous au moyen-âge*, Genève, 1981.

- Chabot (J.B.), *Littérature chrétienne de l'Orient*, Paris, 1934.

- Chailley-bert (J), *la France en Tunisie*, in Revue générale des sciences pures et appliquées, op.cit, p.171.

- Chapoutot-Remadi (M.), *Tunis, in Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, écoles française de Rome, 200, p.p235262-.

- Charles-Picard(G./C.), *la vie quotidienne à Carthage*, Paris, 1958.

- Chérif (A.), *Secteur organisé et développement agricole dans le Haut Tell*, publication de la faculté des lettres de la Manouba, 1991.

- Chérif (M.H.), *Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn bin 'Ali (17051740-)*, Tunis, 1984.

- Colin (G.S.), « *Filâha* », EI2, t. II.

- Decret (F.), *Carthage ou l'empire de la mer*, Paris, 1977.

- Decret (F.)/Fantar (M.), *L'Afrique du Nord dans l'antiquité*, Paris, 1981.

- Depois(J.), *La Tunisie. Ses régions*, Paris, 1967

- Dubois (M), *la France en Tunisie, in Revue générale des sciences*

pures et appliquées, Paris, 1897.

- Gsell (S.), *Histoire ancienne de l'Afrique du nord*, Paris, 1928-1929.
- Heurgon (J.)," *l'agronomie carthaginois Magon et ses traducteurs.*
- Idris (H.R.), *La Berbérie orientale sous les Zirides aux Xe-XIIIe siècles*, Paris, 1962.
- Idris (H.R.),» *l'invasion hilalienne et ses conséquences»*, Cahiers de civilisation médiévale, 11, 1968, p.35371-.
- Kassab (A.), *L'évolution de la vie rurale dans les régions de la Moyenne Medjerda et de Bled Béja-Mateur*, Tunis, 1979.
- Kassab (A.)/Sethom(H.), Géographie de la Tunisie. *Le pays et les hommes, publication de l'université de Tunis*, 1980.
- Lancel (S.), *Carthage*, Paris, 1992.
- Lemerle (P.), *Le premier humanisme byzantin*, Paris, 1971.
- Leppeley (CL.), *l'Afrique, Rome et l'intégration de l'Empire*, Paris, 1977.
- Leveau (PH.), *L'Afrique du Nord, in Campagne de la Méditerranée romaine*, Paris, 1993, p.155200-.
- Marcais (G.), *Les Arabes en Bérberie du XIe au XIVe siècle*, Paris, 1913.
- Martin (R), *Recherches sur les agronomes latins et leurs conceptions économiques et sociales*, Paris, 1971
- Mieli (A), *La science arabe et son rôle dans l'évolution*, Leyde, 1966.
- Pellegrin (A.), La Medjerda aperçu historique
- Sethom (H.), *L'agriculture de la presqu'île du Cap bon, Géographie de la Tunisie.* Le pays et les hommes, Tunis, 1977.
- Talbi (M.), *"Droit et économie en Ifriqiya au IIIe/ siècle... ", in Études d'histoire Ifriqiyenne*, Tunis, 1982.
- Temimi (A), *« Politique Ottomane face l'implantation et à l'insertion des Morisques en Anatolie. »*, Revue d'histoire Maghrébine, N°61-1991 ,62.

- « *Évolution de l'attitude des autorités de la régence de Tunis face à l'accueil des morisques, à la lumière d'un nouveau firman du sultan ottoman.*", Revue d'histoire Maghrébine, N°691993 ,70-.
- Valensi (L.), *Fellahs tunisiens*, Paris, 1977.
- Varisco (D.M.), *The Almanac of a Yemeni Sultan*, London, 1994.
- Vaufrey (R.), *Préhistoire de l'Afrique*, Paris, 1955, t.1.

الفهرس



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

22، نهج المغاولين - المنطقة الصناعية الشرقية - أريانة - تونس
الهاتف +216 70 837 683 - الفاكس +216 70 838 975

بوراوي الطرابلسي

أستاذ التّاريخ والحضارة الإسلاميّة بكليّة الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منّوبة بتونس، متحصّل على الدكتوراه من كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس وعلى التأهيل الجامعي من نفس الكليّة، له عديد الكتب والمقالات المنشورة بالمجلات العلمية تتناول بالأساس مواضيع تتعلق بتاريخ العلوم في الفضاء العربي-البيزنطي في العصر الوسيط، وتراث البلاد التونسيّة غير المادي. من مؤلفاته: نشأة علم الفلاحة العربي (تونس في 2005)، و L'odyssée des plantes au Moyen Âge arabo-byzantin (تونس في 2009)، وكتاب الزّرع (تونس في 2010)، و Thunis Thanatos (تونس في 2011)، و Agricultura nostra (تونس في 2013).

هذا الكتاب

حاولنا من خلال هذا العمل أن نسأل، بطريقة غير مباشرة، سكان الأرياف عن موقفهم من هوية الأرض التي خَدَموها منذ ألاف السنين، فمن أفضل من خُدّام الأرض الحقيقيين ليرشدنا إلى هوية تونس والتونسيين ، فهي ثابتة عند أهل الرّيف و متحولة عند أهل المدن، فلئن كانت وليدة ممارسة يومية و أزلية و تفان في حب و خدمة الأرض فهي في المدينة وليدة نشوة عابرة. لذلك عندما نتحدث عن عروبة تونس و انتمائها إلى البحر الأبيض المتوسط فإننا نستند أولا إلى الجذور المتوسطية لزراعة البلاد و التي هي أكثر وضوحا في الداخل، لأن خُدّام الأرض هم أكثر سكان البلاد انتماء للمتوسط، فقد عرفوا «الآخر» منذ آلاف السنين، و تأثروا به و تأثر بهم، حتى إنه أعجب بقمح «افريقة» و زيت بلاد المُزَاق و دِقْلة واحات الجريد.

أما عن عروبة البلاد فيكفي أن تسأل أهالي الرّيف كما سأل القديس أَوْغُسْطينوس زُرّاعها بعد مُرُور قرون عديدة على سقوط قَرْطَاج فأجابوه أنهم كنعانيون، فلو أعدت نفس السؤال على أحفادهم اليوم، لقالوا لك: «إننا أمازيغ وعَرَب و بقايا رُوم تَعَرّبوا فَتَعَرّبَت الأرض التي أحبّوها فأحبّتهم بصدق».

ISBN : 978-9973-47-152-9



الثمن: 18 د